نزهة الناظرين

في تاريخ من ولي مصر

من الخلفاء والسلاطين

تأليف العلامة

مرعي الكرمي الحنبلي

طبعة محققة عن نسختين خطيتين

تحقيق وتعليق

جمال عبد الرحيم الفارس

دار اللباب

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

9 786052 279199

الخطوط بقلم: عدنان الشيخ عثمان
الإخراج الفني: خالد محمّد ياسين علوان

دار اللُّباب
للدِّراساتِ وتحقيقِ التُّراثِ

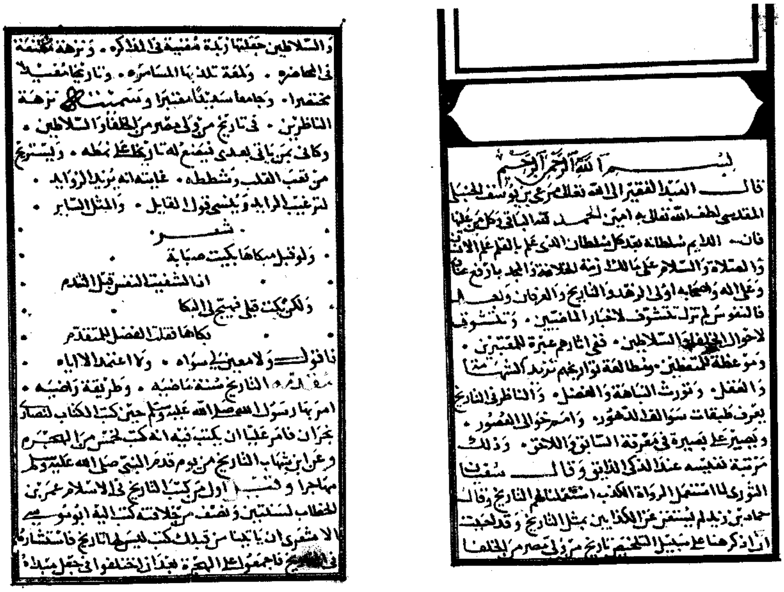
تركيا - اسطنبول - الفاتح - اسكندر باشا - كزتاش - مفرق بنك الكويت
مقابل مستشفى الفاتح - بناء رقم ٧ - ط ٥

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

Tel: 00902125255551 - Mob: 00905454729850

Www.allobab.com - Email: info@allobab.com



بسم الله الرحمن الرحيم

قال العبد الفقير إلى الله تعالى مرعي بن يوسف الحنبلي
المقدسي لطف الله تعالى به آمين الحمد لله الباقي وكل من عليها
فان الدائم سلطانه وكل سلطان الذي عم بالإنعام الأنام
والصلاة والسلام على سيدنا محمد زينة الخلافة والمجد بلا نزاع
وعلى آله وأصحابه أولي الزهد والتاريخ والعرفان وبعد
فالنفوس لم تزل تتشوف لأخبار الماضين وتتشوق
لأحوال الخلفاء والسلاطين ففي أخبارهم عبرة للمعتبرين
وموعظة للمتعظين ومطالعة تواريخهم تزيد أهل النهى تنبيها
والعقل وتورث النباهة والفضل والناظر في التاريخ
يعرف طبقات سوالف الدهور وأمر خوالي العصور
ويصير على بصيرة في معرفة السابق واللاحق وذلك
مرتبة نفيسة عند الذكي اللائق وقال سفيان
الثوري لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ وقال
حماد بن زيد لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ وقد أحببت
أن أذكر هنا على سبيل التلخيص تاريخ من ولي مصر من الخلفاء

والسلاطين جعلتها زبدة مغنية في المذاكرة ونزهة مقنعة
في المحاضرة ولمعة تلذ بها المسامرة وتاريخا مغنيا
مختصرا وجامعا مستوعبا معتبرا وسميته نزهة
الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين
وكافي من يأتي بعدي فيمنع له تاريخا على نمطه ويستريح
من تعب القلب وشططه غايته أنه يزيد الزوائد
لترغيب الرائد ويمشي قول القائل والمثل السائر

شعر

ولو قبل مبكاها بكيت صبابة
إذا لشفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا
بكاها فقلت الفضل للمتقدم

فأقول ولا يعين إلا هو سواه ولا اعتمد إلا إياه
مقدمة التاريخ سنة ماضية وطريقة راضية
أمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كتب الكتاب لنصارى
نجران فأمر عليا أن يكتب فيه أنه كتب لخمس من المحرم
وعن ابن شهاب التاريخ من يوم قدم النبي صلى الله عليه وسلم
مهاجرا وقيل أول من كتب التاريخ في الإسلام عمر بن
الخطاب لسنتين ونصف من خلافته كتب إليه أبو موسى
الأشعري أنه يأتينا من قبلك كتب ليس لها تاريخ فاستشار
في التاريخ فأجمعوا على الهجرة ثم اختلفوا في جعل مبدأ

مكتبة خسرو باشا (خ)



مكتبة شستربتي (ش)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آلِه وأصحابِه أجمَعين.

وبعد: فإنَّ مصرَ أرضُ الكِنانةِ، وقلبُ العالَمِ الإسلاميِّ، نشأَتْ فيها منذُ القِدَمِ حضاراتٌ ودُولٌ، وبعدَ مجيءِ الإسلامِ ودخولِه إليها حافظَتْ مصرُ على منزلَتِها في العالَم، بلْ ازدادَتْ رِفعةً وشَرفًا.

وقد كانَتْ مصرُ مَحَطَّ نظرِ العلماءِ والمؤرِّخينَ، فكتبوا في تاريخِها وأيَّامِها وحكَّامِها، وكانَ مِنْ بينِ أولئكَ العلماءِ مصنِّفُ هذا السِّفر: العلامةُ مرعيُّ الكَرميُّ رحمه الله تعالى، فأدلَى بدلوِه، وحرَّك يراعَه في تسطيرِ هذه الكتابِ.

ألقى فيه الضَّوءَ على مصر وهي في ظلال المسلمين، بِدءاً مِن الخلافةِ الرَّاشدة، وانتهاءً بزمنِ المصنِّف، وكانَ آخرَ مَن ذكرَهم مِن الخلفاءِ الخليفةُ العثمانيُّ مصطفى الأوَّل سنة (١٠٣١هـ)، وكان الوالي على مصرَ في زمنِه إبراهيم باشا.

وقد أحاط المصنِّفُ بأسماءِ الخلفاءِ والسَّلاطين وأهمِّ الأحداث باختصارٍ وإيجازٍ.

وفي مقدِّمةِ الكتابِ أوضحَ المصنِّف الفائدةَ مِنْ كتابةِ التَّاريخِ، وهي الاتِّعاظُ وأخذُ العِبرةِ منه، فقالَ: «ففي آثارِهم عبرةٌ للمعتَبرين، وموعِظةٌ للمتَّعِظين»، وبيَّنَ

فوائدَ أخرى منها: معرفةُ الطَّبقاتِ والأمَمِ، وتمييزُ السَّابقِ من اللَّاحق، ولهذا من الفوائد مَا لا يخفى على أحدٍ، وبيَّنَ أنَّ مطالعةَ التَّاريخ «تزيدُ الشَّهامةَ والعقل، وتورِثُ النَّباهةَ والفَضْل».

ثمَّ بدأ بسردٍ سريعٍ للخلفاءِ الرَّاشدين، ثم لخلفاءِ دولَةِ بني أميَّة، ثم لخلفاءِ الدَّولةِ العباسيَّة، يذكر فيها سِني خلافةِ كلِّ خليفةٍ، وسنةَ وفاتِه، وقد يذكرُ بعضَ الحوادثِ المهمةِ، والفوائدِ المنتقاة.

فقد ذيَّل ذِكرَه للوليدِ بنِ عبدِ الملكِ بقولِه: «وأكثر الفُتوح في أيَّامه».

وقالَ بعد كلامه عن الوليدِ بن يزيد بن عبد الملك: «ومِن حينَ قُتلَ اضطربَتْ خلافةُ بني أميَّة».

وقال في آخرِ ترجمتِهِ للمأمونِ: «وهو أوَّل مَنْ أظهرَ القولَ بخلقِ القرآن، وتبعَه المعتصم والواثق في ذلك».

ثم شرعَ ببيانِ خلفاء مصرَ من العباسيِّين، وقد كانَتِ التَّراجم للخلفاء مقتضبةً مختصرةً، إلَّا أنها أوسعُ قليلًا مِن سابقتها.

ثم عقدَ بابًا في ذكر سلاطين مصرَ في الإسلام، وقال في مَطلعه: «وهو المقصود بالذَّات». أي: في تأليفه لهذا الكتاب، وبيَّن سببَ ذلك فقال: «لأنَّ الخلفاءَ الَّذين كانوا بها من العباسيَّةِ لم يكُن لهم من الخلافةِ إلَّا الاسمُ، والمستقِلُّ بالأمورِ والتَّصرفِ إنَّما هوَ السَّلاطينُ».

ولم يذكرْ أسماءَ ولاة مصرَ في ظلِّ الخلفاء الرَّاشدين والدَّولة الأمويَّة وصدر الدَّولة العباسيَّة؛ لأنَّ وُلاتها لم يكونوا مستقلِّين بالأمر، بل كانوا نوَّابًا عن الخلفاء.

وبدأ هذا الباب بذكرِ أحمد بن طولون النَّائب عن الخليفة العباسيِّ المعتزِّ بالله، ومِن هنا بدأتِ التَّراجم تطول، وصار يذكر بعضَ القِصص والأشعار والأحداث.

ثم شرعَ في بيان الدَّولةِ الفاطميَّة، وتكلَّم عن سِيَرِهم وتراجمهم، وبيَّن رأيَه في تسميةِ أنفسهِم بالخلافةِ، وقرَّر بطلانه؛ لأنَّه لا تصحُّ البيعة بالخلافة لإمامَيْن.

وخرجَ عن موضوع الكتاب فتطرَّق لحكمِ مسألةِ إحداثِ الكنائس في البلدان الَّتي بناها المسلمون كالقاهرة.

ثم انتقلَ المصنِّفُ بعد ذلك للحديثِ عن الدَّولةِ الأيوبيَّة، ولا يخفى للقارئ إعجابُ المصنِّف بهم، فهم أصحابُ فتوحات، وجدَّدوا الخطبة للعباسيِّين بمصر.

فبدأ بذكر صلاح الدِّين وتكلَّم عنه بما لم يتكلَّم عن غيره، فوصفَ سيرتَه وفتوحاتِه، لا سيَّما فتحَ بيت المقدس، ونصرته للسُّنَّة... إلى غير ذلك.

وانتقلَ بعدها لدولة المماليك، ثم الدَّولةِ التركيَّة، وبعدها الدَّولة القلاوونيَّة الصَّالحيَّة، فالدَّولة الجركسيَّة، ثم كان ختام الدُّول بالدَّولة العثمانيَّة ووزرائِهم بمصر.

وكان في حديثِه عن هذه الدُّولِ يُولي اهتمامًا بالسَّلاطين الأقوياء، ويذكرُ من أخبارِهم ومآثرِهم أكثرَ مِن غيرِهم.

ولم ينسَ المصنِّفُ أخبارَ العلماءِ والقضاةِ، مع حرصِهِ على الإيجاز والاختصار، فذكر محنةَ القاضي بكَّار مع أحمد بن طالون، وبعضَ أخبار العزِّ بن عبد السَّلام، وحادثةً للإمام النَّوويِّ، وتكلَّم عن ابن تيمية وشجاعته في قتال التَّتار وفي إنكار المنكر، وغيرهم.

ومع أنَّ التَّاريخ كلَّه عبرٌ وعِظاتٌ، إلَّا أنَّه صرح بذكر ذلك في بعض المواضع، فقال معلِّقًا على حادثة السُّلطان العزِّ بن عبد السَّلام والظَّاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون وانتصارهم على التَّتار: «وذلكَ ببركةِ التَّحلِّي بالعبادةِ والطَّاعةِ والتَّخلِّي عن المعصيةِ. ولهذا أمراءُ زماننا هذا معَ كثرةِ عَددِهم وعُددِهم لا تراهم فَعلُوا في الجهادِ فضيلةً يخلِّدونَ لهم بها ذكرًا، ولو تركُوا المحرَّماتِ لرَفعَ اللهُ لهم قدرًا وأشدَّ لهم أزرًا».

وفي أثناء كلامه عن السَّلاطين عُنِيَ بذكرِ بناء المدارس والجسور والمساجد والآبار، وقد يستطردُ أحيانًا في هذا أيضًا، فعند ذكرِه لبناء مدرسة السُّلطان حسن بَيَّنَ كيفَ أنَّه تولَّى مشيختَها، ونازعَه فيها رجلٌ، وكذا تكلَّم عن حفر الآبار في مكَّة وعرفات، وتشبُّه بنت السُّلطان سليمان بزوجة هارون الرَّشيد في ذلك.

ويعتبرُ تأريخ المصنِّف للفترة التي عاصرها وما قبلها مِن أهمِّ ما جاء في الكتابِ، لأنَّه تاريخٌ عن معاصرةٍ ومشاهدةٍ أو عن سماعٍ قريبٍ، فيعدُّ مصدرًا مهمًّا وتوثيقًا فريدًا لتلك الفترة.

أمَّا خاتمة الكتاب فكانت طويلة بعض الشَّيء بالنِّسبة لحجم الكتاب، فقد جعلها المصنِّف موعظةً ونصيحةً كما ذكر في مطلعها، وذكرَ فيها عدَّة أمورٍ منها: عدمُ جوازِ تعدُّدِ الإمام، ووجوبُ طاعتِه، وفضيلةُ الإمامِ العادلِ، وعدمُ جوازِ احتجابِ الإمامِ عن النَّاس، ووجوبُ الرِّفقِ بالرَّعيَّة والنُّصحِ لهم، وتعامُلُ الإمامِ مع المالِ، ووجوبُ إقامةِ الحدودِ وإنكارِ المنكراتِ، ووجوبُ ولايةِ أمورِ النَّاسِ، وتحريمِ السُّجودِ للسُّلطان، وغيرها، مستفيداً في ذلك كلِّه مِن كتاب «السِّياسة الشَّرعية» لابن تيمية.

هـذا، وقـد اعتمدتُ في تحقيـقِ هذا الكتابِ على **نُسـختينِ خطِّيتيـنِ**، **الأولى**: نسـخة خسـرو باشـا، ورمـزت لها بـ(خ)، **والثانية**: نسـخة شسـتربتي ورمـزت لها بـ(ش).

وجعلتُ لبعض الفقراتِ عنواناً، لا سيَّما عند بدءِ حديثِ المصنفِ عن خليفةٍ أو سلطان، وكذا في الخاتمة لطولها، وجعلتُها بين معكوفتين تنبيهًا أنَّها زيادةٌ على نصِّ المصنِّف.

والحمدُ للهِ في البدءِ والختامِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على محمَّدٍ خيرِ الأنام، وعلى آلِهِ وصحابتِهِ الكرام.

المحقق

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

قالَ العبدُ الفقيرُ إلى اللهِ تعالى مرعيُّ بنُ يوسُفَ الحنبليُّ المقدِسيُّ لطَفَ اللهُ تعالى بهِ آمينَ:

الحمدُ للهِ الباقي وكلُّ من عليها فانٍ، الدَّائمِ سلطانُهُ بعدَ كلِّ سلطانٍ، الَّذي علَّمَ بالقلمِ علَّمَ الإنسانَ، والصَّلاةُ والسلامُ على مالكِ أزمَّةِ الخلافةِ والمجدِ بأرفَعِ عِنانٍ، وعلى آلهِ وأصحابِهِ وخلفائِهِ[1] أولي الزُّهدِ والتَّاريخِ والعِرفانِ.

وبعدُ:

فالنُّفوسُ لم تزَل تتشَوَّقُ لأخبارِ الماضِين، وتتشوَّفُ[2] لأحوالِ الخلفاءِ والسَّلاطِين، ففي آثارِهم عبرةٌ للمعتَبرين، وموعِظةٌ للمتَّعِظين، ومطالعةُ تواريخهم تزيدُ الشَّهامةَ والعَقْل، وتورِثُ النَّباهةَ والفَضْل، والنَّاظرُ في التَّاريخِ يعرِفُ طبقاتِ سوالفِ الدُّهور، وأمَمَ خوالي العصور، ويصيرُ على بصيرةٍ في معرفةِ السَّابقِ واللَّاحق، وذلكَ مرتبةٌ نفيسَةٌ عند الذَّكيِّ الذَّائق.

قالَ سُفيانُ الثَّورِيُّ: لَمَّا استعمَلَ الرُّواةُ الكذِبَ استعمَلنا لهم التَّاريخَ[3].

---

(١) «وخلفائه» من (ش).

(٢) في (خ): «وتتشوق».

(٣) رواه ابن عدي في مقدمة «الكامل» (١/ ٨٤)، والخطيب البغدادي في «الكفاية» (ص١١٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ٥٤).

وقالَ حمَّادُ بن زيدٍ[١]: لم يُستعَنْ عن الكذَّابينَ بمثلِ التَّاريخِ[٢].

وقد أحبَبْتُ أن أذكُرَ هنا على سبيلِ التَّلخِيصِ تاريخَ مَن وَليَ مِصرَ من الخلفاءِ والسَّلاطِينِ، جعلتُها زُبدةً[٣] مُغنيةً[٤] في المذاكرَةِ، ونزهةً مقنعةً في المحاضرَةِ، ولمعةً تلذُّ بها المسامرَةُ، وتاريخًا مفيدًا مختصرًا، وجامعًا سديدًا معتبرًا، وسميتُهُ:

«نزهةَ النَّاظرينَ في تاريخِ مَن وليَ مِصرَ من الخلفاءِ والسَّلاطينَ»

وكأنِّي بمن[٥] يأتي بعدِي فيضَعُ له تاريخًا على نمَطِه، ويستريحُ من تعَبِ القلبِ وشططِه، غايتُه أنَّه يزيدُ الزَّوائد، لترغيبِ الرَّائد، وينسَى قولَ القائلِ والمثلِ السَّائرِ، شعرٌ:

ولــو قَبــلَ مَبكَاهــا بَكَيــتُ صَبابــةً   إذًا لشَــفَيْتُ النَّفــسَ قبــلَ التَّنَــدُمِ
ولكِــن بكَــتْ قبلِــي فهيَّــجَ لــي البُكا   بكاهــا فقلْــتُ الفَضــلُ للمُتقَــدِّمِ[٦]

فأقولُ ـ ولا مُعينَ لي سواهُ، ولا أعتمِدُ إلَّا إيَّاهُ ـ:

* * *

(١) كذا في النسختين، وفي مصدري التخريج: «حسان بن زيد»، وقال ابن عساكر بعد روايته للأثر: «كذا من تاريخ بغداد: حسان بن زيد، وأظنه: حماد بن زيد».

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ١٣١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ٥٤).

(٣) في (ش): «نبذة».

(٤) في (ش): «معينة».

(٥) في (ش): «وكافي لمن».

(٦) نسب البيتان لنصيب بن رباح. انظر: «ديوانه» (ص١٣٠)، ولعدي بن رقاع. انظر: «ديوانه» (ص١٠٢). وفيهما: «سعدى شفيت» بدل «إذًا لشفيت».

مقدمةٌ

التَّاريخُ سُنَّةٌ ماضية، وطريقَةٌ راضية، أمرَ بها رسولُ اللهِ ﷺ حين كتبَ الكتابَ لنصارَى نجرانَ، فأمرَ عليًّا أن يكتُبَ فيهِ: إنَّه كُتِبَ لخمسٍ من الهجرةِ[١].

وعن ابنِ شهابٍ: التَّاريخُ من يومِ قدِمَ النَّبيُّ ﷺ مهاجرًا[٢].

وقيلَ: أوَّلُ مَنْ كتَبَ التَّاريخَ في الإسلامِ عمرُ بن الخطَّابِ لسنتَينِ ونصفٍ من خلافتِهِ، كتبَ إليهِ أبو موسَى الأشعريُّ: إنَّه[٣] يأتِينا من قِبَلكَ كتبٌ ليس لها تاريخٌ، فاستشارَ في التَّاريخِ، فأجمعُوا على الهجرةِ، بعدَ أن اختلَفُوا في جعلِ مبدئهِ هل هوَ مولدُ النَّبيُّ ﷺ، أو مبعَثُهُ، أو هجرَتهُ[٤].

ثم قالوا: بأيِّ شيءٍ[٥] نبدأُ فنُصيِّره أوَّلَ السَّنةِ؟ فقالَ بعضٌ: رجبٌ، وبعضٌ:

---

(١) انظر: «تدريب الراوي» (٢/ ٣٥٥) للسيوطي، وقال: «رأيت في مجموع بخط ابن القماح عن اوبن الصلاح أنه قال: ذكر أبو طاهر بن محمش الزيادي في كتاب الشروط: أن رسول الله ﷺ أرخ بالهجرة حين كتب الكتاب لنصارى نجران، وأمر عليا أن يكتب فيه: إنه كتب لخمس من الهجرة. قال: فالمؤرخ بها إذن رسول الله ـ ﷺ ـ وعمر تبعه في ذلك، وقد أشبعت الكلام في ذلك في مؤلف مستقل يختص بهذه المسألة». وهذا الكتاب الذي أشار إليه السيوطي هو «كتاب الشماريخ في علم التاريخ».

(٢) رواه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٢٨٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ٣٨). قال المسعودي في «التنبيه والإشراف» (١/ ١٠٧): وهذا خبر مجتنب من حيث الآحاد، ومرسل من عند من لا يرى قبول المراسيل، وما حكيناه أوَّلًا ـ وهو أن عمر رضي الله عنه هو من بدأ بالتأريخ ـ هو المتفق عليه.

(٣) في (خ): «أن».

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ٤٢).

(٥) في (ش): «شهر».

رمضانُ، وبعضٌ: ذو الحجةِ، وبعضٌ: الشَّهرُ الذي خرَجَ فيهِ من مكةَ، وبعضٌ: الشَّهرُ الذي قدِمَ فيه المدينةَ. وقالَ عثمانُ: أرِّخوا من المحرَّمِ أوَّلَ السَّنةِ، وهو شهرٌ حرامٌ، وأولُ الشُّهورِ في العدةِ، ومُنصرَفُ النَّاسِ عن الحجِّ، فأجمَعُوا على ذلكَ(١).

وذكرَ ابنُ عساكرَ وغيرُهُ: أنَّه لم يزَل للنَّاسِ تاريخٌ، كانوا يؤرِّخونَ في الدَّهرِ الأوَّلِ من هبوطِ آدمَ من الجنَّةِ، فلم يزَل ذلكَ حتى بعَثَ اللهُ نوحًا فأرَّخُوا من الطُّوفانِ، ثم لم يزَل كذلكَ حتى حُرِقَ إبراهيمُ فأرَّخُوا من حريقِ إبراهيمَ(٢).

ثمَّ اختَلفُوا؛ فأرَّخَ بنو إسحاقَ من نارِ إبراهيمَ إلى مبعَثِ يوسُفَ، ومن مبعَثِ يوسُفَ إلى مُلكِ سُليمانَ، ومن ملكِ سُليمانَ إلى مبعَثِ عيسَى، ومن مبعَثِ عيسى إلى مبعَثِ سيِّدِنا رسولُ اللهِ ﷺ.

وأرَّخَ بنو إسماعيلَ من بُنيانِ الكعبةِ إلى موتِ كعبِ بن لؤيٍّ، ومن مَوتِ كعبِ بن لؤيٍّ(٣) إلى عامِ الفيلِ، فأرَّخوا منهُ.

ثمَّ أرَّخَ المسلمونَ بعد ذلكَ من الهِجرةِ، وكانتِ النَّصارَى تؤرِّخُ بعهدِ إسكندرَ ذي القرنَينِ، وكانَتِ الفرسُ يؤرِّخونَ بملوكِهِم(٤).

ولنشرَع في المرادِ فنقولُ: لا بأسَ بذكرِ فائدةٍ لطيفَةٍ، وهيَ أنَّه قيلَ: عاشَ آدمُ عليهِ السَّلامُ ألفَ سنةٍ، وبينَ موتهِ والطُّوفانِ ألفُ سنةٍ ومئتانِ واثنتان وأربعونَ سنةً،

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ٤٥)، وابن أبي خيثمة كما في «الشماريخ» للسيوطي (ص٢٤) عن ابن سيرين.

(٢) «فأرخوا من حريق إبراهيم» من (ش).

(٣) «ابن لؤي» ليس في (ش).

(٤) انظر: «تاريخ دمشق» (١/ ٣٤)، وانظر: «تاريخ الطبري» (١/ ١٩٣)، «المنتظم» لابن الجوزي (٤/ ٢٢٧).

وعاشَ نوحٌ بعدَ الطُّوفانِ ثلاث مئةٍ وخمسينَ سنةً، وبينَ نوحٍ وإبراهيمَ ألفُ(١) سنةٍ ومئتانِ وأربعونَ سنةً، وبينَ إبراهيمَ وموسى سبع مئةِ سنةٍ، وبينَ موسَى وداودَ خمسُ مئةِ سنةٍ، وبين داودَ وعيسَى ألفُ سنةٍ ومئتا سنةٍ، وبينَ عيسَى ومحمَّدٍ ستُّ مئةٍ وعشرونَ سنةً، وقيلَ غيرُ ذلكَ.

ولا يعلَمُ تحقيقَ ذلكَ إلَّا اللهُ، قالَ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨].

ولا بأسَ أيضًا بذكرِ الخلفاءِ كلِّهم على وجهٍ مختصرٍ، لتتمَّ الفائدةُ على الوجهِ المعتبَرِ:

سيِّدُ الخلفاءِ وخاتمُ الرُّسلِ محمدٌ ﷺ

وُلِدَ بمكَّةَ، في شِعبِ بني هاشمٍ، يومَ الإثنينِ بلا خلافٍ، الثَّاني عشرَ من ربيعٍ الأوَّلِ على الأصحِّ، لعشرينَ من شهرِ نيسانَ عامَ الفيلِ، بعد قدُومِهِ لمكَّةَ بخمسِينَ يومًا على الأشهَرِ في ولايةِ الملكِ العادِلِ كسرى أنوشَروانَ، سنةَ ثمانٍ وسبعينَ وخمس مئةٍ من رفعِ عيسى عليهِ السَّلامُ إلى السَّماءِ.

ولَمَّا تمَّ لهُ خمسٌ وعشرونَ سنةً تزوَّجَ خديجةَ، ولَمَّا تمَّ لهُ أربعونَ سنةً بعثَهُ اللهُ، ولَمَّا تمَّ له إحدَى وخمسونَ سنةً وتسعةُ أشهرٍ أُسرِيَ بهِ إلى السَّماءِ، ولَمَّا تمَّ له ثلاثٌ وخمسونَ سنةً هاجرَ إلى المدينةِ، وكانَ أوَّلَ المحرَّمِ سنةَ الهجرةِ يومَ الخميسِ الثَّامنَ من أيَّامِ، سنةِ ثلاثٍ وثلاثينَ وتسعِ مئةٍ من ذي القَرنينِ، وأقامَ بالمدينةِ عشرَ سنينَ.

وتوفِّيَ ﷺ يومَ الإثنين لاثني عشرةَ ليلةً خلَتْ من ربيعِ الأوَّلِ، سنةَ إحدى عشرةَ من الهجرةِ، وعمرُهُ ثلاثٌ وستُّونَ سنةً.

---

(١) في (ش): «ألفا».

دولةُ الخلفاءِ الرَّاشدينَ رضوانُ اللهِ عليهم أجمَعِين

أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ: عبدُ اللهِ بنُ أبي قُحافةَ عُثمان، بويعَ بالخلافةِ سنةَ إحدى عشرةَ من الهجرةِ، فأقامَ سنتَينِ وثلاثةَ أشهرٍ وتسعةَ أيَّامٍ، وتوفِّيَ وعمرُهُ ثلاثٌ وستُّونَ سنةً.

الفاروقُ عمرُ بنُ الخطَّابِ: أميرُ المؤمنينَ، بويعَ بالخلافةِ[١] يومَ موتِ الصِّدِّيقِ، فأقامَ عشرَ سنينَ وستَّةَ أشهُرٍ وخمسَ ليالٍ، وتوفِّي ثالثَ عشرَ ذي الحجَّةِ، سنةَ ثلاثٍ وعشرينَ، وعمرُهُ ثلاثٌ وستُّونَ سنةً.

ذو النُّورَينِ عثمانُ: بُويعَ أوَّلَ المحرَّمِ، فأقامَ اثنتي عشرةَ سنةً إلَّا أيامًا، وتُوفِّيَ بشوَّالٍ سنةَ خمسٍ وثلاثينَ، وعمرُهُ ثلاثٌ وستُّونَ سنةً، والأشهَرُ اثنتانِ وثمانُونَ سنةً.

المُرتضَى عليُّ بن أبي طالبٍ: بُويعَ بعدَ وفاةِ عثمانَ، فأقامَ أربعَ سنِينَ وتسعةَ أشهُرٍ، وقُتِلَ ليلةَ الجمعةِ، سابعَ عشرَ رمضانَ، سنةَ أربعينَ، وعمرُهُ ثلاثٌ وستُّونَ سنةً.

الحسنُ ولدُهُ: بُويعَ يومَ ماتَ أبوهُ، فأقامَ ستَّةَ أشهُرٍ، ثمَّ خلَعَ نفسَه طائعًا في ربيعٍ الأوَّلِ سنةَ إحدَى وأربعينَ، وماتَ سنةَ ستٍّ وخمسِينَ، وعمرُهُ سبعٌ وأربعونَ سنةً.

وفي الحديثِ: «الخِلافةُ بعدِي ثلاثونَ سنةً، ثمَّ تكُونُ[٢] مُلكًا ومُلوكًا»[٣]. وكانَ آخرُ ولايةِ الحسَنِ رضيَ الله عنه تمامَ الثَّلاثينَ.

---

(١) «بالخلافة» من (ش).

(٢) «تكون» من (ش).

(٣) روى نحوه أبو داود (٤٦٤٦)، والترمذي (٢٢٢٦) وحسنه، من حديث سفينة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ. ولفظ أبي داود: «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك من يشاء، أو ملكه من يشاء».

[الدَّولة الأمويَّة]

ثم جاءَتِ الدَّولةُ الأمويةُ وكانت بالشَّامِ، وعدَّةُ الخلفاءِ منهم أربعةَ عشرَ، وكانتْ عمَّالهُم بمصرَ والشَّامِ والحجازِ والهندِ والصِّينِ وخُراسانَ، والمشرقِ والمغربِ والأندَلُسِ وسائرِ أقطارِ الإسلامِ، ومدَّتهم اثنتَانِ وتسعونَ سنةً.

فأوَّلُهم مُعاويةُ بنُ أبي سُفيانَ: بُويعَ في ذي[1] الحجةِ ببيتِ المقدِسِ سنةَ أربعينَ، فأقامَ تسعَ عشرةَ سنةً وثلاثةَ أشهُرٍ، وتوفيَ في رجَبٍ سنةَ ستِّينَ، ودُفِنَ بدمشقَ، وعمرُهُ ثمانٍ وسبعونَ سنةً.

يزيدُ ابنهُ: بُويعَ يومَ ماتَ أبوهُ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وتسعة[2] أشهُرٍ، وتوفِّي رابَع عشرَ ربيعٍ الأوَّلِ سنةَ أربعٍ وستِّينَ، وعمرهُ تسعٌ وثلاثونَ، ودُفِنَ بدمشقَ.

معاويةُ ابنهُ: بويعَ يومَ ماتَ أبوهُ، فأقامَ أربعينَ يومًا، وتوفِّي خامسَ ربيعٍ الآخرِ سنةَ أربعٍ وستِّينَ، وعمرُهُ ثلاثٌ وعشرونَ سنةً، وكانَ رجُلًا صالحًا.

عبدُ اللهِ بنُ الزُّبيرِ: بويعَ بمكَّةَ تاسعَ رجبٍ[3]، سنةَ أربعٍ وستِّينَ، فأقامَ تسعَ سنينَ إلَّا قليلًا، وقتلَهُ الحجَّاجُ ثالثَ عشرَ جمادى الآخرَ، سنةَ ثلاثٍ وسبعِينَ.

مروانُ بنُ الحكَمِ: بويعَ في الشَّامِ في رجبٍ سنةَ أربعٍ وسُبعينَ[4] فأقامَ عشرةَ أشهُرٍ، وتوفيَ برمضانَ سنةَ خمسٍ وسبعينَ، وكانَ ملكُهُ بالشَّامِ ومصرَ، ولم تصِحَّ خلافتُهُ.

---

(١) «ذي» ليس في (ش).

(٢) في (ش): «وسبعة».

(٣) وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان. انظر: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص١٦٠).

(٤) في (ش): «وستين».

عبدُ الملكِ ابنهُ: بويعَ يومَ موتِهِ، فأقامَ إحدَى وعشرينَ سنةً ونصفَ شهرٍ، منها سبعُ سنينَ وسبعةُ أشهُرٍ مُتغلِّبًا على ابنِ الزُّبيرِ، وباقيها بعدَ قتلِهِ، ومن حينئذٍ صحَّتْ خِلافتُهُ(١)، وتوفِّي(٢) سنةَ ستٍّ وثمانينَ، وعمرُه ستونَ سنةً(٣).

الوليدُ بن عبدِ الملكِ: بُويعَ يومَ موتهِ فأقامَ تسعَ سنينَ(٤)، وتوفِّيَ بجُمادى الآخرةِ، سنةَ ستٍّ وتسعينَ، وعمرُهُ ثمانٍ وأربعونَ سنةً، ودُفنَ بدمشقَ، وأكثر الفتوحِ في أيَّامِه.

سُليمانُ أخوهُ: بُويعَ يومَ موتهِ، فأقامَ سنتَينِ وثمانيةَ أشهُرٍ، وتوفي بصفر سنةَ تسعٍ وتسعينَ، وعمرُهُ خمسٌ وأربعونَ سنةً.

عمرُ بن عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنه: بويعَ يومَ موتهِ، فأقامَ سنتَينِ وخمسَةَ أشهُرٍ، وتوفِّيَ برجبٍ سنةَ إحدى ومئةٍ، وعمرُه تسعٌ وثلاثونَ سنةً، ودُفنَ بديرِ سمعانَ بأرضِ حِمصَ.

يزيدُ بن عبدِ الملكِ بن مروانَ: بويعَ يومَ موتِ عمرَ، فأقامَ أربعَ سنينَ وشهرًا، وتوفِّيَ بحَرَّانَ(٥) في شعبانَ، سنةَ خمسٍ ومئةٍ، وعمرُهُ تسعٌ وعشرونَ سنةً.

---

(١) «خلافته» ليس في (ش).

(٢) في (ش): «وتوفي عبد الملك بن مروان».

(٣) في هامش (ش): «وولد في أيامه الإمام الأعظم أبو حنيفة النُّعمان بن ثابتٍ رحمه اللهُ تعالى في ثمانينَ، وتوفي سنة خمسين ومئةٍ، وعاش من العمرِ سبعينَ سنةً، وهو أكبرُ الأئمَّةِ وأقدمُهم، وظهر المذهب الحنفي».

(٤) في هامش (ش): «وولد الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى في زمان دولته، وتوفي سنة ١٧٩. وهو ـ أي الوليد ـ الذي بنى جامع بني أمية، وأنفق على بنائه ٤٠٠ صندوق، في كل صندوق ٢٨٠٠٠ دينارًا، رحمه الله تعالى».

(٥) حران: مدينة قديمة، كانت مركزًا من أهم مراكز الثقافة الإغريقية السريانية قبل الإسلام، وبقي فيه =

هشامٌ أخوهُ: بويعَ يومَ موتهِ، فأقامَ تسعَ عشرةَ سنةً، وتوفِّيَ بالرُّصافةِ(١) في ربيعٍ الآخرِ سنةَ خمسٍ وعشرينَ ومئةٍ، وعمرُه ثلاثٌ وخمسونَ سنةً.

الوليدُ بنُ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ: بُويعَ يومَ موتِ عمهِ هشامٍ، فأقامَ سنةً وشهرينِ وعشرينَ يومًا، وقتِلَ لفسقِهِ في جمادَى الأولى سنةَ ستٍّ وعشرينَ ومئةٍ، ومن حين قتِلَ اضطربَت خلافةُ بني أُميَّةَ(٢).

يزيدُ بنُ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ: بويعَ يومَ قُتِلَ ابن عمِّهِ الوليدِ، فأقامَ خمسةَ أشهُرٍ، وتوفِّيَ سنةَ ستٍّ وعشرينَ ومئةٍ، وعمرُهُ أربعونَ سنةً.

إبراهيمُ أخوهُ: بويعَ يومَ موتهِ في ذي الحجَّةِ، فأقامَ سبعينَ يومًا، وخلعَ نفسَهُ في صفرٍ سنةَ سبعٍ وعشرينَ ومئةٍ.

مروانُ بن محمَّدِ بن مروانَ الأوَّل(٣): بويعَ يومَ خلعِ إبراهيمَ، فأقامَ خمسَ سنينَ وشهرًا، وقتلَ في ذي الحجَّةِ عامَ اثنينِ وثلاثينَ ومئةٍ، بناحيةِ بوصيرَ(٤) من أرضِ مصرَ، وعمرُهُ تسعٌ وخمسونَ سنةً، وهوَ آخرُ خلفاءِ بني أميَّةَ.

= بعض الصَّابئة حتى ما بعد خلافة المأمون، وينسب لها كثير من العلماء، تقع حاليًا في جنوب تركيا قرب الحدود السورية، تتبع إداريًا لمحافظة أورفة.

(١) الرُّصافة: مدينة عريقة عبر العصور، تقع في البادية السورية بالقرب من مدينة الرقة، اهتم بها هشام بن عبد الملك وبنى قصره فيها، وسميت باسمه: رصافة هشام.

(٢) «ومن حين قتل اضطربت خلافة بني أمية» من (خ).

(٣) «الأول» من (ش).

(٤) بوصير: اسم لأربع قرى بمصر، والتي قتل فيها مروان بن محمد: بوصير قوريدس، في صعيد مصر. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (١/ ٥٠٩).

يقالُ: إنَّه كانَ[1] عرضَ جيشَهُ، فبلَغَ أربع مئةِ ألفٍ غارقينَ في العُدَدِ، فقالَ لوزيرِهِ: لا أظنُّ جيشًا في الدُّنيا يغلِبُ جيشَنا هذا! فقالَ الوزيرُ: يا أميرَ المؤمنينَ! إذا جاءَتِ المدَّةُ لم تنفعِ العدَّةُ، وإذا جاءَ المدَدُ لم تنفعِ العُدَدُ[2].

***

(١) «كان» من (خ).

(٢) انظر نحوه: «المنتظم» لابن الجوزي (٧/ ٣٠٥)، و«تهذيب الرياس» للقلعي (ص٣١١)، و«مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (١١/ ٤٤٣)، وفيها أن القائل هو مروان بن محمد.

[الدَّولةُ العباسيَّةُ]

ثـم جـاءَتِ الدَّولـةُ العباسـيَّةُ، وكانـوا بالعـراقِ، وعِدَّتُهـم بهـا سـبعٌ وثلاثونَ خليفَـةً، ثـم انتقَلُـوا لمصـرَ وعِدَّتُهـم بهـا نحـو(١) سـبعةَ عشـرَ خليفـةً، وفـي صدرِ ولايتِهـم إلـى المتـوكِّلِ على اللهِ كانت أعمالُهم سـائرَ بلادِ الإسـلامِ غيـرَ الأندلسِ، فإنَّهـا خرجَـتْ عنهـم بتغلُّبِ بنـي أُميَّـةَ علَيها.

واسـتمرَّت الخلافـةُ فيهـم نحـوَ ثمانِمئـةِ سـنةٍ، وكانَ يُظـنُّ بقاؤهـا فيهـم إلـى أن يسـلِّموها للمهـديِّ آخـرَ الزمـانِ، وهـمُ الذيـن أحدثُوا الألقـابَ للخلفـاءِ وقيلَ: كانـتِ الألقـابُ أيضًـا لبني أُميَّةَ، وإن سُـلِّمَ ذلك فلا شُـهرةَ لهـم بها، فـأَوَّلُ الخلفاءِ العباسيينَ:

السَّفاحُ(٢): أبو العباسِ، عُبيدُ اللهِ بنُ محمَّدِ بن عليٍّ ابنِ ترجمانِ القرآنِ عبدِ الله ابن عبَّاسٍ عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ، بويعَ بالخلافةِ رابعَ عشرَ ربيعِ الأوَّلِ، عامَ اثنين وثلاثينَ ومئةٍ، فأقامَ أربعَ سنينَ وثمانيةَ أشهرٍ، وتوفِّيَ سنةَ ستٍّ وثلاثينَ ومئةٍ(٣).

المنصـورُ أبـو جعفرٍ: عبـدُ اللهِ أخـوهُ، بويعَ يـومِ موتـهِ، فأقامَ اثنتين وعشـرينَ سـنةً، وتوفـيَ محرِمًا قـربَ مكَّةَ، فـي ذي الحجَّةِ، سـنةَ ثمانٍ وخمسـينَ ومئةٍ، وهو الذي بنى بغـدادَ(٤).

---

(١) «نحو» من (خ).

(٢) في (خ): «أولهم السفاح».

(٣) «ومئة» ليس في (ش).

(٤) فـي هامـش (ش): «وولـد الإمـام محمـد المكـرم بـن إدريـس الشـافعي رحمـه الله تعالـى سـنة خمسـين ومئـة».

المهديُّ محمَّدٌ: ولدُ المنصورِ، بويعَ يومَ موتِهِ، فأقامَ عشرَ سنينَ وشهرًا، وتوفيَ في المحرَّمِ سنةَ تسعٍ وستينَ ومئةٍ(١).

الهادِي موسَى: ولدُ المهديِّ، بويعَ يومَ موتِهِ، فأقام سنةً وشهرًا ونِصفًا، وماتَ في ربيعِ الأوَّلِ، سنةَ سبعينَ ومئةٍ.

الرَّشيدُ هارُونُ: أخوهُ، بويعَ يومِ موتِهِ، فأقامَ ثلاثًا وعشرينَ سنةً وتسعةَ عشرَ يومًا(٢)، وتوفِّيَ بجُمادى الأولى، سنةَ ثلاثٍ وتسعينَ ومئةٍ، وعمرُه خمسٌ وأربعونَ سنةً(٣).

الأمينُ محمَّدٌ: ولدُ هارونَ، بويعَ يومَ موتِه، فأقامَ أربعَ سنينَ وسبعةَ أشهُرٍ، وخُلِعَ ثمَّ قُتِلَ في المحرَّمِ سنةَ ثمانٍ وتسعينَ ومئةٍ، وعمرُهُ تسعٌ وعشرونَ سنةً.

المأمونُ عبدُ اللهِ: أخوهُ بويعَ يومَ قتلِهِ، فأقامَ عشرينَ سنةً وخمسةَ أشهرٍ، وماتَ بأرضِ الرُّومِ في رجبٍ سنةَ ثماني عشرةَ ومئتينِ، وعمرهُ ثمانٍ وأربعونَ سنةً، وهو أوَّلُ من أظهرَ القولَ بخلقِ القرآنِ، وتبِعَه المعتَصِم والواثِقُ على ذلك.

المعتصِمُ باللهِ محمدٌ: أخوهُ، بويعَ يوم موتِه، فأقامَ ثمانَ سنيَن وثمانيةَ أشهُرٍ، وتوفِّيَ في ربيعِ الأوَّلِ سنةَ سبعٍ وعشرينَ ومئتَينِ، وعمرُهُ ثمانٌ وأربعون سنةً.

الواثقُ باللهِ هارونُ: ولدُ المعتصِمِ، بويعَ يومَ موتِه، فأقامَ خمسَ سنينَ وتسعةَ أشهرٍ، وتوفي في ذي الحجَّةِ عامَ اثنين وثلاثينَ ومئتَينِ، وعمرُهُ ستٌّ وثلاثون.

المتوكِّلُ على اللهِ جعفرٌ: أخوهُ، بويعَ يومَ موتِهِ، فأقامَ أربعَ عشرةَ سنةً وتسعةَ

(١) في هامش (ش): «وفي أيام المهدي محمد ولد الإمام الفاضل أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى».

(٢) «وتسعة عشر يومًا» من (ش).

(٣) «سنة» من (ش).

أشهُرٍ، ورفعَ محنةَ القولِ بخلقِ القرآنِ، وأظهرَ السُّنَةَ، وأكرَمَ الإمامَ أحمدَ، ثم قُتلَ، يُقالُ: بمكِيدةِ ولدِهِ المنتصِرِ في شوَّال سنةَ سبعٍ وأربعين ومئتَينِ، وعمرُهُ إحدَى وأربعونَ سنةً، ومن حين قُتلَ صارَت خلافةُ بني العباسِ مضطربةً وكادتْ تزُولُ، وهو أوَّلُ خليفَةٍ حُجرَ عليهِ، ومن كلامِهِ شعر:

أَلَيسَ من العَجائبِ أنَّ مِثلي يُرَى ما قلَّ ممنُوعًا عليهِ(١)
وتؤكَلُ باسمِهِ الدُّنيا جمِيعًا وما منها قَليلٌ في يديهِ

المنتصِرُ باللهِ محمَّدٌ: ولَدُ المتوكِّلِ، بويعَ يومَ موتهِ، فأقامَ ستَّةَ أشهرٍ، وماتَ سنةَ ثمانٍ وأربعينَ ومئتينِ، في ربيعٍ الآخرِ، وعمرُهُ أربعٌ وعشرونَ سنةً.

المستعينُ باللهِ أحمدُ بنُ محمَّدِ بنِ المعتصِمِ: بويعَ يومَ موتِ المنتصرِ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وتسعةَ أشهرٍ، وخلَعَ نفسَه في المحرَّمِ عامَ اثنين وخمسِينَ ومئتين.

المعتزُّ باللهِ محمَّدُ بنُ المتوكِّلِ: بويعَ يومَ خُلعَ المستعينُ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وسبعةَ أشهرٍ، وخلعَ نفسَهُ في شعبانَ سنةَ خمسٍ وخمسينَ ومئتين.

المهتدِي باللهِ محمَّدُ بنُ الواثقِ: بويعَ يومَ خُلعَ المعتزُّ، فأقامَ أحد عشرَ شهرًا، وكانَ عادلًا مرضيًّا، ثم قتلَ رابعَ عشرَ رجبٍ سنةَ ستٍّ وخمسينَ ومئتَينِ.

المعتمدُ على اللهِ أحمدُ بن المتوكِّلِ: بويعَ يومَ قتلَ ابنُ عمهِ، فأقامَ ثلاثًا وعشرينَ سنةً، وتوفِّيَ في سنةِ تسعٍ وسبعينَ ومئتين.

المعتضِدُ باللهِ أحمدُ بن الموفَّقِ: بويعَ يومَ موتِ عمِّهِ، فأقامَ تسعَ سنينَ وتسعةَ أشهرٍ، وتوفِّي في جمادى الآخرِ سنةَ تسعٍ وثمانينَ ومئتين، فأقامَ في أيَّامِهِ دولةَ بني العبَّاسِ.

---

(١) في (خ): «الديه».

المكتفِي باللهِ عليٌّ ولدُ المعتضدِ: بويعَ يومَ موتِهِ، فأقامَ ستَّ سنينَ وستَّةَ أشهرٍ، وتوفِّيَ في القعدةِ سنةَ خمسٍ وتسعينَ ومئتين.

المقتدرُ باللهِ جعفرٌ: أخوهُ، بويعَ يومَ موتِهِ، فأقامَ أربعًا وعشرين سنةً وأحدَ عشرَ شهرًا ونصفًا، وقُتِلَ بشوّالٍ سنةَ عشرينَ وثلاث مئةٍ.

القاهرُ باللهِ محمَّدٌ: أخوهُ، بويعَ يومَ قتلِهِ، فأقامَ سنةً واحدةً وستَّةَ أشهرٍ، ثمَّ خُلِعَ وأكحلوه في جمادى الأوَّلِ عامَ اثنين وعشرينَ وثلاث مئةٍ.

الرَّاضي باللهِ محمَّدُ بنُ المقتدرِ: بويعَ يومَ خلِعَ عمهُ، فأقامَ نحو سبعِ سنينَ، وتوفِّيَ في ربيعِ الأوَّلِ سنةَ تسعٍ وعشرينَ وثلاث مئةٍ.

المتَّقي للهِ إبراهيمُ: أخوه، بويعَ يومَ موتِهِ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وإحدى عشرَ شهرًا، وخلِعَ وأكحلوه في صفرٍ سنةَ ثلاثٍ وثلاثين وثلاث مئةٍ.

المستكفِي باللهِ عبد اللهِ بن المكتَفِي: بويعَ يومَ خُلعَ المتَّقِي، فأقامَ سنةً وأربعةَ أشهرٍ، وخلِعَ في جمادى الآخرةِ سنةَ أربعٍ وثلاثين وثلاث مئة.

المطيعُ للهِ الفضلُ بنُ المقتدرِ: بويعَ يومَ خلِعَ المستكفِي، فأقامَ تسعًا وعشرين سنةً وأربعةَ أشهرٍ، وخلِعَ في ذي القعدةِ سنةَ ثلاثٍ وستينَ وثلاث مئةٍ.

الطَّائعُ للهِ عبدُ الكريمِ: ولدُهُ، بويعَ يومَ خلْعِ أبيهِ، فأقامَ سبع عشرةَ سنةً وتسعةَ أشهرٍ، وخلَعَ نفسَهُ سنةَ إحدى وثمانين وثلاث مئةٍ.

القادرُ باللهِ أحمدُ بنُ إسحاقَ بنِ المقتدرِ: بويعَ يومَ خَلْعِ الطَّائعِ للهِ، فأقامَ إحدى وأربعينَ سنةً وثلاثة أشهرٍ، وتوفي في ذي الحجَّةِ عامَ اثنين وعشرينَ وأربع مئةٍ.

القائمُ بأمرِ اللهِ عبدُ اللهِ: ولدهُ، بويعَ يومَ موت أبيهِ، فأقامَ أربعًا وأربعينَ سنةً وثمانيةَ أشهرٍ[1] وتوفي في شعبانَ سنةَ سبعٍ وستينَ وأربع مئةٍ.

المقتدِي باللهِ عبدُ اللهِ بن محمدِ بنِ القائمِ: بويعَ يومَ موتِ جدِّهِ، فأقامَ تسعَ عشرة سنةً وخمسةَ أشهرٍ، وتوفِّي في المحرَّمِ سنةَ سبعٍ وثمانين وأربع مئةٍ.

المستظهرُ باللهِ أحمدُ: ولدُهُ، بويعَ يومَ موتِ أبيهِ، فأقامَ ستًّا وعشرين سنةً، وتوفِّيَ سنةَ اثنتي عشرةَ وخمس مئةٍ.

المسترشِدُ باللهِ الفضلُ: ولدُهُ، بويعَ يوم موتِ أبيهِ، فأقامَ تسع عشرةَ سنةً، وقتلَ سنةَ تسعٍ وعشرينَ وخمس مئةٍ.

الرَّاشدُ باللهِ: ولدُهُ، بويعَ بعدَ قتلِ أبيهِ، فأقامَ سنةً، ثم خلِعَ سنةَ ثلاثينَ وخمس مئةٍ.

المقتفِي لأمرِ اللهِ محمَّدُ بنُ المستظهرِ: بويعَ يومَ خُلِعَ ابنُ عمِّهِ، فأقامَ خمسًا وعشرينَ سنةً، وتوفِّي سنة خمسٍ وخمسينَ وخمس مئةٍ، وهو الذي كتبَ العهدَ لنورِ الدِّين الشَّهيدِ بأخذِ مصرَ.

المستنجدُ باللهِ يوسفُ: ولدُهُ، بويعَ يومَ موتِ أبيهِ، فأقامَ إحدى عشرةَ سنةً، وتوفِّي سنَةَ ستٍّ وستينَ وخمس مئةٍ، وكانَ عادلًا[2].

المستضيءُ بنورِ اللهِ: ولدُهُ، بويعَ يومَ موتِ أبيهِ، فأقامَ تسعَ سنينَ وشهرًا[3]، وتوفِّيَ سنةَ خمسٍ وسبعينَ وخمس مئةٍ، وهو الذي خطَبَ لهُ السُّلطانُ[4] صلاحُ الدِّينِ بمصرَ.

---

(١) في (ش): «وثماني شهور».

(٢) في (ش): «موصوف بالعدل».

(٣) في (ش): «وأشهر».

(٤) «السلطان» من (خ).

النَّاصـرُ لديـنِ اللهِ أحمدُ: ولـدُهُ، بويعَ يومَ موتِ أبيهِ، فأقامَ سـبعًا وأربعينَ سـنةً، وتوفِّـيَ عـامَ اثنينِ وعشـرينَ وسـت مئـةٍ، وعاشَ تسـعينَ سـنةً، وخُطِبَ لـه حتَّى في الصِّيـن والأندلسِ.

الظَّاهرُ باللهِ محمَّدٌ: ولدُهُ، بويعَ يومَ موتِ أبيهِ، فأقامَ تسعةَ أشهرٍ، وتوفِّيَ سنة ثلاثٍ وعشرينَ وستِّ مئةٍ.

المستنصرُ بالله أحمدُ: ولدُهُ، بويعَ يوم ماتَ أبيهِ، فأقامَ سبع عشرةَ سنةً، وتوفِّيَ سنةَ تسعٍ وثلاثين وستِّ مئةٍ.

المستعصمُ باللهِ: ولدُهُ، وهو آخرُ الخلفاءِ ببغدادَ، بويعَ يومَ ماتَ أبوه، وكان فيهِ لينٌ وقِلَّةُ معرفةٍ، فأقامَ سبع عشرةَ سنةً، وقتلَهُ التَّتارُ سنةَ ستٍّ وخمسينَ وستِّ مئةٍ، بمكيدةِ وزيرهِ ابن العلقَميِّ الخبيثِ الرَّافضيِّ، ووقعَ السَّيفُ ببغدادَ أربعين يومًا، فقُتِلَ فوقَ ألفي ألفٍ.

وبقتلِ المستعصمِ خُرِّبتْ بغدادُ وانقضَتِ الخلافةُ الإسلاميَّةُ منها بدخولِ التَّتارِ واستيلائهم علَيها، وأقامَ النَّاسُ بغيرِ خليفةٍ ثلاثَ سنينَ، وعلَّقَ التَّتارُ المصاحفَ في أعناقِ الكلابِ، وقَلبوا المساجدَ كنائسَ، وألقَوا كتبَ الأئمَّةِ في الدَّجلةِ حتى صارَتْ كالجسرِ، تمرُّ الخيلُ عليها، وبذلك انقرضَتِ المذاهبُ ما عدا المذاهبِ الأربعةِ؛ لكونها كانَتِ قد انتشرَتْ وضُبِطَتْ بالتَّدوينِ، فاختيرَت لذلكَ.

ومن حينئذٍ ذهبَتْ محاسنُ بغدادَ كأنَّها لم تكُنْ، بعدَ أن كانَ بها اثنا عشرَ ألفِ خانٍ، واثنا عشرَ[1] ألفِ طاحونٍ، وأربعةٌ وعشرونَ ألفَ سوقٍ، وستُّونَ ألفَ حمامٍ، وثمان مئةِ ألفِ مدرسةٍ، ومن جوامِعها الرَّصافةُ يسَعُ مئةَ ألفٍ كانوا يحضُرونَ ابن الجوزيِّ، وكانَ سورُها المحيطُ بها ثلاثةَ أيامٍ بلياليها، وقيلَ: كانَ يمشي على عرضِهِ

(١) «عشر» من (خ).

ستون فارِسًا عرضًا غيرَ مزدحِمِينَ، وماتَ بها الإمامُ أحمدُ بن حنبلٍ فحضَرَ جنازَتَهُ ألفُ ألفٍ وستُّ مئةِ ألفٍ أو أكثَرُ، ضُبِطَ ذلكَ بالمساحةِ. وكانَت أجلَّ مدنِ الدُّنيا، وانتقلَتِ الخلافةُ منها إلى مصرَ، لكِن فرقٌ ما بين الثُّريَّا والثَّرى.

ذكرُ خلفاءِ مصرَ من العباسيِّينَ

المستنصرُ باللهِ: ولدُ الظَّاهرِ، وصلَ إلى القاهرةِ سنةَ تسعٍ وخمسينَ وستِّ مئةٍ في أيَّامِ الملكِ الظَّاهرِ بيبرس، فتلقَّاهُ وبايعَهُ معَ أهل الحلِّ والعقدِ بالخلافةِ، ثمَّ سافرَ للعراقِ، فودَّعهُ الملكُ الظَّاهرُ إلى الشَّامِ، ثم فارقَهُ الخليفةُ متوجِّهًا إلى العراقِ، فقتَلَهُ التَّتارُ أيضًا، وهذا لم يستقرَّ له مكانٌ.

الحاكمُ بأمرِ اللهِ أحمدُ بن الرَّاشدِ العباسيُّ: أُحضِرَ إلى مصرَ وأُثبِتَ[١] نسبُه، وأقامَ بمصرَ، وهو أوَّلُ الخلفاءِ بها، وذريَّتُه إلى يومِنا هذا، بويعَ ثامنَ المحرَّمِ سنةَ إحدى وستِّينَ وستِّمئةٍ، فأقامَ نيفًا وأربعين سنةً، وتوفي سنةَ إحدى وسبع مئةٍ، ودفنَ بجوارِ السَّيِّدةِ نفيسةَ[٢].

المستكفِي باللهِ سُلَيمانُ: ولدُهُ، بويعَ يومَ موتِ أبيهِ، فأقامَ إحدى وأربعينَ سنةً، ونفاهُ الملكُ النَّاصرُ إلى قُوصٍ[٣]، واستمرَّ بها إلى أن ماتَ في شعبانَ، عامَ اثنين وأربعينَ وسبع مئةٍ.

---

(١) في (خ): «وأثبتوا».

(٢) السيدة نفيسة: ابنة أبي محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وكانت من النساء الصالحات التقيات، توفيت سنة ٢٠٨ هـ، ودفنت بالقاهرة بمنطقة كانت تسمى سابقًا بدرب السباع، ثم اشتهرت باسمها. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٥/ ٤٢٣)، وغيره.

(٣) قوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يومًا. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٤/ ٤١٤). وحاليًا هي مدينة تابعة إداريًا لمحافظة قنا في مصر.

الواثقُ باللهِ إبراهيمُ: بايعَهُ النَّاصرُ بعدَ موتِ المستكفِي، وكان إنَّما[1] عهِدَ لولدِه أحمدَ، فأقامَ نحو سنةٍ، ثم ندِمَ النَّاصرُ عند موتِهِ وأوصَى بخلعِ إبراهيمَ وعودِ الخلافةِ لأحمدَ[2]، فخُلِعَ في أوَّلِ المحرَّمِ عامَ اثنينَ وأربعينَ وسبع مئةٍ.

الحاكمُ بأمرِ اللهِ أحمدُ: ولدُ المستكفِي، بويعَ يومَ خلعَ إبراهيمُ، بايعَهُ ابن النَّاصرِ والقضاةُ والعلماءُ، فأقامَ إحدى عشرَ سنةً، وتوفيَ سنةَ ثلاثٍ وخمسينَ وسبع مئةٍ.

المعتضدُ باللهِ أبو بكرٍ: ولدُ المستكفِي، بويعَ يومَ ماتَ أخوهُ، فأقامَ عشر سنينَ، وتوفيَ سنةَ ثلاثٍ وستِّين وسبع مئةٍ.

المتوكِّلُ على اللهِ محمَّدٌ: ولدُهُ، بويعَ يومَ ماتَ أبوهُ، فأقامَ نحوَ ستَّ عشرةَ سنةً، وخُلِعَ في سنة تسعٍ وسبعينَ وسبعِ مئةٍ.

المعتصِمُ زكريَّا بن إبراهيمَ: بويعَ يومَ خلعِ المتوكِّلِ فأقامَ نحو شهرٍ.

المتوكِّلُ بن المعتضدِ: أُعيدَ ثانيًا فأقامَ نحو ستِّ سنينَ، وخلعَهُ برقوقُ سنةَ خمسٍ وثمانينَ وسبعِ مئةٍ.

الواثقُ بالله عمرُ: بويعَ بالخلافةِ بعد خلعِ المتوكِّلِ، فأقامَ نحو ثلاثِ سنينَ، وتوفِّيَ سنةَ ثمانٍ وثمانينَ وسبعِ مئةٍ[3].

المعتصِمُ زكريا: أعادَه برقوقُ ثانيًا، فأقامَ نحو ثلاثِ سنينَ، وتوفِّيَ سنةَ إحدى وتسعين وسبعِ مئةٍ.

---

(١) «إنما» من (خ).

(٢) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٩١)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (١/ ٢٣٢).

(٣) «وسبع مئة» من (خ).

المتوكِّلُ على اللهِ: أُعيدَ للخلافةِ ثالثًا[١]، فأقامَ نحو سبعَ عشرة سنةً، وتوفي سنةَ ثمانٍ وثمانِ مئةٍ، فكانَ مجموعُ خلافتِهِ بما فيها من الخلعِ والحبسِ نحوَ خمسٍ وأربعين سنةً.

وخلَّفَ عشرةَ أولادٍ ذكورٍ تولَّى بعدَهُ منهم خمسةٌ فأوَّلُهم:

المستعينُ باللهِ أبو الفضل العباسُ: بويعَ يومَ ماتَ أبوهُ المتوكِّلُ، فأقامَ إلى سنةِ أربعَ عشرةَ، ثم تسلطَنَ ستَّةَ أشهرٍ، ثم خلعَهُ المؤيَّدُ شيخ[٢] سنةَ خمس عشرةَ وثمانِ مئةٍ، وحُبِسَ بالإسكندريةِ إلى أن ماتَ بها رحمَهُ اللهُ.

المعتضدُ باللهِ أبو الفتحِ داودُ: أخوهُ، بويعَ يومَ خلعِه من السَّلطنةِ، فأقامَ ثلاثين سنةً، وتوفِّيَ سنةَ خمسٍ وأربعينَ وثمان مئةٍ، وبلغَ مالم يبلُغهُ عباسيٌّ قبلَه بمصرَ، وصلَّى عليهِ الملكُ[٣] الظَّاهرُ جقمقُ، ومشَى في جنازَتهِ إلى المشهدِ النَّفيسِيِّ.

المستكفِي باللهِ سليمانُ: أخوهُ، بويعَ يوم موتِهِ، فأقامَ عشر سنينَ، وتوفِّيَ سنةَ خمسٍ وخمسينَ وثمان مئةٍ، وبلغَ من العزِّ فوق أخيهِ، وحملَ السُّلطانُ نعشَهُ.

القائمُ بأمرِ الله حمزةُ: أخوهُ، بويعَ يومَ موتهِ، فأقامَ أربعَ سنينَ، وخلعَهُ الملكُ الأشرفُ إينالُ سنةَ تسعٍ وخمسين وثمان مئةٍ، وأرسلَهُ للإسكندريةِ محتجًّا بما أفتاهُ الشَّافعيةُ مِن أنَّ للسُّلطانِ أن يخلَعَ الخليفةَ.

المستنجدُ باللهِ، أبو المحاسنِ يوسفُ[٤]: خامسُ الإخوةِ، بويعَ يومَ خلعِ أخيهِ،

---

(١) في (ش): «ثانيًا».

(٢) «شيخ» من (ش).

(٣) «الملك» من (خ).

(٤) «يوسف» من (خ).

يومَ الخميسِ ثالثَ رجبٍ سنةَ تسعٍ وخمسينَ وثمان مئةٍ[١]، فأقامَ خمسًا وعشرينَ سنةً، وتوفِّيَ رابعَ[٢] المحرَّمِ، سنةَ أربعٍ وثمانينَ وثمان مئةٍ.

المتوكِّلُ على اللهِ، أبو العزِّ عبدُ العزيزِ: بويعَ يومَ الإثنينِ سادسَ عشرَ المحرَّمِ، بعهدٍ من عمِّهِ المستنجِدِ، سنةَ أربعٍ وثمانينَ وثمان مئةٍ، بحضرةِ السُّلطانِ قايتباي، فأقامَ نحو تسعَ عشرة سنةً، وتوفِّيَ سنةَ ثلاثٍ وتسع مئةٍ.

المستمسكُ باللهِ يعقوبُ ولدُه: ويلقَّبُ المستنصرِ بالله أيضًا، بويعَ بعد أبيهِ، واستمرَّ إلى أيامِ الدَّولةِ العثمانيَّةِ، وتوفِّيَ سنةَ سبعٍ وعشرين وتسع مئةٍ.

المتوكِّلُ على اللهِ محمَّدٌ: ولدُ يعقوبَ، بويعَ بالقسطنطينيَّةِ، وكان السُّلطانُ سليمٌ قد أخذَهُ معه، فلمَّا توفِّيَ سليمٌ عادَ المتوكِّلُ هذا إلى مصرَ وصارَ خليفةً بها[٣]، إلى أن ماتَ في شعبان، سنةَ خمسينَ وتسع مئةٍ في أيَّامِ داود باشا، وبموتِه انقطعَتِ الخلافةُ العباسيَّةُ الصُّوريةُ من الدُّنيا، فسُبحانَ من لا يزولُ ملكُهُ.

***

---

(١) «وثمان مئة» من (خ).

(٢) في (ش): «في رابع عشر».

(٣) «بها» من (ش).

بابٌ في ذكرِ سلاطين مصرَ في الإسلامِ

وهـو المقصـودُ بالـذَّاتِ؛ لأنَّ الخلفـاءَ الَّذيـن كانـوا بها من العباسـيَّةِ لـم يكُن لهـم مـن الخلافـةِ إلَّا الاسـمُ، والمستقِلُّ بالأمـورِ والتَّصـرفِ إنَّمـا هوَ السَّـلاطينُ، غايـةُ الأمـرِ أنَّهـم كانـوا يأتـونَ بالخليفـةِ للسُّـلطانِ الَّـذي يريـدونَ توليتَـهُ فيبايعُـهُ، ويقـولُ لـهُ: (ولَّيتُكَ السَّـلطنةَ)، وكانَ سـلاطينُ الأقاليـمِ[١] يتبركُّونَ بهم، ويرسِـلُونَ إليهـم أحيانًـا يطلُبـونَ منهم تفويضَ السَّـلطنَةِ، فيكتبونَ لهـم[٢] بذلكَ، وقـد رفِعَ هذا مـن عهدِ السُّـلطانِ سـليمٍ فاتـحِ مصرَ.

إذا تقرَّرَ هذا، فاعلَم ـ وفَّقكَ اللهُ تعالى ـ أنَّ مصرَ في صدرِ الإسلامِ لم يكُن ولاتُها مستقِلِّينَ بالأمرِ، بل كانوا نوَّابًا عن الخلفاءِ الرَّاشدينَ، ثمَّ عن خلفاءِ بني أُميَّةَ بالشَّامِ، ثمَّ عن الخلفاءِ العبَّاسيِّينَ بالعراقِ.

[أحمدُ بن طولونَ]

واستمرَّ الحالُ على ذلكَ إلى أن تولَّى أحمدُ بن طولونَ نائبًا عن الخليفةِ المعتزِّ باللهِ العباسيِّ، في رمضان سنةَ أربعٍ وخمسينَ ومئتينِ، وأُضِيفَت إليهِ نيابةُ الشَّامِ والعواصِمُ والثُّغورُ وإفريقيَّةُ، وكان أبوهُ طولونُ من الأتراكِ الَّذين أهداهُم عامِلُ بخارى للمأمونِ بن الرَّشيدِ، فلمَّا قوِيَت شوكةُ أحمدَ بنِ طولونَ تغلَّبَ على مصرَ وصارَ سُلطانًا بها وبغيرِها، ولم يدَّعِ الخلافةَ، ولا الخروجَ عن نيابةِ العبَّاسيِّينَ.

وهـو أوَّلُ مـن تسـلطَنَ بمصـرَ فـي الإسـلامِ، فكانَ لـه ما بيـنَ الرَّحبـةِ بنواحي الموصـلِ إلـى أقصى المغربِ، واسـتمرَّ إلـى أن توفِّيَ ليلـةَ الأحدِ عاشـرَ ذي القعدةِ

---

(١) في (خ): «الإقليم».

(٢) في (ش): «له».

سنةَ سبعينَ ومئتين، ودُفنَ خارجَ باب القَرافةِ[١]، وكانت مدَّةُ سلطنَتِه ستَّ عشرة سنةً وشهرينِ، وخلَّفَ عشرةَ آلافِ ألفِ دينارٍ، وسبعةَ آلاف فرسٍ، وسبعةَ آلافِ مملوكٍ، وثلاثةً وثلاثين ولدًا.

وهو الَّذي تحوَّلَ من دارِ النِّيابةِ بقصرِ الشَّمعِ إلى قصرٍ بناهُ بين مصرَ والقاهرةِ، وسمَّاه القطائعَ، ويقالُ: هو الميدانُ الذي تحتَ القلعةِ بالرميلةِ الآنَ، وبنى إلى جنبهِ الجامعَ الطُّولونيَّ الكبيرَ المشهورَ به الآنَ، عمَّرهُ بعدَ ولايتِهِ بعشرِ سنينَ، وابتدأ بناءُهُ سنةَ ثلاثٍ وستين ومئتين، وأقاموا فيه ثلاثَ سنينَ، وبلغَتِ النَّفقةُ على بنائه مئةَ ألفِ دينارٍ[٢] وعشرينَ ألفٍ، وجعلَ دائرَه منطقةَ عنبرٍ معجونٍ؛ ليفوحَ ريحُها على المصلِّينَ، بناهُ بكنزٍ وجدَه مقدارُه ألفُ ألفِ دينارٍ، فأنفقَها كلَّها في أبوابِ البرِّ، وجعلَ إمامَهُ القاضيَ بكَّارًا[٣]، ومحدِّثَهُ الرَّبيعَ بنَ سليمانَ تلميذَ الإمامِ الشَّافعيِّ[٤]، ووقفَ عليهِ كثيرًا من الرِّباعِ[٥] ونحوِها، ولم يتعرَّض لشيءٍ من أراضي مصرَ.

وكان يتصدَّقُ في كلِّ أسبوعٍ بثلاثةِ آلاف دينارٍ سوى الرَّواتبِ، وكان خراجُ مصرَ في أيَّامهِ أربعةَ آلافِ دينارٍ.

---

(١) القرافة: مقبرة أهل مصر وبها أبنية جليلة ومحالّ واسعة وسوق قائمة، وبها قبر الإمام أبي عبد الله محمد ابن إدريس الشافعي، رضي الله عنه، في مدرسة للفقهاء الشافعية، وهي من نزه أهل القاهرة. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٤/ ٣١٧).

(٢) «دينار» من (ش).

(٣) انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ٢٨١)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٦/ ٣٠٣).

(٤) انظر ترجمته في «مرآة الزمان» (١٦/ ٩٠)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٦/ ٣٣٢).

(٥) الرباع: جمع ربع، وهي المنازل والدور. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري، و«المغرب» للمطرزي (مادة: ربع).

ويقالُ: إنَّهُ أُحصِي مَن قتلَهُ ابن طولونَ ومن ماتَ بحبسِهِ فبلغوا ثمانيةَ عشرَ ألفًا.

ورآهُ بعضُ الصوفيةِ بعدَ موتِه في المنامِ بحالةٍ حسنةٍ، فقالَ: عُدِلَ بي عن النَّارِ إلى الجنَّةِ بسبب إنصافِ المظلومِ، وإسماع[١] كلامي لهُ[٢]، وما في الآخرةِ أشدُّ على رؤساءِ الدُّنيا من الحجابِ لملتَمِسِ الإنصافِ.

وفي أيَّامهِ كان ظهورُ رأسِ الزِّنجِ بنواحي العراقِ، ادَّعى النُّبوَّةَ والاطِّلاعَ على المغيَّباتِ، وقتَلَ من المسلمينَ ألف ألفٍ وخمس مئةَ ألفٍ، وقتَلَ في يوم واحدٍ بالبصرةِ ثلاثَمئةِ ألفٍ، وكان يسبُّ على منبرهِ عُثمانَ وعليًّا ومعاويةَ وطلحةَ والزُّبيرَ وعائشةَ إلى أن قُتلَ في سنةِ سبعين.

وفي أيَّامهِ جرَت للقاضي بكَّارٍ معهُ محنةٌ بسببِ عدمِ لعنهِ الموفَّقَ ولي عهدِ المعتمدِ العباسيِّ؛ لأن الموفَّقَ كان ضيَّقَ على أخيه المعتمدِ، واستقلَّ بالأمورِ، ولم يبقَ للمعتمدِ من الخلافةِ سوى الاسمِ، فاستعانَ المعتمدُ بابن طولونَ فأعانَهُ، وجمعَ القضاةَ والفقهاءَ والأشرافَ وسيَّرهم إلى دمشقَ، فاجتمعُوا بها، وخَلعَ الموفَّقَ، فأرسلَ يخبرُ المعتمدَ بأنَّه خلعَ الموفَّقَ من ولايةِ العهدِ، وكانَ الفقهاءُ كلُّهم أفتَوا بخلعهِ إلَّا القاضي بكَّارًا، فأمرَ الموفَّقُ ببغدادَ بلعنِ ابن طولونَ، وكتبَ لعنَهُ على أبوابِ المساجدِ، فأمرَ ابنُ طولونَ بلعنِ الموفَّقِ وهو بدمشقَ، وأمرَ القاضي بكَّارًا بذلكَ، وكان صحبَتَهُ، فامتنَعَ، فغضِبَ عليه بعدَ أن كان عندَهُ[٣] في غايةِ الإكرامِ، وكانَ يعطيه في كلِّ سنةٍ ألفَ دينارٍ، فأرسَلَ يطلُبها منها فأحضرَها

---

(١) في (ش): «سماعي».

(٢) في «المنتظم» لابن الجوزي (١٢/ ٢٣٣): «عدل بي عن النار إلى الجنة بتثبتي على متظلم عيي اللسان، شديد التهيب، فسمعت منه وصبرت عليه حتى قامت حجته، وتقدمت بإنصافه».

(٣) «عنده» من (خ).

من منزلِهِ مختومةً بختمِهِ[١]، لم يفكَّها القاضي بكارٌ، ستَّةَ عشرَ كيسًا، في كلِّ كيسٍ ألفُ دينارٍ، فقبضَها منه، وألحَّ عليهِ في لعنِ الموفَّقِ؛ فقالَ القاضي بكارٌ: ألا لعنةُ اللهِ على الظَّالمينَ، فقالَ عليُّ بنُ الحسينِ بنُ طباطبا: أيها الأميرُ! إنَّه عناكَ، فغضِبَ وأمرَ بتمزيقِ ثيابه[٢]، وجرَّه برجلِه وخلَّدهُ الحبسُ، فكان القاضي بكَّارٌ يحدِّثُ الناس الحديثَ من طاقٍ في السِّجنِ[٣].

[أبو الجيشِ خمارويهِ]

ثمَّ تولَّى بعد أحمَد بنِ طولونَ ولدُه أبو الجيشِ خمارويهِ، وماتَ ليلًا مذبوحًا بدمشقَ، ذبحَهُ بعضُ خدمِهِ على فراشِهِ. يقالُ[٤]: لكثرةِ فسادِه بهم، في ذي القعدةِ، عامَ اثنينِ وثمانينَ ومئتين، وكانت مدتهُ اثنتي عشرة سنةً.

وهو الذي زوَّجَ ابنتهُ قطرَ النَّدى للخليفةِ المعتضدِ، وجهَّزَها بجهازٍ لم يُرَ مثلُه، من ذلكَ ـ كما قالَ الذَّهبيُّ[٥] ـ ألفُ هاونٍ[٦] من ذهبٍ.

وبنى لها على رأسِ[٧] كلِّ منزلةٍ قصرًا فيما بين مصرَ وبغدادَ، وكلُّ قصرٍ فيه جميعُ ما تحتاجُ إليهِ من فرشٍ وستورٍ وغير ذلكَ، حتى كأنَّها في قصرِ أبيها.

---

(١) في (خ): «بخواتيمها».

(٢) في (ش): «أثوابه».

(٣) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ٢٨١).

(٤) «يقال» من (خ).

(٥) انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٣/ ٤٧٣).

(٦) هاون: والصواب: هاوون: الذي يدقُّ به، لأنه ليس في كلام العرب اسم على فاعل بعد الألف واو.
انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (مادة: نوه)، و«مجمل اللغة» لابن فارس (مادة: هون).

(٧) «رأس» من (خ).

ولما دخلَ بها[١] المعتضدُ أحبَّها حبًّا شديدًا لجمالِها وأدَبِها، ويقالُ: إنَّه[٢] طرقَها الحيضُ حينئذٍ، فلما مدَّ يدَه إليها، قالَت لهُ[٣]: أتى أمرُ اللهِ فلا تستعجلوهُ، فَلَمَّ يدَه عنها.

وفي أيَّامِه سنةَ ثمانٍ وسبعينَ ظهرَتِ القرامطةُ بالكوفةِ، وهم نوعٌ من الملاحدةِ يدَّعونَ أنَّه[٤] لا غسلَ من الجنابةِ، وأنَّ الخمرَ حلالٌ، وأنَّ الصَّومَ في السَّنةِ يومانِ: يومُ النَّيروزَ والمهرجانُ، ويزيدونَ في أذانهم[٥]: وأن محمَّدَ ابنَ الحنفيَّةِ رسولُ اللهِ[٦].

وفي عامِ ثمانينَ فشا أمرُ عُبيدِ اللهِ المهديِّ جدِّ الفواطمِ بالقَيروانِ، وصارَ أمرُه في زيادةٍ.

[أبو العساكر جيشٌ]

ثمَّ تولَّى أبو العساكرِ جيشٌ ولدُ خمارويهِ تسعةَ أشهرٍ، وقُتِلَ في سنةِ ثلاثٍ وثمانين ومئتين.

[أبو موسى هارون]

ثم تولَّى أبو موَسى هارونَ، أخوهُ، ولَدُ خمارويهِ المذكورُ، تسعَ سنينَ، والتزمَ للخليفةِ المعتضدِ في كلِّ سنةٍ بألفِ ألفِ[٧] دينارٍ؛ فأقرَّه الخليفةُ على

---

(١) «بها» من (ش).

(٢) في (ش): «إنها».

(٣) «له» من (خ).

(٤) في (خ): «أن».

(٥) «في أذانهم» من (خ).

(٦) انظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٦/ ٣٦٥).

(٧) «ألف» من (ش).

ذلكَ، واستمرَّ إلى أن قتلَه عمَّاهُ ولدا أحمد بنِ طولونَ، في ثامنِ عشرَ صفرٍ، عامَ اثنين وتسعين ومئتين.

وفي أيَّامِهِ ظهرَ بالبحرينِ أبو طاهرٍ القُرمطيُّ.

[أبو المغازي شيبأن بن أحمدَ بن طولونَ]

ثم تولَّى أبو المغازي شيبأن بن أحمدَ بن طولونَ عشرةَ أيَّامٍ ثمَّ قُتلَ، وبه مضَت دولَتُهم، وجملَتُها سبعةٌ وثلاثون سنةً وأشهرًا.

[رجوع مصر لنيابة العباسيين]

ثمَّ أُعيدَتْ مصرُ لنيابةِ العباسيِّين، في خلافةِ المكتَفِي، في حدودِ عامِ اثنين وتسعينَ ومئتين، واستمرَّت إلى عامِ اثنين وعشرين وثلاث مئةٍ.

وفي تلكَ المدَّةِ سنة سبعٍ وتسعين ومئتين غلَبَ أمرُ عبيدِ الله المهديِّ الفاطميِّ بالمغربِ، وسُلِّمَ عليهِ بالإمامةِ، ودعيَ له بالخلافةِ، وبسطَ في النَّاسِ العدلَ والإحسانَ، فانحرَفوا إليهِ، وتمهَّدَ له المغربُ، وعظُمَ ملكُه جدًّا، وخرجَتْ بلادُ المغربِ عن أمرِ بني العباسِ من هذا التَّاريخِ.

[الإخشيدُ محمَّدُ بنُ طُغجٍ]

واستمرتْ مصرُ(١) في أيدي العباسِيينَ، فغلَبَ عليها الإخشيدُ محمَّدُ بنُ طُغجٍ التُّركيُّ الفِرغانيُّ، وأخذَها قهرًا في خلافةِ الرَّاضي، ثم وصلَ لهُ التَّقليدُ من الرَّاضي في سنةِ أربعٍ وعشرينَ وثلاث مئةٍ، قالَ النَّاظِمُ:

وكانَ هذا في زمَانِ الرَّاضِي ... وهوَ ببغدادَ وليسَ راضِي

---

(١) «مصر» من (ش).

لكِنَّهـا تفَرَّقَـت مملَكَتُـه مـن يـدِهِ لَمَّـا تواهَـتْ دَولَتُـه

وكانَ الإخشيدُ ملِكًا شُجاعًا مِقدامًا، حازِمًا مُتيقِّظًا حسنَ التَّدبيرِ، عارِفًا بالحروبِ شديدَ البطشِ، ذا قوةٍ مفرطَةٍ وهيبةٍ عظيمةٍ، وموكِبُه يضاهِي موكبَ الخلافةِ، وبلغَتْ عدةُ جيوشهِ أربع مئةَ ألفٍ، وهو أستاذُ كافورٍ الآتي.

وفي ذلكَ الزَّمانِ اختلَّ أمرُ الخلافةِ العباسيَّةِ، وتغلَّبَ أمراءُ الأطرافِ على البلادِ؛ لضعفِ أمرِ الخلافةِ، وصارَت البلادُ ما بين خارِجيٍّ قد تغلَّبَ عليها، أو عاملٍ لا يحمِلُ مالًا، وصارَتِ الدُّنيا في أيدي عُمَّالها، فكانَتِ مصرُ والشامُ في يدَي الإخشيدِ، والموصِلُ وديارُ بكرٍ وديارُ ربيعةَ ومُضَرُ في أيدِي بني حمدانَ، وفارس في يدِ عليِّ بن بُوَيهٍ، وخُراسانُ في يدِ نصرِ بن أحمدَ، وواسِطٌ والبصرةُ والأهوازُ في يدِ اليزيديِّ، وكَرمانُ في يدِ محمَّدِ بنِ إلياسَ، والرَّيُّ وأصبَهانُ والجبلُ في يدِ الحسَنِ بن بُوَيهٍ، والمغربُ وإفريقيَّةُ في يدِ أبي عبدِ اللهِ الصَّنعانيِّ صاحبِ الدَّعوةِ لعبيدِ اللهِ المهديِّ، وطبرِستانُ وجُرجانُ في يدِ الدَّيلَمِ، والبحرينُ واليمامةُ وهجَرٌ في يدِ أبي طاهرٍ القُرمطيِّ الذي اقتلَعَ الحجرَ الأسودَ، والأندلسُ في يدِ الأميرِ عبدِ الرَّحمنِ الأمويِّ، وادَّعى الخلافةَ وتسمَّى بأميرِ المؤمنينَ النَّاصرِ لدين اللهِ.

واستمرَّ الإخشيدُ بمصرَ إلى أن توفيَ بدمشقَ[١]، في ثاني ذي[٢] الحجَّةِ سنةَ أربعٍ وثلاثينَ وثلاث مئةٍ، ودُفنَ ببيتِ المقدِسِ، فمُدَّتهُ إحدَى عشر سنةً وثلاثةُ أشهرٍ.

وفي أيامِهِ قدِمَ أبو طاهرٍ القرمطِيُّ إلى مكَّةَ سنةَ سبعَ عشرةَ وثلاث مئةٍ، فقتَلَ الحجَّ يومَ التَّرويةِ، وقتَلَ في المطافِ ألفًا وسبعمئةِ طائفٍ مُحرِمٍ، وفتكَ بمكَّةَ فقتَلَ

(١) «بدمشق» من (خ).

(٢) في (ش): «ثامن الحجة».

أزيدَ من ثلاثينَ ألفًا، وسبى من النِّساءِ والصِّبيانِ مثل ذلكَ، وعادَ إلى هجرٍ، وخطبَ لعبيدِ اللهِ المهديِّ الفاطميِّ صاحبِ المغربِ.

فكتَبَ إليهِ: إن أعجَبَ العجَبِ إرسالُكَ بكتُبكَ إلينا ممتنًّا بما ارتكبْتَ في بلدِ اللهِ الأمينِ من انتهاكِ بيت اللهِ الحرامِ، الذي لم يزَل مُحترَمًا في الجاهليَّةِ والإسلامِ، وسفكْتَ فيهِ دماءَ المسلِمِينَ، وفتكْتَ[1] بالحجَّاجِ والمعتمِرينَ، وتعدَّيتَ وتجرَّأتَ على بيتِ اللهِ تعالى، وقلعْتَ الحجرَ الأسودَ الذي هو يمينُ اللهِ في أرضِهِ، يصافِحُ بها عبادِهِ[2]، وحملتَهُ إلى منزلِكَ، فرجَوْتَ أن أشكُرَكَ على ذلكَ! فلعنَكَ اللهُ، ثم لعنَكَ اللهُ، ثم لعنَكَ اللهُ، والسَّلامُ على مَن سَلِمَ المسلمونَ من لسانِه ويدِه، وقدَّمَ في يومِه ما ينجو بهِ في غدِه.

فلما وصلَ كتابُ المهديِّ للقرمطيِّ انحرَفَ عن طاعتِهِ[3].

وفي أيَّامهِ أيضًا ماتَ المهديُّ صاحبُ المغربِ، جدُّ الخلفاءِ المصريينَ الذينَ تسمِّيهم العامَّةُ بالفاطِميينَ، فإن المهديَّ هذا ادَّعى أنه علَويٌّ، وأنَّه ابنُ محمَّدِ بنِ إسماعيلَ بنِ جعفرٍ الصَّادقِ، قالَ المؤرِّخونَ: وإنَّما جدُّهُ مجوسيٌّ، وقيلَ: يهوديٌّ، وهوَ شرٌّ منهما، كانَ باطِنيًّا خبيثًا حريصًا على إزالةِ ملَّةِ الإسلامِ، أعدَمَ العلماءَ والفقهاءَ ليتمكَّنَ من إغواءِ الخلقِ، وكانَتْ مدَّتهُ خمسًا وعشرينَ سنةً، وجاءَ أولادُهُ على أسلوبِهِ، لا سيَّما ابنه القائمُ، كانَ شرًّا من أبيهِ زنديقًا ملعُونًا، أظهرَ سبَّ الأنبياءِ، وكان منادِيه ينادِي: العَنوا الغارَ وما حَوا.

---

(١) في (خ): «فنكَّلْتَ».

(٢) ورد ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما: «الركن - يعني الحجر - يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه». رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٨٩١٩).

(٣) انظر: «تاريخ ابن خلدون» (٤/ ١٢٩).

[أبو القاسم ولد الإخشيد]

ثم تولَّى مصرَ أبو القاسمِ ولدُ الإخشيدِ وكانَ صغيرًا، فوسَّدَ الأمرَ للخادمِ كافورٍ، فأقامَ أربعَ عشرةَ سنةً وعشرةَ أشهرٍ، وكان الكلامُ لكافورٍ الإخشيديِّ.

وفي أيَّامِهِ سنةَ تسعٍ وثلاثينَ أُعيدَ الحجرُ الأسودُ إلى موضعِهِ، اشتراهُ الخليفةُ المطيعُ للهِ بثلاثين ألفَ دينارٍ بعد أن مكَثَ عند القرامطةِ اثنين وعشرينَ سنةً، ولَمَّا أخذَهُ القرمطِيُّ هلكَ تحتَهُ أربعونَ جملًا، وقيلَ: ثلاث مئةٍ، وقيلَ: خمس مئةٍ، ولَمَّا أُعيدَ إلى مكَّةَ حُمِلَ على قَعودٍ[1] أعجَفَ فسَمِنَ.

[أبو الحسن ولد الإخشيد]

ثـمَّ تولَّـى أبو الحسـنِ عليٌّ أخـو المذكورِ، والـكلامُ لكافـورٍ أكثرُ ممـا كانَ في دولـةِ أخيـهِ، فأقـامَ فيـهِ[2] خمسَ سـنينَ وشـهرين، وفي أيَّامِهِ سـنةَ إحدى وخمسـينَ غلَـبَ أمـرُ الشِّـيعةِ ببغدادَ حتى كتبُـوا على أبوابِ المسـاجدِ لعـنَ معاويةَ وغيـرِهِ من الصَّحابـةِ رضـي اللهُ عنهم.

[كافور الإخشيدي]

ثمَّ تولَّى كافورٌ الإخشيديُّ، عبدُ الإخشيدِ، المكنَّى بأبي المسكِ المخصِيُّ، كانَ حبشيًّا أسودَ، بيعَ بثمانيةَ عشر دينارًا، تسلطَنَ في صفرَ سنةَ خمسٍ وخمسينَ وثلاث مئةٍ، فأقامَ سنتينِ وأربعةَ أشهرٍ، فكانَ يُدعَى له على المنابرِ بمصرَ والشَّامِ

---

(١) القَعُـود: البعيـر الذلـول الـذي يرحـل ويقتعـد، وأقلـه سـنتان إلـى أن يثني فـإذا أثنى سـمي جملا ولا تكـون البكـرة قعـودا بـل قلوصًـا. انظـر: «غريـب الحديـث» للخطابـي (٣/ ٥٧)، و«مختـار الصحـاح» (مـادة: قعد).

(٢) «فيه» من (خ).

والحجازِ، وتوفيَ في العشرينَ من جمادى الأولى سنةَ سبعٍ وخمسينَ وثلاث مئةٍ، ودفِنَ بالقَرَافةِ، ولهُ مقامٌ مشهورٌ، ولهُ مآثرُ حميدةٌ.

وكان كافورٌ[1] خبيرًا بالسِّياسةِ، فطِنًا ذكيًّا، جيِّدَ العقلِ، يُدارِي ويخدَعُ، فكانَ يهادِي المعزَّ صاحبَ المغربِ، ويظهِرُ ميلَهُ إليهِ، ويذعِنُ الطَّاعةَ لبني العباسِ.

وكانَت جواسيسُ المعزِّ بمصرَ يكاتبوه: إذا زالَ الحجرُ الأسودُ ملكَ مولانا المعزُّ الدُّنيا كلَّها، ويعنونَ بالحجرِ الأسودِ كافورًا.

وقالَ بعضُهم: لم يبلُغ أحدٌ من الخِصيانِ ما بلغَ كافورٌ، ومدحَهُ المتنبِّي وغيرُهُ، وقالَ بعضُ الوعَّاظِ بمصرَ: من هوانِ الدُّنيا على اللهِ تعالى أَنَّهُ أعطاها لخصيٍّ. فرُفعَ إلى كافورٍ ظنًّا أنَّه يعاقِبهُ، فرسَمَ له بخلعَةٍ ومئةِ دينارٍ.

ووقعَت في أيَّامِهِ زلزلةٌ عظيمةٌ، ففزِعَ النَّاسُ لها فأنشدَ بعضُ الشُّعراءِ بقوله[2]:

ما زُلزِلَتْ مِصرُ مِن خوفٍ يُرادُ بها ... لكِنَّها رقَصَتْ مِن عَدلِكُم طَرَبا[3]

فأجازَهُ كافورٌ بألفِ دينارٍ.

وكانَ سائرًا ذاتَ يومٍ وفي أصحابِهِ شريفٌ راكبٌ، فسقَطَ سوطُ كافورٍ من يدِهِ، فنزلَ الشَّريفُ وناولَهُ إيَّاهُ، فقالَ: أيُّها الشَّريفُ! أعوذُ باللهِ من بلوغِ الغايةِ، ما ظننْتُ أنَّ الزَّمانَ يُبلِّغُني هذا، ورسَمَ له بهديَّةٍ يزيدُ ثمنُها على خمسةَ عشرَ ألفَ دينارٍ.

---

(١) «كافور» من (خ).

(٢) «بقوله» من (ش).

(٣) لمحمد بن عاصم المعروف بصناجة الدوح. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ١٠٣)، و«نهاية الأرب» للنويري (٢٨/ ٥٢).

[أبو الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد]

ثمَّ تولَّى أبو الفوارِسِ أحمدُ بن عليٍّ بنِ الإخشيدِ، وعمرُه اثنتا عشرةَ سنةً، فأقامَ سنةً واحدةً، إلى أن جاءَ جوهر القائدُ، فانتزَعها منهم، وزالَتْ دولَتُهم، وفي أيَّامِهِ سنةَ سبعٍ وخمسينَ ملكَ القرامطَةُ دمشقَ، وعزموا على قصدِ مصرَ ليملِكُوها، فجاءَ العبيديُّونَ فأخذُوها، وقامَت دولةُ الرَّفضِ في الأقاليمِ المغربِ ومصرَ والعراقِ، واللهُ سبحانَه وتعالى أعلَمُ.

* * *

[الدَّولةُ العبيديَّةُ الفاطميَّةُ]

ثـمَّ جـاءَتِ الدَّولـةُ العُبَيديَّـةُ الفاطميَّـةُ، نسـبةً لعُبيـدِ اللهِ المهـديِّ صاحـبِ المغـربِ، أو لفاطمـةَ الزَّهـراءِ رضـيَ الله عنهـا بحسـبِ دعواهـم الكاذبـةِ؛ لأن أكثرَ المؤرِّخيـنَ[١] قالـوا: إنَّهـم من أولادِ الحُسـينِ بن محمدِ بـنِ أحمدَ بن القـدَّاحِ، وكانَ مجوسِـيًّا وقيـلَ: يهودِيًّا كما مـرَّ، وارتفعَـتْ بهم النِّيابةُ العباسـيَّةُ من مصرَ سـنةَ ثمانٍ وخمسـينَ وثـلاث مئةٍ، وتسـمَّوا بالخلفـاءِ وأمـراءِ المؤمنيـنَ، وذلكَ باطـلٌ، بل هم متغلِّبـةٌ خـوارجُ، وإمامتِهم باطلـةٌ؛ لأنهم قامُوا والخلافةُ العباسـيَّةُ قائمـةٌ ببغدادَ، ولا تصحُّ البيعـةُ بالخلافـةِ لإمامَينِ.

قالَ الفقهاءُ: لو بويعَ بالخلافةِ اثنانِ فالإمام الأوَّلُ، ومعًا أو جُهِلَ السَّابقُ[٢]؛ فالإمامةُ باطلةٌ[٣].

وقالَ صاحبُ «الأنوارِ» من الشَّافعيةِ: لا يجوزُ نصبُ إمامَينِ في وقتٍ واحدٍ[٤].

ومبدأُ ظهورِ الفواطمِ بالمغربِ وأوَّلُهم:

المهديُّ باللهِ عبيدُ اللهِ: باني المهديَّةِ، تولى بالمغرِبِ خمسًا وعشرينَ سنةً وثلاثة أشهرٍ.

القائمُ بأمرِ الله محمدٌ: تولَّى بالمغربِ أيضًا اثني عشرةَ سنةً وسبعةَ أشهُرٍ.

---

(١) انظر: «الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة (٢/ ٢١٤)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٣٩/ ٢٧٥).

(٢) في (ش): «الناس».

(٣) انظر: «الأحكام السلطانية» لأبي يعلى الفراء (ص٢٥)، «روضة الطالبين» للنووي (١٠/ ٤٧)، و«الذخيرة» للقرافي (١٠/ ٢٧).

(٤) انظر: «الأنوار لأعمال الأبرار» للأردبيلي (٢/ ٤٧٢).

المنصورُ إسماعيلُ: صاحِبُ إفريقيةَ، تولَّى بالمغربِ، فأقامَ اثنين وثلاثين عامًا.

إذا تقرَّرَ هذا فأوَّلُهم بمصر:

[المعزُّ لدين الله]

المعزُّ لدينِ اللهِ أبو تميمٍ مَعَدُّ بنُ المنصورِ إسماعيلَ بنِ القائمِ بنِ المهديِّ: صاحبِ المغربِ، بويعَ بالمغربِ بعد موتِ أبيهِ المنصورِ، فأقامَ أربعًا وعشرين سنةً، وتوفِّيَ بمصرَ سنة خمسٍ وستينَ كما سيأتي.

والمعزُّ هذا هو الَّذِي بُنِيَتْ لهُ القاهرةُ بنيَّةِ المفاخرةِ للعباسيِّينَ ببنائِهم بغدادَ، والجامعُ الأزهرُ على يدِ[1] جوهرِ القائدِ الخادمِ ووزيرِهِ، وهوَ من كبارِ الرافضةِ، دخلَها قبلَ المعزِّ في مئة ألفِ مقاتلٍ، فأخذَ مصرَ بلا قتالٍ؛ لأنَّه لَمَّا ماتَ كافورٌ لم يبقَ مَنْ تجتمعُ عليهِ القلوبُ، وأصابهم غلاءٌ شديدٌ فأضعفَهم، فكتبَ جماعةٌ إلى المعزِّ يطلبونَ منه عسكرًا ليسلِّموا إليهِ مصرَ؛ فأرسَلَ مولاه جوهرًا القائدَ، فاستولى عليها في خلافةِ المطيعِ للهِ العباسيِّ، وشرَعَ في بناءِ القاهرةِ ودارِ الإمارةِ المعروفةِ الآنَ بالقَصْرَينِ سنةَ ثمانٍ وخمسينَ، وخرجَتْ مصرُ والشَّامُ والحجازُ والمغرِبُ وصقليةُ عن بني العبَّاسِ من حينئذٍ.

وشرعَ في بناءِ الجامعِ الأزهرِ سنةَ تسعٍ وخمسينَ وثلاث مئةٍ، وكملَ بناؤه في سابعِ رمضانَ سنةَ إحدى وستِّينَ، وفي سنةِ تسعٍ أمرَ جوهرٌ القائدُ المؤذِّنينَ أن يؤذِّنوا بـ(حيَّ على خيرِ العملِ).

وفي سنةِ ستِّينَ أعلمَ[2] المؤذنونَ بدمشقَ بـ: (حيَّ على خيرِ العملِ) بأمرِ

---

(١) «يد» من (ش).

(٢) في (ش): «أعدل».

المعزِّ، بعدَ أنْ شقَّ ذلكَ على النَّاسِ، وأقرَّ جوهرٌ القضاةَ على حالِهم، غيرَ أنَّه ألزمَهم أن يحكُموا في المواريثِ وفي الطَّلاقِ والهلالِ بقولِ أهلِ البيتِ، وجعلَ الهلالَ شهرًا ثلاثينَ، وشهرًا تسعًا وعشرينَ.

وكانَ جدُّ المعزِّ عبيدُ الله المهديُّ المتغلِّبُ على المغربِ في سنةِ إحدى وثلاث مئةٍ قدِمَ في أربعينَ ألفًا ليأخُذَ مصرَ فعجزَ ورُدَّ خائبًا.

وفي سنةِ ستٍّ وثلاث مئةٍ أقبلَ القائمُ ابنُ المهديِّ في جيوشِهِ فأخذَ الإسكندريةَ وأكثرَ الصَّعيدِ ثم رجعَ، ثم بعدَ ذلكَ في عامِ ثمانٍ وخمسينَ جاءَ جوهرٌ القائدُ فأخذَها كما مرَّ.

ثم تولَّى المعزُّ لدينِ اللهِ في عامِ اثنين وستِّينَ وثلاث مئةٍ ومعَه ألفٌ وخمس مئةِ جملٍ موسوقةً ذهبَ عينٍ[1]، وأحضرَ صحبتَهُ توابيتَ آبائهِ ودفنَهم في قصرِه في القاهرةِ.

وامتدحَهُ شاعرُهُ محمدُ بنُ هانئ بقصيدةٍ يقولُ فيها ـ شعرـ:

تقولُ بنو العبَّاسِ هل فُتِحتْ مصرُ فقلْ لبني العبَّاسِ قد قُضِيَ الأمرُ[2]

وكانَ المعزُّ شابًا خبيثًا، إلَّا أنهُ كانَ فاضِلًا عاقلًا أديبًا حاذِقًا جوَدًا ممدوحًا، وفيهِ عدلٌ للرَّعيةِ، حضرَتهُ امرأةُ كافورِ الإخشيديُّ وادَّعَت على يهوديٍّ بثوبٍ منسوجٍ باللَّآلئِ اليَّتيمةِ، فأنكرَها، فأمرَ المعزُّ بتفتيشِ دارِ اليهوديِّ، فوجَدَ الثَّوبَ

---

(١) موسوقة ذهب عين: أي محملة بالذهب غير المضروب. وسقت البعير: حملت عليه. انظر: «مطالع الأنوار» لابن قرقول (٦/ ٢٤٤).

(٢) وهو مطلع قصيدة طويلة. انظر: «ديوان ابن هانئ» (ص١٣١)، وانظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٧/ ٣١٥)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ٣٧٦).

فدفعَهُ لها، فعرضَتهُ على المعزِّ، فلَم يقبَلْهُ، فشكرَهُ النَّاسُ على ذلكَ.

وفي أيَّامهِ سنةَ ستِّينَ وثلاث مئةٍ قاتلَتهُ القرامطَةُ قتالًا شدِيدًا، ثم غلبَهم بالمكيدةِ.

وفي سنةِ ثلاثٍ وستِّينَ أُقيمَتِ الخطبةُ والدَّعوةُ بالحرمينِ للمعزِّ وعلى الرَّفضِ، وزادَ بمصرَ والشَّامِ والغربِ والشَّرقِ، ونودِي بقطعِ صلاة التَّراويحِ من جهَةِ المعزِّ، فكانتِ الخطبةُ في سائرِ ممالك الشَّرقِ إلى أعمالِ الفراتِ وحلبَ باسمَ بني العباسِ، ومن حلبَ إلى بلاد المغربِ كانتِ الخطبةُ باسمِ الخلفاءِ الفواطمِ مع الحرمَينِ الشَّريفَينِ.

وفي سنةِ ثلاثٍ وستِّينَ أيضًا خرجَ بنو هلالٍ وطائفةٌ من العربِ على الحُجَّاجِ فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وعطَّلُوا الحجَّ، فلم يحُجَّ تلك السَّنةِ سِوى أهلُ دربِ العراقِ.

واستمرَّ المعزُّ إلى أن توفِّيَ سابعَ ربيعٍ الآخرِ سنةَ خمسٍ وستِّينَ وثلاث مئةٍ، ودفِنَ بقصرِهِ في القاهرةِ عندَ آبائهِ، يلقَونَ من اللهِ ما يستحقُّونَ.

[العزيزُ باللهِ أبو نصرٍ]

ثم تولَّى العزيزُ باللهِ أبو نصرٍ نزارٌ: ولَدُ المعزِّ المذكورِ، فأقامَ إحدى وعشرينَ سنةً وخمسةَ أشهرٍ، وتوفِّيَ بحمَّامِ بلبيسَ[1] في الثَّامنِ والعشرينَ من شهرِ[2] رمضانَ، سنةَ ستٍّ وثمانينَ وثلاث مئةٍ، وفتح له في أيَّامهِ زيادةً على آبائهِ حمصُ وحلبُ، وخطِبَ له بالموصلِ وباليمنِ.

---

(١) «بحمام بلبيس» من (ش). وبلبيس: مدينة قديمة، تتبع حاليًا لمحافظة الشرقية في مصر. انظر: «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية» (٢/ ٢٣)

(٢) «شهر» من (خ).

وفي أيَّامِهِ كتبَ إلى الأمويِّ صاحبِ الأندلسِ كتابًا سبَّهُ فيهِ وهجاهُ، فكتَبَ إليهِ الأمويُّ: أما بعدُ؛ فإنكَ قد عرفتَنا فهجَوتنا، ولو عرفناكَ لأجبناكَ، فاشتدَّ ذلكَ على العزيزِ، وأفحمَهُ عن الجوابِ، يعني: أنه دعيٌّ لا تُعرَفُ قبيلتُهُ، وصعِدَ يومًا المنبرَ فرأى ورقةً مكتوبًا فيها ـ شعرـ:

بالظُّلمِ والجورِ قد رَضِينا ليسَ بالكفرِ والحمَاقة

إن كُنتَ أُوتِيْتَ علمَ غَيبٍ بيِّن لنا كاتِبَ البِطاقَة[1]

لأنَّهم كانوا يدَّعونَ علمَ المغيَّباتِ، ومنَ العَجبِ أنَّهُ كانَ استوزَرَ نصرانيًّا وولَّاه على مصرَ، وآخرَ يهودِيًّا وولَّاهُ على الشَّامِ، فعزَّ بسبَبِهما اليهودُ والنَّصارَى على المسلمين[2]، فكتبَتْ إليهِ امرأةٌ تشتكِي: بالذي أعزَّ اليهودَ بميشا، والنَّصارَى بابنِ نسطَروسَ، وأذلَّ المسلمينَ بكَ إلا رفعتَ مظلَمتي، فرفعَها وعزَلهما، وأخذَ من النَّصرانيِّ ثلاثَ مئةِ ألفِ دينارٍ[3].

[الحاكم بأمر الله]

ثم تولَّى الحاكِمُ بأمرِ اللهِ أبو عليٍّ المنصورُ: ولدُ العزيزِ، فأقامَ خمسًا وعشرينَ سنةً وشهرًا، إلى أن قُتِلَ بمكيدَةِ أختِهِ بالجبلِ المقطَّمِ، سابعَ عشرَ شوالٍ سنةَ إحدى عشرة[4] وأربع مئةٍ، وسيرتهُ القبيحَةُ وعقيدَتهُ الخبيثةُ مشهورةٌ.

وهو الَّذي عملَ لجامعِ عَمرِو بن العاصِ تنُّورًا[5] من فضَّةٍ فيه مئةُ ألفِ

(١) انظر: «تاريخ الأنطاكي» (ص٣٣٧)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٥/ ٣٧٤).

(٢) «على المسلمين» من (ش).

(٣) انظر: «المنتظم» لابن الجوزي (١٤/ ٣٨٦)، و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٧/ ٤٧٥).

(٤) في (ش): «سنة إحدى وعشرين»، وفي (خ): «سنة إحدى عشرة سنة»، والمثبت هو الموافق لـ«الكامل في التاريخ» (٧/ ٦٥٨).

(٥) في (ش): «تنويرًا».

درهَـمٍ[١]، وأرسـلَ لـه مـن القصـرِ ألفًـا ومئتَيـنِ وتسـعينَ مصحفًـا، منهـا مـا هـو مكتـوبٌ كلُّـهُ بالذهبِ، وبنـى الجامعَ الحاكمـيَّ، ويقالُ لـهُ: الجامعُ الأنـورُ، الذي بيـنَ بـابِ النَّصـرِ وبـابِ[٢] والفتوحِ.

وكانَ قاضيهِ يكتُبُ على السِّجلِ: قاضي القضاةِ، قاضي عبدُ اللهِ الإمامُ الحاكِمُ أميرُ المؤمنينَ، صلواتُ اللهِ عليه وعلى آبائهِ الطَّاهرينَ، على القاهرَةِ الـمُعزِّيَّةِ[٣] ومصرَ والإسكندريةِ، وأجيادِ الشَّامِ والرَّحبةِ والرَّقَّةِ والمغرِبِ وأعمالِها، وما فتحَهُ اللهُ وما تيسَّرَ فتحُهُ لأميرِ المؤمنين.

قالَ أهلُ التَّاريخِ: لم يلِ مصرَ بعد فرعونَ شرٌّ من الحاكمِ، رامَ أن يدَّعيَ الألوهيَّةَ، وصارَ قومٌ من الجهَّالِ إذا رأَوهُ يقولونَ: يا واحدُ! يا أحدُ! يا محيي! يا مميتُ! وأمرَ الرَّعيةَ بالقيامِ لهُ عندَ ذكرِ الخطيبِ لهُ على المنبرِ إعظامًا لهُ، وأمرهُم بالسُّجودِ إذا ذُكِرَ اسمُهُ في الخطبة وغيرِها في مواضعِ الاجتماعِ[٤].

وكانَ كثيرَ التلوُّنِ، هدمَ الكنائسَ، ثم أعادها وأسلمَ لذلك ناسٌ من أهلِ الذِّمَّةِ، ثمَّ أذِنَ لمن أسلَمَ أن يعودَ إلى دينِهِ، وبنى المدارِسَ، وجعلَ فيها الفقهاءَ والمشايخَ، ثم قتلَهم وخرَّبها، وأمرَ بقتلِ الكلابِ فقتَلَها كلَّها، وحرَّمَ أكلَ الملوخيةِ، وأمر بقطعِ الكرومِ التي بإقليمِ مصرَ والصَّعيدِ احترازًا من عصرِ الخمرِ.

وأمرَ النَّاسَ بغلقِ الأسواقِ نهارًا وفتحِها ليلًا، وكان يتولَّى الحسبَةَ بنفسِهِ؛ فمن

---

(١) في «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (١٨/ ١٨٣)، و«النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٤/ ٢٢٣): «ووضع للجامع تَنُّورًا من فضةٍ تُوقد فيه ألفٌ ومئتا فتيلة».

(٢) «وباب» من (ش).

(٣) المعزية: نسبة إلى المعز لدين الله. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٥/ ٢٢٧).

(٤) انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (٩/ ١٧٥)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٢/ ١٢).

وجدَهُ قد غشَّ أمرَ عبدًا أسود معهُ أن يعمَلَ فيه الفاحشةَ، ومنعَ النِّساءَ أن يخرُجنَ من البيوتِ، وأمرَ بسبب ذلكَ بحرقِ مصرَ فاحترَقَ نحوُ ثلُثِها.

وفي أيامهِ سنةَ ثلاثٍ وتسعينَ أمرَ نائبَهُ بدمشقَ بمغربيٍّ فطيفَ بهِ على حمارٍ، ونودِيَ عليهِ: هذا جزاءُ من يحبُّ أبا بكرٍ وعمرَ، ثمَّ ضربَتْ عنقُهُ بالسَّيفِ.

وفي سنةِ خمسٍ وتسعينَ أمرَ بمصرَ بكتابةِ سبِّ الصحابةِ على أبوابِ المساجدِ والشَّوارعِ، وأمرَ العمَّالَ بالسَّبِّ.

[الظاهر لإعزاز دين الله]

ثم تولَّى الظاهرُ لإعزازِ دين اللهِ أبو الحسَنِ عليٌّ: ولَدُ الحاكمِ، فأقام[١] ستَّ عشرَةَ سنةً[٢] وتسعَةَ أشهُرٍ، وتوفِّيَ سنةَ سبعٍ وعشرينَ وأربع مئةٍ.

وكانَت عمَّتُهُ قد قامَتْ بتدبيرِ ملكِهِ أحسنَ قيامٍ إلى أن كبرَ، وفي أيَّامه تضَعضَعَتْ دولةُ الفاطميينَ، فخرجَتْ عنهم حلبُ وأكثرُ الشَّامِ.

وفي أيَّامهِ أمرَ بجمعِ الجواري الحِسَانِ متزيِّناتٍ بالحُللِ والحُليِّ ليضَعَ لهنَّ يومًا حسنًا لم يُرَ مثلُهُ بمصرَ، فاجتمعَ ما يزيدُ على ألفَين وستِّ مئةِ جاريةٍ حسناءَ، فأمرَ ببناءِ المجلسِ، وسدِّهِ عليهنَّ حتَّى مِتْنَ جميعًا، ثم أمرَ بحرقِهنَّ وما عليهِنَّ بعد ستَّةِ أشهرٍ.

قالَ السيوطيُّ بعدَ هذهِ الحكايةِ: فلا رحمَهُ اللهُ ولا رحِمَ مَن خلَّفهُ[٣].

---

(١) في (خ): «وعمره».

(٢) في (ش): «وعمره ستة عشرة سنة، فأقام خمس سنين وتسعة أشهر»، وهذا مخالف لما في المصادر من أن عمره لما توفي ثلاث وثلاثون سنة، وفي بعضها ثلاثون سنة. انظر: «المنتظم» لابن الجوزي (١٥/ ٥٥)، و«الكامل» لابن الأثير (٨/ ٢١٩).

(٣) انظر: «حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ٢٨٦).

وقالَ غيرُ السيوطيِّ: كانَ الظَّاهرُ هذا سَمحًا عاقلًا جَودًا يميلُ إلى دينٍ وعِفَّةٍ وحلمٍ معَ تواضعٍ، أزالَ الرُّسومَ التي جُدِّدَت في أيامِ أبيه الحاكِمِ(١).

[المستنصرُ باللهِ أبو تميم بن الظَّاهر]

ثمَّ تولَّى المستنصِرُ باللهِ أبو تميمٍ بنُ الظَّاهرِ المذكورِ: وعمُره سبعُ سنينَ، فأقامَ ستِّينَ سنةً وأربعةَ أشهرٍ، ولم يقُم هذه المدَّةَ خليفةٌ ولا ملِكٌ في الإسلامِ قبلَهُ ولا بعدَهُ، وتوفِّيَ ثامنَ عشرَ ذي الحجَّةِ سنةَ سبعٍ وثمانينَ وأربع مئةٍ، ولم يكُن من عهدِ المستنصِرِ هذا للفواطِمِ من الخلافةِ سوى الاسمُ؛ لاستيلاءِ وزرائهم على الأمورِ، وحجرِهم عليهم فيها؛ كخلفاءِ بغدادَ العباسيَّةِ معَ بني بويهِ.

وفي أيَّامهِ سنةَ ثلاثينَ وأربعِ مئةٍ تعطَّلَ الحجُّ مِن سائرِ الأقاليمِ فلم يحُجَّ أحدٌ.

وفي أيَّامهِ سنةَ ثمانٍ وأربعينَ وأربعِ مئةٍ قُطعَتِ الخطبةُ للعبيديِّ بالمغربِ، وخُطِبَ لبني العبَّاسِ، وكذلِكَ فُعِلَ بمكةَ، وبَطَلَ من دمشقَ الأذانُ بـ(حيَّ على خيرِ العمَلِ).

وفي سنةِ خمسٍ وخمسينَ دُعِيَ للعبيديِّ بجامعِ المنصورِ ببغدادَ، وزِيدَ في الأذانِ: (حيَّ على خيرِ العملِ)، وخطِبَ له في كلِّ(٢) جوامعِ بغدادَ.

وفي سنةِ ستِّينَ وأربعِ مئةٍ وقعَ الغلاءُ الَّذي لم يُسمَعْ بمثلِه من عهدِ يوسفَ، واستمرَّ سبعَ سنينَ، بحيثُ بِيعَ الكلبُ بخمسةِ دنانيرَ، والهرُّ بثلاثةِ دنانيرَ(٣)، ولم يبقَ

---

(١) انظر: «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (١٨/ ٤٠٤)، و«النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٤/ ٢٤٨).

(٢) «كل» من (خ).

(٣) «دنانير» من (خ).

للخليفةِ سوى ثلاثةِ أفراسٍ، وبيعَ الرَّغيفُ بمئةِ دينارٍ، ثمَّ عُدِمَ القوتُ بالمرَّةِ بحيث إن امرأةً بذلَتْ مدَّ جوهَرٍ بمدِّ قمحٍ، فلم يلتفِتْ إليها أحدٌ، نعوذُ باللهِ من ذلكَ.

ويقالُ: لم يبقَ للخليفةِ سوى سجَّادةٍ وقُبقابٍ، وكانَ إذا نزلَ من القصرِ يستعيرُ بغلةَ الدِّيوانِ ليركَبَها.

[المستعلِي باللهِ أبو القاسمِ أحمدُ]

ثمَّ تولَّى المستعلِي باللهِ أبو القاسمِ أحمدُ: ولَدُ المستنصرِ المذكورِ، فأقامَ سبعَ سنينَ، وتوفِّيَ سنةَ خمسٍ وتسعينَ وأربع مئةٍ، وكانَ الكلامُ في مملكتِهِ لوزيرِهِ الأفضلِ ابن أميرِ الجيوشِ بدرٍ الجمَّالي، وهو الَّذي بنى الجيوشَ بسطحِ الجبلِ المقطَّمِ، وجامعِ الجيزَةِ، وجامعِ العطَّارينَ بثغرِ إسكندريَّةَ، وسوقِ أميرِ الجيوشِ المسمَّى الآنَ بسوقِ مرجوشٍ.

وكانَ سُنيًّا، وتولَّى الوزارةَ للمستنصِرِ والمستعلِي وصَدرًا من ولايةِ الآمرِ، ثم قُتِلَ برمضانَ سنة خمسَ عشرةَ وخمس مئةٍ، ضربَهُ فِدَاوِيٌّ[1] وهو راكبٌ فقتلَهُ.

قالَ ابن خَلِّكانَ: وتركَ من الأموالِ ما يفوقُ العدَّ؛ من الذَّهبِ ستَّ مئةِ ألفِ ألفِ دينارٍ، ومن الفضةِ مئتينِ وخمسينَ إردبًّا[2]، وسبعينَ ألفَ ثوبِ ديباجٍ أطلسٍ[3]، ودواةَ ذهبٍ فيها جوهرٌ باثني عشرَ ألفَ دينارٍ، وخمس مئة صندوقٍ

---

(١) فداوي: نسبة إلى الفداوية؛ فئة من الباطنية، سموا بذلك لأنهم يفادون أنفسهم بالمال على قتل من يسلطون. انظر: «تاريخ ابن خلدون» (٥/ ٣١).

(٢) الإردب: مكيال مصري ضخم، يسع أربعة وعشرين صاعًا. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: ردب).

(٣) أطلس: أملس. انظر: «التقفية في اللغة» للبندنيجي (ص٤٦٤). أو بمعنى الحرير، فارسي معرب. =

للبسِ بدنِهِ، وتركَ صندوقَين كبيرَين فيهما إبرُ ذهبٍ برسمِ النِّساءِ، ومن سائرِ الأنواعِ ما لا يعلمُه إلا الله[(١)].

ومن محاسِنِهِ أن القاضِي كتبَ إليه رقعةً وهو في الوزارةِ يقولُ فيها: إنه وجدَ في حاصلِ المواريثِ[(٢)] مالًا يبلُغُ مئةَ ألفِ دينارٍ، وليسَ لها طالبٌ من عدَّةِ سنينَ، ورفعُهُ إلى بيتِ المالِ أولى، وأرادَ بذلكَ التقرُّبَ عندَهُ، فوقَّعَ فيها: إنَّما قلَّدناكَ قاضيًا ولم نجعَلْكَ ساعيًا، ولا أربَ لنا فيما لا نستحِقُّ قبضَهُ، فاترُكه على حالِهِ حتى يحضُرَ مستحِقُّهُ، ولا تراجِع في ذلكَ بعدَها[(٣)].

وفي أيَّامِ المستعلي ظهرتِ الفرنجُ على أرضِ الشَّامِ، فانزعجَتْ لهم الملوكُ والرعيَّةُ[(٤)] وعظُمَ الخطبُ.

قيلَ: إنَّ المستعلي لَمَّا رأى قوةَ دولةِ السلجوقيَّةِ واستيلاءَهم على الشَّامِ كاتبَ الفرنجَ يدعُوهم إلى الشَّامِ ليملكُوها، فقدِمتِ الفرنجُ في ألفِ ألفِ مقاتلٍ إلى بيتِ المقدسِ، فأخذُوه في صحوةِ يومِ الجمعةِ ثالثَ عشرَ شعبانَ عامَ اثنينِ وتسعينَ وأربع مئةٍ، وقتلوا بهِ أكثرَ من سبعينَ ألفًا من العلماءِ والصُّلحاءِ وغيرِهم، وجمعُوا اليهودَ في الكنيسةِ وأحرَقُوها عليهِم، وأخذُوا حيفا وأرسوفَ[(٥)] وقَيسارِيَّةَ[(٦)]،

= انظر: «تاج العروس» (مادة: طلس)، «المعجم العربي لأسماء الملابس» (ص٣٠٥).

(١) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢/ ٤٥١)، وذكر أنه نقله عن كتاب «الدول المنقطعة»، للوزير جمال الدين، أبي الحسن: علي بن أبي المنصور، ظافر الأزدي (ت ٦٢٣).

(٢) «المواريث» من (ش).

(٣) انظر: «رفع الإصر عن قضاة مصر» لابن حجر (ص٤٣٦).

(٤) «والرعية» من (ش).

(٥) أرسوف: بلدة في فلسطين قرب يافا، على البحر المتوسط، وحاليًا على مقربة منها مستوطنة رشف. انظر: «المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» لموستراس (ص٤٢).

(٦) قيسارية: مدينة قديمة في فلسطين، على شاطئ المتوسط، فتحها معاوية بن أبي سفيان، تقع أطلال =

وتمكنَّتِ الفرنجُ من الشَّامِ، ونقِلَ المصحَفُ العثمانيُّ من طبريَّةَ إلى دمشقَ خوفًا عليهِ، واستولَوا على غالبِ إقليم الشامِ.

[الآمر بأحكام الله]

ثم تولَّى الآمُر بأحكامِ اللهِ أبو النَّصرِ عليٌّ: ولَدُ المستعلي، وعمرُه خمسُ سنينَ، فأقامَ تسعًا وعشرينَ سنةً وسبعةَ أشهرٍ، إلى أن قُتلَ في الرَّوضةِ سنةَ أربعٍ وعشرينَ وخمس مئةٍ.

وفي أيَّامهِ بني الجامعُ الأقمرُ بالقاهرةِ.

قال الذَّهبيُّ: كانَ الآمرُ رافضيًّا خبيثًا فاسِقًا ظالمًا جبَّارًا، متظاهِرًا بالمنكرِ واللَّهوِ، ذا كبرٍ وجبروتٍ[1].

وفي أيَّامهِ قصَدَ بردَوِيلُ ملكُ الفِرَنجِ أخذَ مصرَ، فأهلكَهُ اللهُ قبلَ أن يصِلَ إلى العريشِ، فشقَّ أصحابُهُ بطنَهُ وأخرجوا حشوتَهُ، ورمَوا بها، فسمِّيَ ذلك المكانُ بسبخةِ بردَويلَ[2]، ثم دفنُوه بالقمامةِ بالقدسِ[3]، وكانَ هو الَّذي أخذَ بيتَ المقدسِ من المسلمينَ.

= المدينة على بعد ٤٠ كم جنوب حيفا. انظر: «الروض المعطار» للحميري (ص٤٨٦).

(١) انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (١١/ ٤٢٢).

(٢) سبخة بردويل: ويقال لها بحيرة بردويل، واقعة على شاطئ البحر المتوسط، تقع في الجنوب الغربي من مدينة العريش، وعلى بعد ٩٠ كم من بور سعيد، وهي موجودة إلى اليوم.

(٣) «بالقمامة» من (خ). والقمامة: بالضم: كنيسة للنصارى ببيت المقدس، في وسط البلد، فيها قبة تحتها قبر، يقولون: إن المسيح دفن فيه، ومنه قام، فلذلك تسميها النَّصارى القيامة. انظر: «مراصد الاطلاع» (٣/ ١١٢١).

[الحافظُ لدينِ اللهِ عبدُ المجيدِ محمَّدُ بن المستنصِرِ]

ثم تولَّى الحافظُ لدينِ اللهِ عبدُ المجيدِ محمدُ بن المستنصِرِ: ولَدُ عمِّ الآمر، فأقامَ تسعَ عشرَةَ سنةً وسبعةَ أشهُرٍ، وتوفِّيَ سنةَ أربعٍ وأربعينَ وخمس مئةٍ.

ومن العجَبِ أن الحافظَ ولَّى الوزارةَ لبهرامَ النَّصرانيِّ الأرمنيِّ، فأنكَرُوا عليهِ ذلكَ، وقالَ له بعضُ خواصهِ: النَّصرانيُّ لا يكونُ وزيرًا؛ لأن من وظِيفَتِه أن يصعَدَ مع الخليفةِ المنبرَ يومَ الجمعةِ، فأصرَّ على توليَتِه وأن ينوبَ عنهُ القاضي في ذلكَ.

قالَ ابنُ خَلِّكانَ: إن الحافظَ كانَ يعتَرِيه القَولنجُ[١]، فعمِلَ له الحكماءُ طَبلًا إذا ضربَهُ أحدٌ خرجَ الرِّيحُ من مخرَجِهِ، واستمرَّ بخزائنِهم إلى أيامِ صلاحِ الدِّينِ[٢].

فأخذَهُ كرديٌّ ولا يدرِي ما هوَ، فضربَهُ فضرَطَ فخجِلَ وألقاهُ من يدِهِ[٣].

وفي أيَّامِهِ فتحَ الزِّنكي والِدُ نورِ الدِّينِ الشَّهيدِ الرُّهَا[٤] من الفِرنجِ، وسائرَ الأماكنِ التي كانَتْ بيدِ الفرنجِ شرقيَّ الفُراتِ.

---

(١) القولنج بفتح اللام: وجع في المعي المسمى قولن بضم اللام، وهو شدة المغص. انظر: «المصباح المنير» للفيومي (القاف مع الواو وما يثلثهما).

(٢) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣/ ٢٣٧).

(٣) انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (١٥/ ٢٠١)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (١/ ٦٠٨).

(٤) الرها: مدينة سريانية قديمة، وكانت عاصمة للملكة الرها قبل الميلاد، وعرفت باسم: إديسا، واليوم تقع في جنوب تركيا، واسمها شانلي أورفة، وهي مركز محافظة أورفة. انظر: «المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمان» لموستراس (ص١١٩)، وانظر: «معجم البلدان» لياقوت (٣/ ١٠٦)، «الروض المعطار» (ص٢٧٣).

وفي أيَّامِهِ قصدَ نورُ الدِّينِ الشَّهيدُ محمودُ بنُ زِنكي حلبَ؛ فملكَها وأظهرَ بها السُّنَّةَ وغَيَّرَ البدعةَ التي كانَت لهم في التَّأذينِ، وقمعَ بها الرَّافضةَ، وبنى بها المدارِسَ، ووقَفَ الأوقافَ، وأظهَرَ العدلَ، وجدَّ في قتالِ الفِرَنجِ وفتحِ حصونِهم.

وملكَ الفِرَنجُ المهديَّةَ بإفريقِيَّةَ.

[الظَّافرُ بأعداءِ اللهِ إسماعيلُ بن الحافظِ]

ثمَّ تولَّى الظَّافرُ بأعداءِ اللهِ إسماعيلُ بن الحافظِ: فأقامَ أربعَ سنينَ وسبعةَ أشهُرٍ، وكانت أيَّامُه مضطربةً؛ لحداثةِ سنهِ، واشتِغاله باللَّهوِ واللَّذاتِ، بحيثُ عشِقَ ابنَ وزيرِهِ العباسِ الصِّنْهاجِيِّ، فكانَ ذلكَ سببَ خنقِهِ، فقُتِلَ بدارِ الوزارَةِ المعروفةِ الآنَ بمدرسَةِ السُّيوفيَّةِ[1]، سنة تسعٍ وأربعينَ وخمس مئةٍ.

وبُنِيَ في أيامِه الجامعُ الفاكِهانيُّ[2] داخِلَ بابِ زُويلَةَ[3].

وفي سنةِ موتِهِ أخذَ نورُ الدِّينِ دمشقَ بعدَ أن استَعانوا على قتالِهِ بالفرنجِ، وطمِعَت الفِرَنجُ في أخذِ دمشقَ بعدَ أن ملكُوا في السَّنةِ الخاليةِ قبلَها عسقلانَ وقَوِيت شوكَتُهم، فأعانَ اللهُ دمشقَ وإقليمَها بنورِ الدِّينِ، فضبَطَ أمورَ دمشقَ، وحصَّنَ سورَها، وبنى بها المدارِسَ، وأبطَلَ المكُوسَ[4]، وعاقَبَ على شربِ الخَمرِ.

---

(١) المدرسة السيوفية: مدرسة بالقاهرة، وهي من جملة دار الوزير المأمون البطائحيّ، وقفها السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي على الحنفية، وعرفت بالمدرسة السيوفية، من أجل أن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها. انظر: «المواعظ والاعتبار» للمقريزي (٤/ ٢٠٤).

(٢) الجامع الفاكهي أو جامع الفاكهيين: كان يقال له: الجامع الأفخر، وكان قبل ذلك زريبة تعرف بدار الكباش. «المواعظ والاعتبار» للمقريزي (٤/ ٨٤).

(٣) باب زويلة: أحد أبواب القاهرة، بناه وزير المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالي، في سنة خمس وثمانين وأربع مئة. انظر: «المواعظ والاعتبار» للمقريزي (٢/ ٢٤٠).

(٤) أصل المكس في اللغة: النَّقص والظُّلم، ودراهم كانت تؤخذ من بائعي السِّلع في الأسواق في =

[الفائز بنصر الله عيسى]

ثم تولَّى الفائزُ بنصرِ اللهِ عيسَى: ولَدُ الظَّافرِ، وعمرُهُ خمسُ سنينَ، فأقامَ ستَّ سنينَ ونصفًا، وماتَ في سابعَ عشرَ رجبٍ، سنةَ خمسٍ وخمسينَ وخمسِ مئةٍ، وبدولَتِه وَهَى أَمْرُ المصريِّينَ، فكتَبَ الخليفةُ المقتفِي عهدًا لنورِ الدِّينِ محمودِ بن زِنكي وولَّاهُ مصرَ، وأمرَهُ بالمسيرِ إليها كما سيأتي.

وفي أيامِهِ تولَّى الوزارةَ الملكُ الصَّالحُ طلائعُ بنُ رُزَّيكٍ[١] الصَّالحِيُّ[٢]، الَّذي بنى الجامِعَ خارجَ بابِ زُوَيلَةَ، والمشهَدَ الحُسَينيَّ بالقاهرَةِ، وتولَّى الوزارةَ للفائزِ والعاضِدِ، وكانَ تحتَ حِجرِه إلى أن قُتِلَ برمضانَ سنةَ ستٍّ وخمسينَ في خلافةِ العاضِدِ، وكانَ السَّببُ في قتلِهِ عمُّهُ العاضِدُ لاستيلائه على الأمورِ والدَّولةِ.

قالَ العمادُ: لما قُتلَ الصَّالحُ كسفَتْ شمسُ الفضائلِ، ورخصَ شعر الشعرِ، وانخفَضَ علَمُ العلمِ ولم تزل مصرُ[٣] بعدَهُ منحوسةَ الحظِّ، منكُوسةَ الرَّايةِ[٤].

لم يكُن مجلِسُهُ يُقطَعُ إلَّا بالمذاكرةِ في أنواعِ العلومِ الشَّرعيةِ والأدبيَّةِ، وفي مذاكرَةِ وقائعِ الحروبِ معَ أمراءِ دولتِهِ، وكانَ شاعرًا يحبُّ الأدبَ وأهلَهُ، ولكنهُ كانَ مفرِطَ العصبيَّةِ لمذهبِ الإماميَّةِ.

= الجاهلية، أو درهم كان يأخذه المصدق بعد فراغه من الصَّدقة، ويطلق المكس - كذلك - على الضريبة يأخذها المكاس ممن يدخل البلد من التجار. انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: مكس).

(١) في بعض المصادر: «زريك».

(٢) «الصالحي» من (ش).

(٣) «مصر» من(خ).

(٤) انظر: «خريدة العصر - شعراء مصر» للعماد (١/ ١٧٤ - ١٧٥).

ولَمَّا قُتل أقيمَ في الوزارةِ ابنُهُ رُزَّيك، فقُتِلَ بعد سنةٍ، فأقيمَ بعدَهُ شاوَرُ وهو الوزيرُ المشؤومُ على الفواطِمِ كالوزيرِ ابن العلقَميِّ على بني العباسِ، فإن هذا أطمَعَ الفِرَنجَ في أخذِ الدِّيارِ المصريَّةِ، فكان سببَ زوالِهم بالمرَّةِ، كما أن ابنَ العلقَميِّ أطمعَ التَّتارَ في أخذِ بغدادَ، وقتلِ الخليفةِ المستعصِمِ، فكانَ سببُ زوالِهم من بغدادَ وخرابِها، كما يأتي.

[العاضد لدين الله، عبد الله بن يوسف]

ثمَّ تولَّى العاضِدُ لدينِ اللهِ عبدُ اللهِ بنُ يوسفَ بنِ الحافظِ: فأقامَ إحدى عشرةَ سنةً وستَّةَ أشهُرٍ، وكانَ وزيرُهُ شاورُ المذكورُ، ثمَّ قتلَهُ صلاحُ الدِّينِ لموالاتهِ الفِرَنجَ، فاستوزَرَ العاضِدُ أسدَ الدِّين، فأقامَ شهرَينِ وماتَ، ثم استوزَرَ صلاحَ الدِّينِ، فاستمرَّ في الوزارةِ إلى أن ماتَ العاضِدُ في الحادي والعشرينَ من محرَّمٍ سنةَ سبعٍ وستين وخمس مئةٍ بعدَ خلعِهِ من مُلكِهِ بأيَّامٍ.

وبموتِ العاضِدِ انقضَتْ دولةُ الفاطميِّينَ الَّذين أفنَوا أئمَّةَ مذاهِبِ السُّنَّةِ قتلًا ونفيًا وتشريدًا، وأقامُوا مذهَبَ الرَّفضِ والشِّيعةِ.

قالَ أبو شامةَ: وقد أفرَدْتُ كتابًا سمَّيتُه: «كشف ما كانَ عليهِ بنو عُبَيد من الكُفرِ والكَذِب والكيد»(١).

وكُتِبَ فيهم أيَّامَ الحاكمِ بأمرِ اللهِ محضَرٌ من علماءِ بغدادَ ورؤسائِها عامَ اثنينِ وأربع مئةٍ، وفيه: أنَّهُم ليسوا مِن ولدِ عليٍّ بن أبي طالبٍ، بل هُم كفَّارٌ وفُسَّاقٌ وملحِدُون، وزنادِقةٌ مُبطِلونَ، وللإسلامِ جاحِدُونَ، عطَّلوا الحدود،

---

(١) انظر: «الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة (٢/ ٢٢٢).

وأباحُـوا الفُروج، وسـفكُوا الدِّماء، وسَـبُّوا الأنبيـاء..، وفيه ألفاظٌ من هـذا طويلةٌ(١).

قالَ الرُّعَينيُّ: أجمعَ العلماءُ بالقيروان على أنَّ حالَ بني عُبيدٍ حالُ المرتَدِّينَ والزَّنادِقةِ؛ لِـمَا أظهَرُوا من خلافِ الشَّريعةِ(٢).

وقالَ أبو الحسنِ القابسيُّ: إن الَّذينَ قتلَهُم عُبَيدُ اللهِ وبنوهُ من العلماءِ والعُبَّادِ أربعةُ آلافِ رجلٍ ليرُدُّوهم عن الترضِّي عن الصَّحابةِ، فاختارُوا الموتَ(٣).

ويا حبَّذَا لو كانَ رافِضِيًّا فقط، ولكنَّهُ زنديقٌ(٤).

وقـالَ شـيخُ الإسـلامِ تقـيُّ الدِّينِ ابـنُ تيميَّـةَ فـي بعـضِ تصانيفِـهِ: إنَّ القاهرةَ بقِـيَ ولاةُ أمورِهـا نحوَ مئتي سـنةٍ على غير شـريعةِ الإسـلامِ، فكانوا يظهِـرُونَ أنَّهم رافضَـةٌ، وهـم فـي الباطـنِ إسـماعِيليَّةٌ ونُصَيريَّـةٌ وقرامِطَـةٌ وباطنيَّةٌ، كما قـالَ فيهم الإمـامُ الغزالـيُّ فـي كتابِـه الـذي صنَّفَه في الـردِّ عليهـم: ظاهـرُ مذهبِهـم الرَّفضُ، وباطِنُـهُ الكفـرُ المحـضُ، والَّذيـنَ يوجـدُونَ فـي بـلادِ الإسـلامِ مـن الإسـماعيلِيَّةِ والنُّصَيريَّـةِ والقدَريـةِ وأمثالهـم مـن أتباعِهم.

قالَ: ولَمَّا كانوا ملوكَ القاهرةِ كانَ وزيرُهم مرَّةً يهودِيًا، ومرَّةً نصرانِيًّا أرمنِيًّا، وقويَتِ النَّصارى بسببِ ذلك النَّصرانيِّ الأرمنيِّ، فبنَوا كنائسَ كثيرةً بأرضِ مصرَ في دولةِ أولئكَ الرَّافضَةِ والمنافقينَ، وكانوا ينادُون بينَ القَصرَينِ: من لعَنَ وسبَّ فلهُ دينارٌ وإردَبٌّ.

(١) انظر: «المنتظم» لابن الجوزي (١٥/ ٨٣)، و«مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (١٨/ ٢٠٠).

(٢) انظر: «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٧/ ٢٧٧)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٩/ ٣٣٧).

(٣) انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (٧/ ٤٦٠)، و«مرآة الجنان» لليافعي (٢/ ٢١٥).

(٤) انظر: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص١١).

وكانوا من شرِّ الخلقِ فيهم قومٌ زنادِقةٌ دهريَّةٌ لا يؤمنونَ بالآخرةِ، ولا جنَّةٍ ولا نارٍ، ولا يعتَقِدونَ وجوبَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ والصِّيامِ والحجِّ، وخيرُ من كانَ فيهم من[1] الرَّافضَةِ، والرَّافضَةُ شرُّ الطوائفِ المنتَسِبينَ إلى القِبلةِ.

قالَ: فبهذا السَّببِ وأمثالِه كانَ إحداثُ الكنائسِ في القاهرةِ وغيرِها.

وقالَ: اتَّفقَ المسلِمونَ على أنَّ ما بناهُ المسلِمُونَ من المدائنِ لم يكُن لأهلِ الذِّمَّةِ أن يحدِثوا فيها كنيسةً.

وقالَ: من المعلومِ المتواترِ أنَّ القاهرةَ بُنِيتْ بعدَ عمرَ بنِ الخطابِ بثلاث مئةِ سنةٍ.

هذا كلهُ كلامُ ابنُ تيميَّةَ[2].

وإنَّما ذكرتُهُ لِمَا فيهِ مِنَ الفوائدِ الفقهيَّةِ مِن وجوبِ هدمِ كنائسِ القاهرةِ ونحوِها على ولاةِ الأمورِ، ألا إلى اللهِ تصيرُ الأمورُ.

وكانَت جملةُ مدَّةِ ولايتِهم بمصرَ خاصَّةً مئتي سنةٍ وستَّ سنينَ، وعدتُهم إحدى عشَر نفرًا، وكانَتِ ابتداء[3] دولتِهم بالمغربِ سنةَ سبعٍ وتسعينَ ومئتينِ، وانقراضُهم بمصرَ[4] سنةَ سبعٍ وستِّينَ وخمس مئةٍ، فمجموعُ مدَّتِهم نحو مئتينِ وإحدى وسبعينَ سنةً، وقد طهَّرَ اللهُ تعالى منهم البلادَ، وأراحَ منهم العبادَ.

***

---

(١) «من» من (خ).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٧/ ١٧٤) و(٢٨/ ٦٣٥)، و«مسألة في الكنائس» (ص١٠٦). وانظر كلام الغزالي الذي نقله عنه في: «فضائح الباطنية» (ص٣٧).

(٣) «ابتداء» من (ش).

(٤) «بمصر» من (خ).

[الدَّولة الأيوبيَّة]

ثـم جـاءتِ الدَّولةُ الأيوبيَّةُ الكُرديَّةُ السُّنِّيَّةُ أصحابُ الفتوحـاتِ، الَّذين جدَّدُوا الخطبـةَ للعباسـيِّينَ بمصـرَ، وهـم أكـرادٌ رَوَادِيَّـةٌ[1]، وكانوا فـي خدمةِ زنكـيٍّ[2] بن أبـي آق سـنقُر، ثـم فـي خدمـةِ نـورِ الدِّيـن الشَّـهيدِ محمـودٍ صاحـبِ الشَّـامِ، وهو الَّـذي أرسـلَهم إلى مصـرَ، فأوَّلُهم:

[النَّاصرُ صلاحُ الدِّينِ]

الملكُ النَّاصرُ صلاحُ الدِّينِ يوسفُ بنُ أيُّوبَ رحمَهُ اللهُ تعالى: قدِمَ معَ الملك نورِ الدِّينِ محمودِ بن زنكي لَمَّا كتبَ لهُ الخليفةُ المقتفِي العهدَ على البلادِ الشَّاميةِ والمصريَّةِ، ولقَّبه بالملكِ العادلِ، وأمرَهُ بالمسيرِ إلى مصرَ لَمَّا بلغَهُ ضعفُ الدَّولةِ الفاطميَّةِ، ففتَحَ محمودٌ بلاد الشَّامِ وانتزَعَها من أيدي الفِرَنجِ، ثم أرسلَ محمودٌ أسدَ الدِّينِ شيركوه في ألفَي فارسٍ ومعَهُ ابنُ أخيهِ صلاحُ الدِّينِ إلى مصرَ، فحاصرَها نحوَ شهرينِ، فاستنجَدَ صاحبُها بالفرنجِ، وكانَ أسدُ الدِّينِ قد ملكَ إسكندريةَ، واستنابَ عليها صلاحَ الدِّينِ، ثم ملكَ الصَّعيدَ، ثم صالحَهُ شاورُ وزيرُ العاضِدِ الفاطميِّ عن الإسكندريَّةِ بخمسِينَ ألفَ دينارٍ؛ فأجابَهُ لذلكَ، فتركَها وعادَ للشَّامِ، فاستحوذَ الفِرَنجُ على القاهرةِ بحيثُ كادوا يخرِجُونَ المسلمينَ منها، وأخذُوا مدينة بلبيسَ[3]، وقتلُوا وأسَرُوا.

---

(١) في (خ): «دوادية». والأكراد الرَّوادِيَّة: بطن من الهذبانية، وهي قبيلة كبيرة من الأكراد. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٧/ ١٣٩).

(٢) في (ش) و(خ): «تركي»، والصواب المثبت، كما في كثير من المصادر: منها: «مورد اللطافة» لابن تغري بردي (٢/ ٣).

(٣) بلبيس: مدينة قديمة، تتبع حاليًا لمحافظة الشَّرقيَّة في مصر. انظر: «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية» (٢/ ٢٣)

ثـمَّ رامـوا أخذَ القاهـرةِ، فأمرَ شـاورُ الوزيرُ بحرقِ مصـرَ، والنُّقلَةِ إلـى القاهرةِ، فالتهبتِ النَّارُ فيها أربعةً وخمسـينَ يومًا، فأرسَـلَ الخليفةُ العاضدُ الفاطميُّ يسـتغيثُ بنـورِ الدِّينِ علـى الفِرَنجِ، والتـزمَ له بثلثِ خَراجِ مصـرَ، فحضَرَ ومعهُ صـلاح الدِّينِ، فهـربَ الفِرَنـجُ لَمَّـا سـمِعُوا بوصولِـهِ، وقتَـلَ صـلاحُ الدِّيـنِ شـاورَ الوزيـرَ؛ لأنه هو الـذِي كانَ يمالـئ الفِرَنجَ على المسـلمِينَ، وأُقيمَ أسـدُ الدِّيـنِ مكانَهُ في الـوزارةِ، ثم مـاتَ بعـد شـهرينِ، فأقامَ العاضـدُ مقامَـهُ في الـوزارةِ صلاحَ الدِّيـنِ، ولقَّبَـهُ بالملكِ النَّاصـرِ، فقـامَ بالسَّـلطنةِ أتـمَّ قيـامٍ، وأجلَى الفِرنـجَ عـن أرضِ مصرَ، واسـتمرَّ وزيرًا للعاضدِ إلـى أن ماتَ.

فتولَّى صلاحُ الدِّينِ السَّلطنةَ، وصارَ لمصرَ أميرًا بعدَ أن كان وزيرًا، فاستولَّى على القصرِ وخزائنِهِ، فوجدَ فيه من الأموالِ ما لا يحصَى؛ من ذلكَ سبع مئةِ يتيمةٍ من الجواهرِ، وقضيبُ زمرُّدٍ طولُهُ أكثرُ من شبرٍ، وسمكُهُ نحو الإبهامِ، إلى غيرِ ذلك من خزائنِ الفواطِمِ، ووجدَ خِزانةَ كتبٍ ليسَ في الإسلامِ نظيرُها، تشتمِلُ على ألفي ألفِ مجلَّدٍ، منها بخطوطِ مُصنِّفِيها مئةُ ألفِ مجلَّدٍ.

ثم أخذَ صلاحُ الدِّينِ في نصرِ السُّنَّةِ وإشاعَةِ الحقِّ وإهانةِ المبتدعةِ، والانتقامِ من الرَّوافضِ وكانوا كثيرًا بأرضِ مصرَ، وعزلَ قضاةَ مصرَ كلَّها، لأنَّهم كانوا كلُّهم شيعةً، وقطَعَ الأذانَ بـ(حيَّ على خيرِ العملِ)، وخطبَ للعباسيِّينَ بعد أن مهَّدَها لهم أوَّلَ جمعةٍ في محرَّمٍ سنةَ سبعٍ وستِّينَ للمستضيءِ بأمرِ اللهِ، ففرحَ المسلمونَ بذلكَ، ووهَتِ البدعةُ، وصفَتِ الشَّريعةُ، وأرسَلَ الخليفةُ المستضيءُ الخِلَعَ والألويةَ لصلاحِ الدِّينِ، ولقَّبهُ بخليلِ أميرِ المؤمنينَ.

ثم تجرَّدَتْ همةُ صلاحِ الدِّينِ للفِرنجِ وغزوِهم، فكانَ من أمرِه معهُم ما ضاقَتْ

بِهِ التَّواريخُ، فمكَّنَهُ اللهُ من الكفَّارِ، ويسَّرَ لهُ فتوحَ البلادِ، ففتحَ بلادَ الشَّامِ كلَّها، واستَنقذَها من أيدِي الفِرَنجِ.

وفتحَ بيتَ المقدسِ يومَ الجمعةِ في الثَّالثِ والعشرين من رجبٍ، سنةَ ثلاثٍ وثمانينَ وخمس مئةٍ، بعدَ أن استولى الفرنجُ عليهِ وعلى الخليلِ إحدَى وتسعينَ سنةً، وهدَمَ ما أحدثوهُ من الكنائسِ، وبنى موضِعَ كنيسةٍ منها مدرسةً للشَّافعيةِ، ولم يهدمِ القُمامةَ اقتداءً بعمرَ رضيَ الله عنهُ، وبنى خانَقاه[1] سعيدِ السُّعداءِ[2] بالقاهرةِ في سنةِ ستٍّ وستِّينَ[3]، كانَت دارًا لسعيدِ السُّعداءِ الفاطميِّ، وكذلكَ القمحيَّةُ[4] والشَّريفيَّةُ[5] بمصرَ.

---

(١) الخانقاه: بقعة يسكنها أهل الصلاة والخير، والصوفية، والنون مفتوحة، معرب: فانه كاه، قال المقريزي: وقد حدثت في الإسلام في حدود الأربع مئة، وجعلت لمتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى. انظر: «تاج العروس» (مادة: خنق).

(٢) خانقاه سعيد السعداء: خانقاه مشهور، سكن فيه كثير من العلماء، ونسبوا إليه، كانت دارًا لرجل اسمه قنبر أو عنبر، ولقبه سعيد السعداء، عتيق المستنصر، ومن الذين خدموا في قصور الفاطميين، وكان له شأن في دولتهم، أنشأها صلاح الدين، وكان شيخها يلقب بشيخ الشيوخ. انظر: «المواعظ والاعتبار» للمقريزي (٤/ ٢٨٢).

(٣) في (خ): «وسبعين».

(٤) المدرسة القمحية: بجوار الجامع العتيق بمصر، كان موضعها يعرف بدار الغزل، وهو قيسارية يباع فيها الغزل، فهدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية، وهذه المدرسة أجل مدرسة للفقهاء المالكية، ويتحصل لهم من ضيعتهم التي بالفيوم قمح يفرّق فيهم، فلذلك صارت لا تعرف إلّا بالمدرسة القمحية. انظر: «المواعظ والاعتبار» للمقريزي (٤/ ٢٠١).

(٥) المدرسة الشريفية: بجوار جامع عمرو بن العاص وعرفت أخيراً بالمدرسة الشريفية، وهي أول مدرسة عمرت بمصر لإلقاء العلم. انظر: «اتعاظ الحنفا» للمقريزي (٣/ ٣١٩).

وبنى القلعةَ بالجبلِ، وبئرَ الحلزونِ، وسورَ بابِ الوزيرِ، والمدرسةَ الصَّلاحيةَ[١] بجوارِ الإمامِ الشَّافعيِّ رضي الله عنهُ، سنةَ تسعٍ وستِّينَ وخمس مئةٍ.

وقدَّمَ السَّادةَ الشافعيةَ على المذاهبِ، وبنى السُّورَ الأعظَمَ المحيطَ بالقاهرةِ سنةَ اثنين وسبعينَ، وسورَ بابِ البحرِ، وسورَ القلعةِ سنةَ ستٍّ وسبعينَ[٢] وخمس مئةٍ، وأبطَلَ المكوسَ والمظالمَ، وأخلَى ما بينَ الشَّامِ ومصرَ من الفِرَنجِ، ثمَّ افتتَحَ الحجازَ واليمَنَ، وتسلَّمَ دمشقَ بعد موتِ نورِ الدِّينِ، وحاصَرَ الموصلَ، فدخلَتْ تحتَ طاعتِهِ، وفتحَ عسكرُهُ طرابلسَ الغربِ وبرقةَ وتونسَ، وخطَبَ بها لبني العبَّاسِ، فصارَ سلطانَ مصرَ والشَّامِ والحجازِ واليمنِ والمغربِ.

وما زالَ في الجهادِ ونشرِ العدلِ وإبطالِ المظالمِ، وإجراءِ البرِّ والمعروفِ إلى أن توفَّاهُ اللهُ إلى رضوانِه، ولهُ الخيراتُ الكثيرةُ إلى يومنا[٣] هذا رحمَهُ الله تعالى؛ فلقَدْ[٤] كانَ إمامًا عادِلًا، وسُلطانًا كامِلًا، لم يَلِ مصرَ بعدَ الصَّحابةِ مثلُهُ، لا قبلَهُ ولا بعدَهُ، كانَ إذا قالَ صدَقَ، وإذا وعدَ وفا، وإذا عاهدَ لم يخُنْ، وكانَت مجالِسُهُ منزَّهَةً عن الهزوِ والهزلِ، ومحافِلُه حافلةً بأهلِ العلمِ والفضلِ، وكانَ مَنْ جالسَهُ لا يعلَمُ أنَّه جالَسَ سلطانًا لتواضُعِهِ.

---

(١) المدرسة الصلاحية: وتعرف بالناصرية أيضًا أنشأها السلطان صلاح الدين بالقرب من البيمارستان النوري، وسماها ابن قاضي شهبة بالنورية، منطمسة الأثر لم يعلم مكانها، وفي «تنبيه الطالب»: أن الذي بناها نور الدين زنكي ونسبت إلى صلاح الدين. انظر: «منادمة الأطلال» (ص١١٢، وص: ٢٢٦).
المدارس المسماة بالصلاحية ثلاثة: إحداها هذه، وثانيتها بالقدس، وثالثهما بالكلاسة قرب الأموي.

(٢) «وسور باب البحر وسور القلعة سنة ستٍّ وسبعين» من (خ).

(٣) «يومنا» من (ش).

(٤) في (ش): «ولقد».

حسَنَ العقيدَةِ، كثيرَ الذِّكرِ، محافِظًا على الصَّلواتِ في الجماعاتِ، وما وجبَتْ عليهِ الزَّكاةُ لأنَّ صدقةَ التَّطوعِ استغرقَتْ أموالَهُ كلَّها، وكانَ يحبُّ سماعَ القرآنِ، شديدَ الحياءِ، خاشِعَ الطَّرفِ، رقيقَ القلبِ، سريعَ الدَّمعةِ، راغبًا في سماعِ الحديثِ، ورحَلَ بولدَيهِ الأفضَلِ والعزيزِ لسماعِ الحديثِ من السِّلَفيِّ(1) بالإسكندريةِ، وهذا لم يُعهَدْ لسلطانٍ من زمنِ هارونَ الرَّشيدِ، فإنَّهُ رحلَ بولدَيهِ الأمينِ والمأمونِ لسماعِ «الموطَّأِ» من مالكٍ بالمدينةِ(2).

وكانتْ مدةُ سلطنةِ صلاحِ الدِّينِ نحوُ أربعةٍ وعشرينَ سنةً، وتوفِّيَ سابعَ عشرَ صفرٍ سنةَ تسعٍ وثمانينَ وخمس مئةٍ بمحروسةِ دمشقَ، وعمرُهُ سبعٌ وخمسونَ سنةً، وقبرُه بها ظاهرٌ يُزارُ.

ماتَ عن سبعةَ عشرَ ولدًا ذكرًا، ولم يخلِّف في خزائنِهِ من الدَّراهمِ والدَّنانيرِ سوى سبعةٍ وأربعينَ درهمًا لا غيرُ، لا مِلكًا ولا بستانًا ولا قريةً، فاللهُ تعالى يرحمُهُ، فلو لم يكُن له من الفضلِ في الدُّنيا إلَّا فتحُ بيتِ المقدسِ، وقطعُ دابرِ الرَّافضةِ الفاطميينَ من أرضِ مصرَ، لكان كافيًا لهُ عندَ اللهِ تعالى في رفعِ درجاته في الآخرةِ.

---

(1) أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد السِّلفي الأصبهاني: العلامة المحدث الحافظ، كتب تعاليق وأمالي كثيرة، وبنى له الامير العادل (وزير الظافر العبيدي) مدرسة في الإسكندرية، (سنة ٥٤٦هـ)، فأقام إلى أن توفي فيها، واشتهر بالإكثار من الشيوخ، وله مصنفات كثيرة. توفي سنة ست وسبعين وخمس مئة، وقد تجاوز من العمر مئة سنة. انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢١/ ٥ ـ ٢٩).

(2) في هامش (ش): هذه الصفات تدل على عدم النفاق؛ لما رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»، فرحم الله تعالى روحه، ونوّر ضريحه، هكذا تكون الملوك والسلاطين، ونعوذ بالله تعالى [من] الأبالسة والشياطين، ولله در ابن دريد حيث قال:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثًا حسنًا لمن روى

وقد قلتُ في ذلكَ:

لعمْـرِي رأيـتُ المـرءَ بعـدَ زَوالِـهِ ... حَدِيثًـا بمـا قـدْ كانَ يأتـي ويَصنَـعُ
فحَيـثُ الفَتـى لا بـدَّ يُذكَـرُ بعـدَهُ ... فذِكـراهُ بالحُسْـنَى أجـلُّ وأرفَـعُ

وكانَ رحمَهُ اللهُ يعتمِدُ في أمورِهِ ومملكَتِهِ على بهاءِ الدِّينِ قراقوشَ، وهو الَّذي قامَ في تدبيرِ الأمرِ لصلاحِ الدِّينِ، وبنى السُّورَ المحيطَ بالقاهرةِ ومصرَ وما بينَهُما، وله آثارٌ دالةٌ على علوِّ الهمَّةِ، والنَّاسُ تنسِبُ إليه الأشياءَ موضوعةً لا أصل لها عنهُ[١]، رحمَهُ اللهُ تعالى[٢].

[العزيز عثمان]

ثمَّ تولَّى الملكُ العزيزُ عثمانُ ولدُ صلاحِ الدِّينِ: وأُعطِيَتْ دمشقُ لأخيهِ الملكِ الأفضَلِ عليٍّ، وحلَبُ لأخيهِ الملكِ[٣] الظَّاهرِ غياثِ الدِّين غازي، فأقامَ عثمانُ خمسَ سنينَ وعشرةَ أشهرٍ، ووقَعَ له معَ إخوتِه أمورٌ يطولُ ذِكرُها لأنَّهُ كانَ أصغرَهم، وتوفِّيَ في المحرَّمِ سنةَ خمسٍ وتسعينَ وخمس مئةٍ، وعمرُه سبعٌ وعشرونَ سنةً، ودُفِنَ بدارِه بالقاهرةِ، ثمَّ نُقلَ لتربةِ الإمامِ الشافعيِّ قبل بناءِ القُبَّةِ.

---

(١) «عنه» من (ش).

(٢) قراقوش: أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، الملقب بهاء الدين، كان خادم صلاح الدين، وقيل: خادم أسد الدين شيركوه، كان رجلًا مسعوّدا وصاحب همة عالية، وقراقوش لفظ تركي تفسيره بالعربي: العقاب، الطائر المعروف
وللأسعد بن مماتي كراس سماه «الفاشوش في أحكام قراقوش» فيه أشياء مكذوبة عليه، وما كان صلاح الدين ليستنيبه لولا وثوقه بعقله ومعرفته. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ٩١)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (١٢/ ١١١٨).

(٣) «الأفضل علي وحلب لأخيه الملك» من (ش).

وكانَت سيرَتُه حسنةً.

جاءهُ رجلٌ يسعَى في قضاءِ الصَّعيدِ بمالٍ، فقالَ: واللهِ لا أبيعُ دماءَ المسلمينَ وأموالَهُم بملكِ الأرضِ. وسعى آخرُ في قضاءِ إسكندريةَ بأربعينَ ألفِ دينارٍ وحملَها إليهِ، فلم يقبَلْها.

[المنصورُ محمَّدٌ]

ثم تولَّى الملُك المنصورُ محمَّدٌ: ولدُ عثمانَ، وعمرُهُ تسعُ سنينَ، فأقامَ سنةً واحدةً وشهرينِ، وعُزِلَ لصغرهِ في حادِي عشرَ شوَّالٍ سنةَ ستٍّ وتسعينَ وخمس مئةٍ.

وكانَ الكلامُ للعادلِ عمِّ أبيهِ صاحبِ الموصِلِ، ووقعَ له معَهُ أمورٌ كثيرةٌ، وحاصلُهُ أنَّ العادِلَ خلعَ المنصورَ وتسلطَنَ عوضَهُ بعدَ أن جمَعَ الفقهاءَ وقالَ لهم: هل تجوزُ ولايةُ الصَّغيرِ؟ فقالوا: الصَّغيرُ مولًّى عليه، فقالَ: أتجوزُ نيابةُ الكبيرِ عنهُ؟ فقالوا: لا، لأنَّ الولايةَ من الأصلِ إذا كانَتْ غيرَ صحيحةٍ فكيفَ تصحُّ النيابةُ؟! فخلَعَهُ حينئذٍ، وتسلطَنَ مكانَهُ كما تقدَّمَ[1].

[العادِلُ سيفُ الدِّينِ]

ثمَّ تولى الملكُ العادِلُ سيفُ الدِّينِ أبو بكرِ بنُ أيُّوبَ: وكانَ يُدعَى له ولولدِه الكاملِ معَهُ في الخطبةِ، إلى أن توفِّيَ في[2] سابعِ جمادى الآخرةِ سنةَ خمسَ عشرةَ وست مئةٍ، فكانَت مدَّتهُ نحو تسعةَ عشرَ سنةً.

وكانَ مسعودًا في حركاتهِ، وكان يصيِّفُ بالشَّامِ ويُشتِّي في مصرَ، وكانَ

---

(١) «وتسلطن مكانه كما تقدم» من (خ).

(٢) «في» من (ش).

أكولًا يأكُلُ وحدَهُ خروفًا مشويًّا، ماتَ بالشَّامِ، فصبَرَهُ[١] ولدُهُ، ثمَّ حملَهُ لدمشقَ، فدفنَهُ بالقلعةِ.

وكانَ قد قسَمَ البلادَ بينَ أولادِهِ فجعلَ مصرَ للكاملِ محمَّدٍ، ودمشقَ للمعظَّمِ عيسى، وديارَ بكرٍ وممالكَ الشَّرقِ للأشرفِ موسَى، وباقي أولادِهِ كلُّ واحدٍ في مملكَةٍ.

وكانَ ملِكًا عظِيمًا ذا رأيٍ ومعرفَةٍ تامَّةٍ، قد حنَّكتهُ التَّجاربُ، حسَنَ السِّيرةِ، جميلَ الطَّويَّةِ، وافرَ العقلِ، حازِمًا صالِحًا، محافِظًا على الصَّلواتِ في أوقاتها، متَّبِعًا لأربابِ السُّنَّةِ، مائلًا للعلماءِ، صنَّفَ له الإمامُ فخرُ الدِّينِ الرَّازيُّ كتابَ «تأسيسِ التَّقديسِ»[٢]، وسيَّرَهُ إليه من بلادِ خراسانَ.

وفي أيَّامِهِ سنةَ سبعٍ وتسعينَ وخمس مئةٍ وقعَ غلاءٌ عظيمٌ، بحيثُ هربَ النَّاسُ للحجازِ واليمنِ والشَّامِ والمغربِ، وكانَ الرَّجلُ يذبَحُ ولدَهُ وتساعِدُهُ أمُّهُ على طبخِهِ وشيِّهِ، وأحرقَ السُّلطانُ جماعةً فعلُوا ذلك ولم ينتَهوا، وكانَ الرَّجلُ يدعو صديقَهُ ليُضيِّفَه، فيذبَحُه ويأكُلُه، وامتلأتِ الطُّرقاتُ برمَمِ الموتَى بحيثُ كفَّنَ السلطانُ في مدَّةٍ يسيرةٍ مئتي ألفٍ وعشرين ألفًا، وهلكَ أهلُ القرى قاطبةً بحيثُ إن المسافرَ يمرُّ بالقريةِ فيجِدُ أهلَها كلَّهم موتى، وبيعَ الرَّغيفُ بألفِ دينارٍ[٣].

---

(١) المراد: لم يدفنه، فأصل الصبر: الحبس، وكل من حبس شيئًا، فقد صبره. انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (١/ ٢٥٤).

(٢) في (ش): «التقدير». وكتاب «تأسيس التقديس» في الكلام لفخر الدين الرازي، وذكر اسم الملك العادل في خطبة الكتاب. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٥/ ٧٦)، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة (١/ ٣٣٣).

(٣) انظر: «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (٢٢/ ٩٠)، و«النجوم الزاهرة» لابن تغري بردى (٦/ ١٧٣).

وفي أيَّامِهِ سنةَ تسعٍ وتسعينَ وخمس مئةٍ ماجتِ النُّجومُ في السَّماءِ شرقًا وغربًا، وتطايرَت كالجرادِ المنتَشرِ يمينًا وشمالًا، واستمرَّ ذلك إلى طلوعِ الفجرِ(١).

وفي سنةِ تسعٍ وتسعين أيضًا خرجَ أهلُ مكَّةَ على عادِتهم لعمرةٍ في سابعَ عشرَ رجبٍ، وكانَ ملوكُها يومئذٍ طائفةً من بني حسنٍ يقالُ لهم: الهواشِمُ، فاغتنَمَ الفرصةَ في ذلك اليومِ الشَّريفُ قَتادةُ بنُ إدريسَ صاحبُ اليَنبُعِ جدُّ حكَّامِ أشرافِ مكَّةَ الآنَ، ودخلَ مكَّةَ بجنودِه، وكانَت يومئذٍ مسوَّرةً، وتمكَّنَ قتادةُ منها، واستمرَّت بيدِه ويدِ ذُريتِهِ إلى يومنا هذا، ومضى أولئكَ لليمنِ.

وفي سنةِ أربعٍ وست مئةٍ انتقلَتِ السَّلطنةُ من دار الوزارةِ بالدَّربِ الأصفرِ إلى القلعةِ بالجبلِ، فأوَّلُ من سكَنها الكاملُ نائبًا عن أبيهِ إحدى عشرَ سنةً.

[الكاملُ محمَّد]

ثم تولَّى الملكُ الكاملُ محمَّدٌ: ولدُ العادِلِ، أبو الفتحِ، ناصرُ الدِّينِ، فأقامَ عشرينَ سنةً وشهرينِ، وتوفِّي في رجبٍ سنةَ خمسٍ وثلاثينَ وستِّ مئةٍ بدمشقَ.

قالَ الذَّهبيُّ: تملَّكَ الكاملُ مصرَ نحو أربعينَ سنةً شطرُها في حياةِ أبيهِ(٢)، وهو الذي عمَّرَ قبَّةَ الإمامِ الشَّافعيِّ، وأجرى إليها الماءَ من بركةِ الحبشِ، والمدرسةَ بينَ القصرَينِ المعروفةَ بالكامليَّةِ، وهي دارُ الحديثِ، سنةَ إحدى وعشرينَ وست مئةٍ(٣).

ولهُ الأوقافُ الجزيلةُ على أنواعِ البرِّ، وله المواقفُ المشهورَةُ بدمياطَ،

---

(١) انظر: «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (٢٢/ ١٢٧).

(٢) «شطرها في حياة أبيه» من (خ).

(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٢/ ١٢٨).

وانتزَعها من أيدي الفِرَنجِ بعد أن استولَوا عليها وجعلُوا جامِعَها كنيسةً، وحضرَ لنُصرتِهِ أخواهُ: المعظَّمُ عيسَى، والأشرفُ موسَى، وبالَغا في خِدمتِهِ، وأنشدَ[1] بعضُ الشُّعراءِ قصيدةً، وفيها يقولُ[2]:

أَعُبَّادَ عِيسَى إن عِيسَى بزعمِكُم ومُوسَى جَمِيعًا يخْدمانِ محَمَّدا[3]

وأرسلَ إليهِ الخليفَةُ المستنصرُ باللهِ بكتابٍ عظيمٍ فيهِ تقليدُه الملكَ معَ يوسفَ ابنِ الشَّيخِ أبي الفرجِ ابن الجوزيِّ، فاستولى على البلادِ، واتَّسعَت لهُ المملكَةُ، حتى قالَ خطيبُ مكَّةَ عندَ الدُّعاءِ لهُ: سلطانُ مكةَ وعَبِيدِها، واليمَنِ وزَبِيدها، ومصرَ وصَعيدِها، والشَّامِ وصَنادِيدها، والجزيرَةِ ووليدِها.

وكانَ معظِّمًا للسُّنَّةِ وأهلِها، وشهِدَ في حادثةٍ عندَ قاضيهِ ابنِ عينِ الدَّولةِ[4]، فردَّ شهادَتهُ وقالَ: كيفَ أقبَلُكَ وعجِيبةُ المغنِّيةُ تطلُعُ إليكَ بجنكِها[5]، فشتَمَ القاضي، فعزَلَ القاضي نفسَهُ، فقالَ الوزيرُ: منَ الرَّأي عودُهُ؛ لئلا يقالَ: لأيِّ شيءٍ عزلَ القاضي نفسَهُ؟ وتتطيَّرَ الأخبارُ إلى بغدادَ، ويشيعَ أمرُ عجيبةَ، فأعادَهُ[6].

---

(١) في (ش): «وأنشده».

(٢) «يقول» من (ش).

(٣) البيت لشرف الدين راجح الحلي من قصيدة يمدح فيها الكامل. انظر: «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (٢٢/ ٢٥٩)، و«العبر» للذهبي (٣/ ١٧٧)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١/ ١٦٠).

(٤) ابن عين الدولة: قاضي القضاة شرف الدين أبو المكارم محمد الصفراوي الإسكندراني، ثم المصري، الشافعي، وله فقه وفضائل ونظم ونثر مع العفة والنزاهة، مات في ذي القعدة، سنة تسع وثلاثين وستمئة. انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٣/ ١٠٥).

(٥) الجنك: آلة يضرب بها كالعود، معرب. انظر: «تاج العروس» (مادة: جنك).

(٦) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٨/ ٦٥)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ١٦١).

[العادل أبو بكر]

ثم تولَّى الملكُ العادِلُ أبو بكرٍ: ولَدُ الكامِلِ، وعمرُهُ نحو ثماني عشرةَ سنةً، فأقامَ سنةً وشهرينِ وأيَّامًا، وقيلَ: أكثرَ، وكانَ أخوهُ الصَّالحُ أكبرَ منهُ، وكانَ ببلادِ المشرِقِ، فتحرَّكَ طالِبًا للسَّلطنةِ منهُ، فقهَرَهُ بعدَ حروبٍ، وخلعَهُ وسجنَهُ، سنةَ سبعٍ وثلاثينَ وستِّ مئةٍ، وقتلَهُ بعدَ ذلكَ.

وفي هذهِ السَّنةِ أوفى النِّيلُ في خامسَ عشرَ أبيبَ[1]، ولم يقَع مثلُهُ.

[الصالح أيوب نجم الدين]

ثم تولَّى الملكُ الصَّالحُ أيُّوبُ نجمُ الدِّينِ: أخوهُ، ابنُ الملكِ الكاملِ، فأقامَ تسعَ سنينَ وعشرةَ أشهرٍ وأيَّامًا، إلى أن توفِّيَ بالمنصورةِ[2] في حربهِ مع الفِرَنجِ، في نصفِ شعبانَ، سنةَ سبعٍ وأربعينَ وستِّ مئةٍ، وحُمِلَ من المنصورةِ إلى القاهرةِ، ودفِنَ بقُبَّةٍ بُنِيت لهُ بجوارِ المدرستَينِ بخطِّ بينَ القصرَينِ[3]، وجرَت لهُ

---

(١) أبيب: هو الشهر الحادي عشر من السنة القبطية. انظر: «دائرة معارف القرن العشرين» محمد فريد وجدي (١/ ٣٨).

(٢) المنصورة: يوجد عدة مواضع بهذا الاسم، والمراد هنا: المنصورة في مصر، بلدة أنشأها الملك الكامل ابن الملك العادل بن أيوب بين دمياط والقاهرة، ورابط بها في وجه الإفرنج لما ملكوا دمياط، وذلك في سنة ٦١٦، ولم يزل بها في عساكر حتى استنقذ دمياط. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٥/ ٢١٢).

وحاليًا المنصورة مدينة هي عاصمة الدقهلية في مصر. انظر: «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية» لمحمد رمزي (٢/ ٢٦).

(٣) خط بين القصرين: هذا الخط أعمر أخطاط القاهرة وأنزهها، وقد كان في الدولة الفاطمية فضاء كبيرًا وبراحًا واسعًا، فلما نزل بها أمراء الدولة الأيوبية وغيروا معالمها، صار هذا الموضع سوقًا مبتذلًا بعد ما كان ملاذًا مبجَّلًا، وقعد فيه الباعة بأصناف المأكولات، فصار متنزَّهًا تمرُّ فيه أعيان =

مـعَ الفِرَنجِ حـروبٌ يطولُ ذكرُهـا، وأخذَتِ الفرنجُ دميـاطَ في مرضِ موتـهِ، وأخفَتهُ شـجرَةُ درٍّ إلـى أن أرسـلَت إلـى ولـدِهِ المعـزِّ[1] خوفًـا علـى المسـلِمينَ، وساسـتِ النَّاسَ أحسـنَ سياسـةٍ.

والصَّالحُ هذا هو الذي بنى قلعَةَ الرَّوضةِ، وأقامَ بها جُندًا ألفًا من مماليكِهِ، سمَّاهم البحريَّةَ، وبنى قنطرَةَ السَّدِّ، والمدرستَينِ بينَ القصرَينِ سنةَ تسعٍ وثلاثينَ وستِّ مئةٍ.

وكانَ ملكًا مُهابًا[2]، عزيزَ النَّفسِ، طاهرَ اللِّسانِ والذَّيلِ، لا يرى الهزلَ والعبثَ، شديدَ الوقارِ، كثيرَ التحيُّلِ والغضَبِ والمؤاخذَةِ والسَّطوةِ والتجبُّرِ، ذا مهابةٍ عظيمَةٍ، وهمَّةٍ عاليةٍ، وآمالٍ بعيدةٍ، بحيثُ حدَّثته نفسُه بالاستيلاءِ على الدُّنيا بأسرِها والتغلُّبِ على الممالكِ، وانتزاعِها من يدِ ملوكِها.

وفـي أيَّامِـهِ قـدِمَ الشَّـيخُ عـزُّ الدِّيـن بـنُ عبـدِ السَّـلامِ[3] إلـى مصـرَ، وتولَّـى القضـاءَ، فأمـرَ ببيعِ الأمـراءِ وأكابـرِ الدَّولَةِ مُحتجًّـا بأنَّهُ لـم يثبُت حريَّتُهـم، فراجعَهُ السُّـلطانُ فـي ذلـك بالملاطفَـةِ، فصمَّمَ علـى بيعِهم، فغضِـبَ نائبُ السَّـلطنةِ وأتى

= الناس وأماثلهم في الليل مشاة، لرؤية ما هناك من السرج والقناديل الخارجة عن الحدّ في الكثرة، وكانت تعقد فيه عدّة حلق لقراءة السير والأخبار وإنشاد الأشعار، والتفنن في أنواع اللعب واللهو، فيصير مجمعا لا يمكن حكاية وصفه. انظر: «المواعظ والاعتبار» للمقريزي (٣/ ٥٣).

(١) «إلى أن أرسلت إلى ولده المعزِّ» من (ش).

(٢) في (ش): «مهيبًا».

(٣) العز بن عبد السلام: عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم، أبو محمد عز الدين السلمي الدمشقي الشافعي الإمام الفقيه، برع في الفقه والأصول، ودرس وأفتى وصنَّف، وبلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب، مع الزهد والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصلابة في الدين، توفي سنة ستين وست مئة. انظر: «ذيل مرآة الزمان» لليونيني (٢/ ١٧٤)، و«العبر» للذهبي (٣/ ٢٩٩).

فـي عسـكَرِه لبيتِ الشَّـيخِ مُجـرِّدًا سـيفَهُ ليقتُلَـهُ، فلمَّا وقعَ بصرُ الشَّـيخِ عليـهِ دُهِشَ ويبسَـتْ يـدُهُ، وبُهـتَ الحاضِـرونَ، حتـى تابُـوا واشـترَوا أنفُسَـهم بأعلـى[1] ثمـنٍ لبيتِ المـالِ[2].

وله معَ الملكِ الصَّالحِ وقائعُ، وتركَ بعدَ ذلكَ جميعَ المناصبِ والولاياتِ، فكانَ يحضُرُ السَّماعَ ويرقصُ رحمَهُ اللهُ تعالى.

[المعظَّمُ توران شاه]

ثمَّ تولَّى الملِكُ المعظَّمُ توران شاه: ولَدُ الصالحِ، أُحضِرَ من حصنِ كَيْفا[3]، بديارِ بكرٍ[4]، ودخلَ المنصورَةَ، سابعَ عشرَ ذي القعدَةِ، تسلطَنَ بعدَ موتِ أبيه بأربعةِ أشهرٍ، وقاتلَ الفِرنجَ وكسرَهم، وقتَلَ منهم ثلاثين ألفًا، وكانَ في عسكَرِه الشَّيخُ عزُّ الدِّينِ بنُ عبدِ السَّلامِ، وكانَتِ النُّصرةُ للفرنجِ، فقالَ: يا ريحُ خُذِيهم، عدَّةَ مرارٍ، فعادَتِ الرِّيحُ على مراكبِ الفِرَنجِ فكسرَتها وغرِقَ أكثَرُهم[5].

ثم بعدَ ذلكَ أخذَ يتوعَّدُ شجرةَ الدُّرِّ بالمصادرةِ، ويهدِّدُ مماليكَ أبيهِ بالقتلِ،

---

(١) في (ش): «بأغلى».

(٢) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٨/ ٢١٦).

وذكر نحو هذه القصة الصفدي في «الوافي بالوفيات» (١٨/ ٣١٩) قال: ويقال: إنه لما حضر بيعة الملك الظاهر، قال له: يا ركن الدين، أنا أعرفك مملوك البندقدار، فما بايعه حتى جاء من شهد له بالخروج عن رقِّه إلى رق الملك الصالح وعتقه.

(٣) حصن كَيْفا: ويقال: كيبا، ولعلها أرمنية، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ٢٦٥).

(٤) ديارُ بَكْرٍ: هي بلاد كبيرة واسعة، تنسب إلى بكر بن وائل، وحدّها ما غرّب من دجلة إلى بلاد الجبل المطلّ على نصيبين إلى دجلة. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ٢٦٥).

(٥) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٨/ ٢١٦).

فعندَ ذلكَ قتَلَ العسكرُ الملكَ المعظَّمَ بعدَ شهرَينِ، وداسُوهُ بأرجُلِهِم رحمَهُ اللهُ، وقيلَ: ملَكَ دونَ شهرَينِ، واللهُ أعلَمُ.

[شجرَةُ الدرِّ]

ثم تولَّتْ شجرَةُ الدرِّ: والدَةُ خليلٍ، سُرِّيَّةُ الملكِ الصَّالحِ، لحسنِ سيرَتها(١)، وجودَةِ تَدبِيرها، وكان يُدعَى لها على المنابرِ بعدَ الخليفَةِ، ويقولُونَ: اللهُمَّ احفظِ الجهةَ الصَّالحةَ ملكَةَ المسلمِينَ، وعصمةَ(٢) الدُّنيا والدِّينِ أمَّ خليلٍ.

وكانَتْ خيِّرةً ديِّنةً، رئيسةً، عظيمةً في النُّفوسِ، ولها مآثرُ وأوقافٌ على وجوهِ البرِّ، فأقامَتْ ثلاثةَ أشهرٍ إلى أن خلعَتْ نفسَها في ربيعٍ الآخرةِ سنةَ ثمانٍ وأربعينَ وستِّ مئةٍ.

وكانَ الخليفةُ المستعصِمُ أرسَلَ يعاتِبُ أهل مصرَ في تولِيَتها، وقالَ: إن كانَ ما بقِيَ عندَكم رجلٌ تولُّونَهُ، فقولُوا لنا نُرسِل إليكُم رجلًا تولُّونَه.

وما أحسَنَ ما قيلَ:

وَلَو أنَّ النسَاءَ كمَن ذكَرْنا ... لفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجالِ
فلا التَّأنيثُ لاسمِ الشَّمسِ عيبٌ ... ولا التذكِيرُ فخرٌ للهلالِ(٣)

---

(١) «سيرتها» من (خ).

(٢) في (ش): «وعصبة».

(٣) بيتا الشعر من (خ). وهما للمتنبي يرثي أم سيف الدولة، إلا أن الشطر الأول:

ولو كان النساء كمن فقدنا

انظر: «الحماسة المغربية» (٢/ ٨٦٦)، «نهاية الأرب» للنويري (٥/ ٢٢٠).

[الأشرفُ موسَى]

ثـم تولَّـى الملـكُ الأشـرفُ موسَـى: جـدُّهُ الملـكُ[1] الكامـلُ، وعمـرُهُ نحـوُ ثمـانِ سـنينَ، بجمادَى الأولى سـنةَ ثمـانٍ وأربعيـنَ، وكانَ يُخطَبُ لـه وللمُعزِّ أيبكَ التُّركمانـي معًـا علـى المنابـرِ، لأنَّـه كانَ تولَّـى قبلَهُ بخمسَـةِ أيامٍ، ثـمَّ خلعَـهُ المعزُّ عـامَ اثنيـن وخمسِـينَ وسـت مئةٍ.

وفـي سـنةِ خلعِـهِ ظهرَت نـارٌ فـي أرضِ عـدنٍ، وكانَ يطيرُ شـرَرُها فـي اللَّيلِ إلـى البحـرِ، ويصعَـدُ منهـا دخانٌ عظيـمٌ فـي النَّهارِ.

وكانَ هـو آخـرَ الدَّولـةِ الكرديَّـةِ، جملـةُ مـدَّةِ ولايتِهم إحـدى وثمانونَ سـنةً، رحمَـهُ الله تعالى.

***

---

(١) «الملك» من (ش).

[الدَّولة التُّركيَّة]

ثم جاءَتِ الدَّولةُ التُّركيَّةُ مماليكُ الدَّولةِ الكردِيَّةِ، وذلكَ في حدودِ خمسينَ وستِّ مئةٍ، فأوَّلُهم:

[المعزُّ أيبك التُّركماني]

الملكُ المعزُّ عزُّ الدِّينِ أيبَكُ التركمانيُّ الصَّالحُ: فأقامَ نحو ستِّ سنينَ، وتزوَّجَ شجرةَ الدُّرِّ، ثم خطَبَ بنتَ صاحبِ الموصِلِ، فغارَت شجرَةُ الدرِّ، فقتلَتهُ في ربيعِ الأولِ سنةَ خمسٍ وخمسينَ وستِّ مئةٍ، ثم حدَثت[١] أمورٌ أدَّت إلى قتلِها، فقُتِلَت بأيدي مماليكِ المعزِّ.

وهو الذي بنى المدرسَةَ المعزِّيةَ برحبةِ الحناءِ، وكان قد استوزرَ الأسعدَ هبةَ اللهِ، كانَ نصرانيًّا فأسلَمَ، فأحدثَ ما أماتَهُ صلاحُ الدِّينِ من المكوسِ والمظالمِ، فكانَ شؤمًا على التركِ[٢] حيثُ عدلُوا عن وزارةِ العلماءِ إلى وزارةِ القبطِ.

وفي أيَّامِهِ ظهرَت النَّارُ بالمدينةِ المنوَّرةِ ولها دويٌّ عظيمٌ، وصارَتِ الجبالُ تسيلُ نارًا، وسارَت هكَذا وهكَذا كأنها الجبالُ، وطارَ منها شررٌ كالقصرِ، إلى أن أُبصِرَ ضَوؤها من البلادِ جميعِها، واستمرَّتْ[٣] أكثرَ من شهرٍ، وأحرقتِ المسجدَ النَّبويَّ بجميعِ ما فيهِ من منبرٍ وشبابيكَ وخزائنَ وغيرِها، وهي الَّتي أخبرَنا بها النبيُّ ﷺ حيثُ قالَ: «لا تقومُ السَّاعةُ حتى تخرُجَ نارٌ من أرضِ الحجازِ تضيءُ لها أعناقُ الإبلِ في ضوئِها»[٤].

---

(١) في (ش): «أحدثت».

(٢) في (ش): «الأتراك».

(٣) في (ش): «فاستمرت».

(٤) رواه البخاري (٧١١٨)، ومسلم (٢٩٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «لا تقوم =

[المنصورُ عليٌّ]

ثم تولَّى الملكُ المنصورُ عليٌّ: ولدُ المعزِّ، وعمرُه نحوُ[١] خمسَ عشرةَ سنةً، فأقامَ سنتَين وثمانيةَ أشهرٍ، ثم حبِسَ بأمرِ قطزَ المعزيِّ لصغَرِه وعدَمِ صلاحيَتِه لقتالِ التَّتارِ سنةَ سبعٍ وخمسين وستِّ مئةٍ.

وفيها أخذَ التَّتارُ بغدادَ بمكيدةِ الوزيرِ ابن العلقمِيِّ الرَّافضيِّ، وقُتلَ الخليفةُ المستعصِمُ، ولم يُدفَن بل ذهَبَ تحتَ حوافرِ الخيلِ، وقتلَ معه فوقَ ألفَي ألفٍ، واستمرَّ القتلُ ببغدادَ نحوَ[٢] أربعينَ يومًا، وانعدمَت[٣] الخلافةُ الإسلاميَّةُ منها، وأقامَ النَّاسُ بلا خليفةٍ ثلاثَ سنينَ ونصفَ سنةٍ إلى أيامِ الملكِ الظَّاهرِ بيبرسَ، ثم رامَ التَّتارُ أخذَ الشامِ ومصرَ، ولهم حكاياتٌ وأخبارٌ يطولُ شرحُها[٤].

[المظفر قطز]

ثم تولَّى الملكُ المظفَّرُ قُطُزُ المعزِّيُّ: فأقامَ إحدى عشرَ شهرًا[٥] وسبعةَ عشرَ يومًا، والتَّتارُ قد أقبلُوا إلى حلبَ وبذلُوا السَّيفَ فيها، ثمَّ إلى دمشقَ، ووصلَتْ غاراتُهم إلى غزَّةَ، وظهرَ دينُ النَّصرانيَّةِ للشَّامِ، وذلَّ الإسلامُ[٦]، فلقِيَهم الملكُ المظفَّرُ بعينِ جالوت ومعهُ العساكرُ الشَّاميةُ والمصريَّةُ، وكانت وقعةً عظيمةً فكسَرَ

= الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى».

(١) «نحو» من (ش).

(٢) «نحو» من (خ).

(٣) في (خ): «وعدمت».

(٤) في (ش): «أخبار وحكايات تطول».

(٥) «إحدى عشر شهرًا» من (خ).

(٦) «وظهر دين النصرانيَّة للشام، وذلَّ الإسلام» من (خ).

جيشَ التَّتارِ، وهزمَهم شرَّ هزيمةٍ، ففرحَ المسلمونَ بذلكَ غايةَ الفرحِ، وأحبَّ النَّاسُ الملكَ المظفَّرَ غايةَ المحبةِ.

ثم قُتِلَ بالطَّريقِ بمكيدةِ الظَّاهرِ بيبرسَ ليتولَّى مكانَهُ، ودفنَ بالقصيرِ من أرضِ الشَّامِ، في خامسَ عشرَ ذي القعدَةِ، سنةَ ثمانٍ وخمسينَ وستِّ مئةٍ رحمَهُ اللهُ، وعظُمَ على النَّاسِ قتلُهُ لأنَّه نصرَ الإسلامَ، وفيهِ قيلَ:

غَلَبَ التَّتارُ عَلَى البِلادِ فجَاءَهم ... مِن مصْرَ تركِيٌّ يجودُ بنفسِهِ
بالشَّامِ أهلكَهُم وبدَّدَ شملَهُم ... ولكِلِّ شيءٍ آفةٌ من جنسِهِ[(١)]

وكانَ بطلًا شجاعًا مِقدَامًا حازِمًا حسَنَ التَّدبيرِ، عارفًا[(٢)]، وكانَ قبلَ خروجِهِ لقتالِ التَّتارِ طلَبَ الشَّيخَ عزَّ الدِّينِ بنَ عبد السَّلامِ بحضرَةِ الملكِ الظَّاهرِ بيبرسَ، والملكِ المنصورِ قلاوونَ، وغيرِهما من الأمراءِ، وحادَثَهُ في الخروجِ إلى لقاءِ التَّتارِ، فقالَ لهُ: اخرجُ وأنا أضمَنُ لكَ على اللهِ النَّصرَ، فقالَ: إن المالَ في خزائني قليلٌ، وأريدُ الاقتراضَ من التُّجارِ، فقالَ: إذا أحضرْتَ أنتَ وجميعُ العسكَرِ كلَّ ما[(٣)] في بيوتِكُم وعلى نسائكُم من الحليِّ الذَّهبِ والفضَّةِ[(٤)]، وضربتَهُ على السِّكَّةِ، وأنفقتَهُ في الجيشِ، وقصَّرَ عنِ القيامِ بكلفَتهم، فأنا أسألُ اللهَ لكُم في إظهارِ كنزٍ من الكنوزِ يكفيكُم ويفضُلُ عنكُم، وأمَّا أنَّكُم تأخذُونَ من[(٥)]

---

(١) بيتا الشعر من (خ). وهما للشيخ شهاب الدين أبو شامة. انظر: «ذيل مرآة الزمان» لليونيني (١/ ٣٦٧)، «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردى (٧/ ٨٢).

(٢) «وكانَ بطلاً شجاعًا مقدامًا حازمًا حسن التدبير، عارفًا» من (ش).

(٣) في (ش): «وكلَّ شيء كان».

(٤) في (ش): «الحرام».

(٥) «من» من (خ).

أمـوالِ المسـلمينَ، وتخرُجـونَ إلى لقـاءِ العـدوِّ، وعليكُم المحرَّمـاتِ مِـنَ الأطرزَةِ المزركشَـةِ، والمناطـقِ المحرَّمـةِ، وتطلُبـونَ مـن اللهِ النُّصـرةَ، فهـذا لا سـبيلَ إليـهِ، فوافَقُـوه وأخرَجُـوا مـا عندَهـم، ففرَّقَـهُ، وكفَـى[١]، وخرجُـوا وانتصـرُوا كما مـرَّ[٢]، وذلـكَ ببركـةِ التَّحلِّـي بالعبـادةِ والطَّاعـةِ والتَّخلِّي عـن المعصيةِ.

ولهذا أمراءُ زماننا هذا معَ كثرةِ عَددِهم وعُددِهم لا تراهم فَعلُوا في الجهادِ فضيلةً يخلِّدونَ لهم بها ذكرًا، ولو تركُوا المحرَّماتِ لَرَفعَ اللهُ لهم قدرًا وأشدَّ لهم أزرًا، وكانوا يملكُون من بلادِ العدوِّ ما يفوقُ العَدَّ حصرًا، ولو لم يكُن إلَّا أنَّهم يؤذُونَ الرَّعايا في مسِيرِهم[٣] ومصيرِهم لكانَ كافيًا في الخذلانِ وسوءِ الحِرمانِ، وعن ذلكَ يُسألُ مولانا السُّلطانُ.

[الظَّاهر بيبرس]

ثـم تولَّى الملـكُ الظَّاهرُ، ركنُ الدُّنيـا والدِّين، بيبـرسُ العلائـيُّ البُنْدُقْداريُّ[٤] الصَّالحـيُّ، صاحبُ الفتوحاتِ، فأقامَ سـبعَ عشـرةَ سـنةً وشـهرين ونصفًـا، وتوفِّيَ بالقصرِ بدمشـقَ، سـابعَ عشـرَ محرَّمٍ، سنةَ ستٍّ وسـبعينَ وسـتِّ مئةٍ، وقبرُهُ بدمشقَ ظاهـرٌ يُزارُ.

---

(١) في (ش): «وكفاهم».

(٢) انظر: «تاريخ الخلفاء» (ص٣٣٤)، و«حسن المحاضرة» (٢/ ٣٨) كلاهما للسيوطي.

(٣) في (ش): «سيرهم».

(٤) البندقدار: هو الذي يحمل جراوة ـ أي: آلة من جلد يجعل فيها البندق الطين الذي يرمى به عن القوس ـ البندق خلف السلطان أو الأمير، وهو مركّب من لفظتين فارسيتين؛ إحداهما (بندق)، واللفظة الثانية (دار) ومعناها ممسك، فيكون المعنى ممسك البندق. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٥/ ٤٣١).

وكانَ ملكًا شُجاعًا مِقدامًا غازِيًا مُجاهِدًا مُرابطًا سريعَ الحركةِ يباشِرُ الحروبَ بنفسِهِ، له الوقعاتُ الهائلةُ معَ الفِرَنجِ، ثم التَّتارِ[١].

وهو الذي بنى المدرسَةَ بالقاهرةِ تجاهَ البيمارِستانِ، عامَ اثنينِ وستِّينَ وستِّ مئةٍ، والجامعَ الكبيرَ بالحُسينيةِ سنةَ خمسٍ وستِّينَ وستِّ مئةٍ، وتمَّ في سنةِ سبعٍ، وقناطرَ[٢] أبو منجا بالقليوبيَّةِ، وقناطِرَ السِّباعِ بطريقِ مصرَ، وغيرِ ذلكَ من قلاعٍ وحصونٍ وقناطِرَ وخاناتٍ بالشَّامِ وغيرِها.

وهو الَّذي أكمَلَ عمارةَ المسجِدِ النَّبويِّ من الحريقِ، وحجَّ سنةَ سبعٍ وستِّينَ، فغسَلَ[٣] الكعبةَ بيدِهِ بماءِ الوردِ.

وله فتوحاتٌ كثيرةٌ، فتحَ النُّوبةَ[٤] ودنقلَةَ[٥]، ولم تُفتَحْ قبلَ ذلك في الإسلامِ معَ غزوِ كثيرٍ من الخلفاءِ والسَّلاطين لها قبلَهُ، وملكَ الرُّومَ، وجلَسَ بقيساريَّةَ، ولبسَ التَّاجَ، وضُرِبَ باسمِهِ الدِّينارُ والدِّرهمِ، وكانَ لهُ صدقاتٌ وأوقافٌ كثيرَةٌ، وجدَّدَ صلاةَ الجمعةِ بالجامعِ الأزهرِ وجامعِ الحاكمِ.

ووقعَ بينَهُ وبينَ الإمامِ النَّوويِّ رحمَهُ الله تعالى بعضَ شيءٍ فأمرَ بنفيِهِ من دمشقَ، ثم أمرَ بعودِهِ[٦].

---

(١) في (ش): «التتار ثم الفرنج».

(٢) في (ت): «قناطر» دون واو.

(٣) في (ش): «وغسل».

(٤) في (ش): «المتوبة».

(٥) دنقلة: مدينة كبيرة، ممتدة على ساحل النيل، مقر بلاد النوبة، والنوبة: بلاد واسعة للسودان، بجنوب مصر. انظر: «آثار البلاد» للقزويني (ص٣٩)، «تاج العروس» (مادة: دنقل).

(٦) كتب الإمام النووي إلى الظاهر بيبرس غير مرة ينصحه ويعظه، انظر طرفًا من مكاتباته ونصحه في: =

وفي أَيَّامِهِ طيفَ بالمحمَلِ(١) وكسوةِ الكعبةِ بالقاهرةِ.

وفي أيامِهِ قدِمَ خليفةٌ بغدادَ المستنصِرُ باللهِ ابنُ الظَّاهرِ بأمرِ اللهِ هارِبًا من التَّتارِ، فخرجَ السُّلطانُ الملكُ الظاهرُ للقائهِ، وكانَ يومًا مشهودًا.

وأوَّلُ من بايعَهُ بالخلافةِ عزُّ الدِّينِ بنُ عبدِ السَّلامِ، ثم الملكُ الظَّاهرُ، ثم إنَّ الخليفَةَ قلَّدَ الملكَ الظَّاهرَ أمور البلادِ الإسلامِيَّة وما سيفتَحُهُ.

ثم طلَبَ الخليفةُ من الملكِ أن يجهِّزهُ إلى بغدادَ، فجهَّزهُ بأكثرَ من ألفِ ألفِ دينارٍ، وخرجَ لوداعِهِ إلى دمشقَ، ثم قتلَهُ التَّتارُ بعدَ مفارقَةِ الظَّاهرِ إيَّاهُ، فرجَعَ الخليفةُ الحاكمُ بأمرِ اللهِ ابنُ المسترشِدِ باللهِ إلى مصرَ، فتلقَّاهُ الملكُ الظَّاهرُ وأكرمَهُ.

وكانَ في الملكِ الظَّاهرِ محاسِنُ وغيرُها، ولقَّبهُ الخليفةُ بقسيمِ أميرِ المؤمنينَ، وهو أعلى الألقابِ، وقالَ: هذا الملِكُ الظَّاهرُ قد قام بنصرَةِ الإمامةِ عند قلَّةِ الأنصارِ، وشرَّد جيوش الكفر(٢) بعدَ أن جاسوا خلالَ الدِّيارِ(٣).

وفي أَيَّامِهِ سنةَ ثلاثٍ وستِّينَ جعلَ القضاةَ أربعةً، من كلِّ مذهبٍ واحدٌ، ولم

= «حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ٩٧) وما بعدها.

(١) المحمل: لغة هو الهودج الكبير، والمراد هنا: محمل توضع فيه كسوة الكعبة، واهتم سلاطين المماليك بذلك اهتمامًا كبيرًا لحرصهم على الظهور بمظهر حماة الحرمين الشريفين. وأول من أدار المحمل بمصر السلطان الظاهر بيبرس، ويخرج موكب كبير في شهر شوال إلى طريق الحجاز على هذا الشكل يقوده أحد كبار أمراء المماليك، وفيه عدد من الأطباء والمؤذنين، والقاضي والشهود، والأمناء ومغسلو الموتى، ومن يريد الحج من الناس. وانظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٤/ ٥٧).

(٢) في (ش): «وشتت الجيوش».

(٣) انظر: «ذيل مرآة الزمان» لليونيني (٢/ ١٨٩).

يكُن ذلكَ قبلَهُ في الإسلامِ، غيرَ أنَّهُ في بعضِ أيامِ الفواطمِ قرَّروا[١] معَ قاضِيهم أربعةً: قاضٍ مالكِيٌّ وشافعيٌّ وإسماعيليٌّ وإماميٌّ، ثم أبطلُوا تعدادَهم واقتصرُوا على قاضٍ واحدٍ على مذهَبِ الإسماعيليَّةِ.

وكانَ مبدأُ تعدادِهم في أيَّامِ الظَّاهرِ، من قاضيهِ تاجِ الدِّينِ ابنِ بنتِ الأعزِّ، فإنَّه استنابَ عن نفسِهِ أربعَ نوَّابٍ من المذاهبِ الأربعةِ، بإذنِ الظَّاهرِ لهُ في ذلكَ، توسعةً على النَّاسِ، ثم بعدَ ذلكَ جعَلَ الظَّاهرُ الثَّلاثةَ الآخرينَ نُوَّابًا عنه معَ بقاءِ القاضي الكبيرِ ونائبِه، قالَ النَّاظِمُ:

وهْوَ الَّذي صيَّرَ في مصرَ القُضاة ... أربعَةً كلٌّ دُعِيْ قاضِي القُضاة[٢]

وسببُ ذلكَ توقُّفُ القاضي تاجُ الدِّينِ ابنُ بنتِ الأعزِّ عن تنفيذِ كثيرٍ من الأحكامِ، وتعطَّلت الأمورُ، ولَمَّا جعلَ القضاةَ أربعةً أنشَدَ بعضُهم ـ قيلَ: هوَ ناظمُ البردةِ البوصِيريُّ ـ:

لقَدْ سَرَّنا أن القُضَاةَ ثَلاثَةٌ ... لأنَّكَ تاجَ الدِّينِ للقَومِ رابِعُ
بهم بِنيَةُ الإسلامِ صَحَّتْ وكيفَ لا ... تصِحُّ وهُم أركانُها والطَّبائعُ
فكَم رُخَصٍ أبدَوا لنا وعَزائمًا ... هُدِينا بها فهِيَ النُّجومُ الطَّوالِعُ
فلا تبتئسْ إذ وسَّعَ اللهُ في الهُدَى ... مَذاهِبَنا بالعلمِ[٣] واللهُ واسِعُ
تفرَّقَتِ الآراءُ والدِّينُ واحِدٌ ... وكلٌّ أتى رأيًا إلى الحَقِّ راجِعُ

---

(١) في (خ): «قد رأوا».

(٢) دون نسبة في: «بدائع الزهور» لابن إياس (١/ ٣٢١).

(٣) في (ش): «في العلم».

فهذا اختِــلافٌ جرَّ للنَّــاسِ راحــةً كما اختلَفَت في الرَّاحتَيـنِ الأصابعُ[(١)]

ولَمَّـا مـاتَ تـاجُ الدِّيـنِ هـذا رآهُ الملِـكُ الظَّاهـرُ بيبـرسُ فـي نومِهِ بعـدَ موتِهِ، فسـألَهُ عـن حالـهِ فقـالَ: لـم أجِد عليَّ أشـدَّ مـن جعلـي القضـاةَ أربعةً، وقيـلَ لي: قـد فرَّقـتَ الكلمةَ.

ومـن حسـناتِ تـاجِ الدِّيـنِ ابـنِ بنـت الأعزِّ هـذا أنَّـهُ كانَتْ جـرَتِ العـادةُ من عهـدِ طـروقِ التَّتارِ البلادَ[(٢)] أنـه يؤخَذُ من أملاكِ النَّاسِ في كلِّ سـنةٍ أجرةُ شـهرينِ، فقـامَ تـاجُ الدِّيـنِ فـي أيَّـامِ وزارَتـهِ في ذلـكَ حـقَّ القيـامِ حتَّى أبطلَـهُ، فبطـلَ[(٣)] عن بـلادِ مصرَ إلـى الآنَ[(٤)].

ومـن محاسِـنِ الظَّاهـرِ أنَّـه كانَ قـد أمـرَ بإراقةِ الخمـورِ وإبطـالِ المفسِـداتِ والخواطِـئ، وإسـقاطِ المكـوسِ، وشـدَّدَ فـي أمـرِ الخمـرِ، وهـدَّد مَـن يعصِرُهـا بالقتـلِ، وأسـقطَ الضَّمـانَ فـي ذلـكَ، وكان كلُّ يـومٍ بألـفِ[(٥)] دينـارٍ بالقاهـرةِ وحدَهـا[(٦)]، وسـارَت كتبُـهُ بذلـكَ فـي الأقاليـمِ[(٧)].

---

(١) انظـر: «ديـوان البوصيـري» (ص٢٩٦)، وانظـر: «رفـع الإصـر عـن قضـاة مصـر» لابـن حجـر (ص٢٦٣).

(٢) «البلاد» من (خ).

(٣) «فبطل» من (خ).

(٤) انظر: «رفع الإصر عن قضاة مصر» لابن حجر (ص٢٥٩).

(٥) في (ش): «ألف».

(٦) أي: كان مـا يحصـل من بيـع الخمر والمنكر كل يـوم ألف دينار. فأبطلـه. انظر: «تاريـخ ابن الوردي (٢/ ٢١٨).

(٧) في (ش): «في الأوقاف».

قَالَ الذَّهبيُّ: كانَ الظَّاهرُ خليقًا بالملكِ، لولا ما كانَ فيهِ من الظُّلمِ، قالَ: واللهُ يرحمهُ فإنَّ لهُ يدًا بيضاءَ في الإسلامِ، ومواقفَ مشهودةً، وفتوحاتٍ معدودةً[1].

وكانَ قد أرادَ هدمَ أبنيةِ القَرَافةِ كلِّها لكونها مدفنَ الموتى، وأفتاهُ العلماءُ على لسانٍ واحدٍ أنَّه يجبُ على وليِّ الأمرِ هدمُ ذلكَ كلِّهِ، ثم شغلَهُ سفرُه بالشَّامِ للجهادِ، فماتَ بهِ رحمَهُ الله تعالى، وسيرَتُه ووقائعُهُ ممَّا تتحمَّلُ مجلداتٍ، سامحَهُ اللهُ تعالى.

[السَّعيد محمد ناصر الدِّين بركة الله]

ثم تولى الملكُ السَّعيدُ، محمَّدٌ ناصرُ الدِّينِ بركةُ اللهِ: ولَد الملكِ الظَّاهرِ، وعمرُهُ ثماني عشرةَ سنةً، إلى أن خُلِعَ وحبسَ بالكركِ، فماتَ بها سابعَ عشرَ ربيعٍ الآخرِ، سنةَ ثمانٍ وسبعينَ وستِّ مئةٍ، وكانَت مدَّتُهُ سنتَينِ وثلاثةَ أشهرٍ.

وكانَ الأفرَمُ نائبه في أمورِهِ، وكانَ السَّعيدُ سلطانًا جليلًا كريمًا عادلًا، مُحسنًا لا يردُّ سائلًا، متواضعًا بشوشًا حسَنَ الأخلاقِ، ليسَ في طبعِهِ عنفٌ ولا ظلمٌ، كثيرَ الشَّفقَةِ محبًّا لفعلِ الخيرِ، قليلَ الحُجَّابِ، يتصدَّى للأحكامِ بنفسِهِ.

ولَمَّا ماتَ بالكركِ سنةَ ثمانٍ وسبعينَ وجدَ النَّاسُ عليهِ وجدًا كثيرًا، وعُمِلَ عزاؤه بسائرِ البلادِ، وخرجتِ الخونداتُ[2] حاسِراتٍ، وأسمَعنَ الملكَ المنصورَ

---

(١) انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (١٥/ ٣٠٦).

(٢) خونـدات: جمـع خوندة، أي: أميـرة. انظر: «تكملـة المعاجم العربية» لآنـت دوزي (مادة: خوند) (٤/ ٢٤٤).

قلاوونَ الكلامَ القبيحَ من سبٍّ وغيرِهِ، وهو لا يتكلَّمُ، ونُسِبَ إليهِ أنه اغتالَهُ بالسمِّ، ووجدَت عليهِ زوجَتُهُ ابنةُ قلاوونَ وجدًا عظِيمًا، ولم تزَل باكيةً عليهِ حزينةً، لم تتزوَّج بعدَهُ إلى أن ماتَتْ سنةَ سبعٍ وثمانينَ.

[العادل بدر الدِّين سلامش]

ثمَّ تولَّى الملكُ العادلُ: أخوهُ، بدرُ الدِّين سلامشُ، وعمرُهُ نحو سبعِ سنينَ، وكانَ يُدعَى له ولقلاوونَ في الخطبةِ، فأقامَ مئةَ يومٍ، وعزِلَ في العشرينَ من رجبٍ في السَّنةِ المذكورةِ، وأرسَلَ للكرَكِ عندَ أخيهِ خضرٍ، ثم أحضرَهُ للقاهرةِ، وبقيَ بها خاملًا ذكرُهُ إلى أيَّامِ الملكِ الأشرفِ خليلٍ ولِدَ قلاوونُ، فجهَّزَهُ معَ أخيهِ خضرٍ إلى قسطنطينيَّةَ إلى أن ماتَ بها.

* * *

[الدولة القلاوونية الصالحية]

ثـم جـاءَتِ الدَّولـةُ القلاوونيَّةُ الصَّالحيَّـةُ، وهيَ مـن الدَّولةِ التُّركيَّـةِ المتقدِّمةِ، فأوَّلهم:

[المنصورُ قلاوونُ]

الملـكُ المنصـورُ أبـو المعالـي قـلاوونُ: الصَّالحـيُّ النَّجمِـيُّ الألفِـيُّ، لأنَّـه اشـتُرِيَ بألـفِ دينـارٍ، فأقامَ إحدى عشـرةَ سـنةً وشـهرينِ ونصفًـا، وتوفِّـيَ بالقربِ مـن المَطريَّـةِ[1]، عنـدَ خروجِـهِ على نيَّةِ الجهادِ، في سـادسِ ذي القعدةِ، سـنةَ تسـعٍ وثمانيـنَ وسـتِّ مئةٍ.

وكانَ سلطانًا كريمًا حلِيمًا شُجاعًا مِقدامًا عادِلًا عَفِيفًا عن سفكِ الدِّماءِ، مائلًا إلى فعلِ الخيرِ والأمرِ بالمعروفِ.

وفي أوَّلِ أمرهِ خرَجَ عليهِ سنقُرُ الأشقرُ، وتسلطَنَ بدمشقَ، وخُطِبَ له بالشَّامِ، ثم وقعَ الصُّلحُ على التَّتارِ بعد أمورٍ طويلَةٍ.

وهـو الـذي بنـى البيمارِسـتانَ[2] في سـنةِ إحـدى وثمانيـنَ وسـتِّمئةٍ بالقاهرةِ، وجعلَـهُ مباحًـا للفقيـرِ والأميـرِ، والمدرسـةَ المنصوريَّـةَ والقبـةَ التي دُفِـنَ بها، وله المشـاهدُ الحسـنةُ والفتوحاتُ بسـاحلِ البحرِ الرُّومـيِّ[3]، منها طرابلـسُ كانتَ في

---

(١) المطرية: من قرى مصر عندها الموضع الذي به شجر البلسان الذي يستخرج منه الدّهن فيها، والخاصيّة في البئر، يقال إن المسيح اغتسل فيها، وفي جانبها الشمالي عين شمس القديمة مختلطة ببساتينها. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٥/ ١٤٩).

(٢) البيمارستان: المكان المعدُّ لمعالجة المرضى، كلمة دخيلة فارسية، مركّبة من (بيمار) بمعنى مريض، و(ستان) بمعنى مكان أو محلّ. انظر: «الألفاظ الفارسية المعرَّبة» (ص٣٣).

(٣) البحر الرومي: يعرف اليوم بالبحر الأبيض المتوسط.

أيـدِي الفرَنجِ من سـنةِ ثـلاثٍ وخمسِ مئـةٍ وعكا[١] وبيـروتَ وصيدا وغيـرَ ذلك[٢] رحمَـهُ اللهُ تعالـى، وبلغَـت مماليكُه اثني عشـرَ ألفًا.

وفي أيَّامِهِ وصلَ عسكرُ التَّتارِ إلى الشَّامِ، وحصلَ التَّرجيفُ والخوفُ، فالتقاهُم بعساكِرِهم، وهزمَهم شرَّ هزيمةٍ، وحصَلَ مقتلةٌ عظيمةٌ مشهُورةٌ[٣].

[الأشرف صلاح الدِّين]

ثمَّ تولَّى الملكُ الأشرَفُ صلاحُ الدِّينِ خليل[٤]: ولدُ قلاوونَ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وشهرَينِ، ثم خرَجَ للبحيرةِ للصيدِ، فقتلَهُ الجندُ بغتةً هناكَ شهيدًا، وأُدخِلَ السَّيفُ في دبُرِه وشُقَّ إلى أعلاهُ، وترِكَ طرِيحًا ثالثَ عشرَ شهرِ المحرَّمِ سنةَ ثلاثٍ وتسعينَ وستِّ مئةٍ، ونقِلَ لتُربَتِهِ التي أنشأها بجوارِ المشهدِ النَّفيسِيِّ، قربَ السَّيدةِ نفيسَةَ، ثالثَ عشرَ صفرٍ سنةَ تاريخهِ.

وكانَ ملكًا شُجاعًا مقدامًا، لا يُعرَفُ من ملوكِ التُّركِ من يدانيهِ في الشَّجاعةِ، بديعَ الجمالِ، عليهِ رونَقُ الحُسنِ، وهَيبةُ السَّلطنةِ، صاحبَ سطوةٍ، قويَ البطشِ، تخافَهُ الملوكُ في أمصارِها، والوحوشُ الغاديةُ في آجامِها.

وفي أيَّامِهِ توجَّهَ فحاصرَ عكا وفتحَها، وفتح غالبَ سواحلِ الشامِ، وافتتحَ قلعةَ الرُّومِ بَهَنسا[٥] ومَرْعَشَ[٦]، وفتحَ حصنَ صورٍ، وكانَ من أحصَنِ الأماكنِ، بحيثُ

---

(١) في (خ): «عكار».

(٢) «وغير ذلك» من (خ).

(٣) «مشهورة» من (خ).

(٤) «خليل» من (ش).

(٥) بهنسا: مدينة بمصر من الصعيد الأدنى غربي النيل، يزعمون أن المسيح وأمه أقاما به سبع سنين، ينسب إليها جماعة من أهل العلم. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (١/ ٥١٦).

(٦) مرعش: من ثغور أرمينية. انظر: «معجم ما استعجم» (٤/ ١٢١٥).

عجزَ عنهُ السُّلطانُ صلاحُ الدِّينِ، ومِن يومئذٍ قُطِعَ دابرُ الفرنج من سواحل الشَّام، وصار أمرهم في إدبار، رحمه الله.

[النَّاصر محمد]

ثـمَّ تولـى الملـكُ النَّاصـرُ محمَّـدٌ: أخـوهُ، ابنُ قـلاوونَ، وعمرُه تسـعُ سـنينَ، فأقـامَ سـنةً واحـدةً، ثـم خلِعَ لصغرِهِ في شـهرِ المحرمِ، سـنةَ أربعٍ وتسـعينَ وسـت مئـةٍ، وأرسِـلَ للكركِ.

[العادلُ كَتْبُغا]

ثم تولى الملكُ العادلُ كَتْبُغا المنصوري: وأصلُه من سبيِ التَّتارِ، واستقرَّ بلاجينَ نائبًا[1]، فأقامَ سنتَينِ، ثم خُلِعَ[2] وهوَ بالشَّامِ، في شهرٍ محرَّمٍ، سنةَ ستٍّ وتسعينَ وستِّ مئةٍ لَمَّا توجَّهَ لها ومهَّدَها، ثم رجعَ فلمَّا وصَلَ وادي فحمةٍ خرجَ عليهِ لاجينُ، فقتَلَ خواصَّ جماعتِهِ، فهربَ إلى دمشقَ، ودخلَ القلعةَ[3]، فأحاطَ لاجينُ على الخزائنِ والجيشِ.

وكانَ كتبغا ملكًا خيِّرًا ديِّنًا عاقلًا رحمَهُ الله تعالى.

[المنصورُ حسامُ الدِّينِ لاجينُ]

ثم تولَّى الملكُ المنصورُ حسامُ الدِّينِ لاجينُ المنصورُ: الذي كانَ نائبًا عن كَتْبُغا، وخلعَهُ، وولاه نيابةَ صَرْخَدَ[4] بالشَّامِ، فأقامَ لاجينُ في السَّلطنةِ سنتَينِ وسبعةً

(١) في (ش): «بلاجين باشا».

(٢) في (ش): «فخلع».

(٣) «ودخل القلعة» من (ش).

(٤) «صرخد» من (ش). وصرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٣/ ٤٠١). وهي حاليًّا مدينة في =

وأربعينَ يومًا إلى أن قُتلَ ليلةَ الجمعةِ بعد العشاءِ بغتةً وهو يلعَبُ بالشَّطرنجِ[١]، حادي عشرَ ربيعِ الآخرِ، سنةَ ثمانٍ وتسعينَ وستِّ مئةٍ، ودفِنَ بالقَرافةِ.

وكان ملِكًا شُجاعًا مقدامًا عارِفًا عاقِلًا وقُورًا مُعظَّمًا في الدُّولِ.

وهو الذي وقفَ الأوقافَ على جامعِ طولونَ، وجعلَ فيهِ دروسَ تفسيرٍ وحديثٍ وفقهٍ على المذاهبِ الأربعةِ وقراءاتٍ وميقاتٍ وطبٍّ، وهي مستمرَّةٌ إلى الآنَ.

وقد وليْتُ تدريسَهُ الفقهَ الحنبليَّ، فكُنْتُ أُظلَمُ في قبضِ الاستحقاقِ مِن بينِ سائرِ المدرِّسينَ بسببِ ظلمِ بعضِ المباشرينَ[٢]، مع أنَّ الواقفَ شرطَ التَّسويةَ بينهُم، هذا مع مزيدِ احتياجٍ، وتعدِّي نفعي افتاءً وتدريسًا وتصنِيفًا، بخلافِ غيري.

وفي الحديثِ: «لا تقومُ الساعةُ حتى يكونَ أسعَدُ النَّاسِ بالدُّنيا لُكَعُ بنُ لُكَعَ[٣]». رواهُ إمامُنا أحمدُ والتِّرمذِيُّ[٤].

وكانَ قبلَ ذلكَ أمَرَ الأشرفُ خليلٌ بخنقِه، فخُنِقَ ثم عادَتْ روحُهُ فيهِ، حتى أرادَ الله له بما أرادَهُ ووعدَهُ به من الملكِ، وكانَ قد نذرَ إنْ نجَّاهُ اللهُ تعالى ليُعمرنَّ جامعَ طولونَ، وكانَ مختَفِيًا بمنارَتِهِ، فنجَّاهُ اللهُ تعالى وتسلطَنَ.

وفي أيَّامِهِ أُبطِلَ الثلجُ الذي كان ينقَلُ من الشامِ إلى مصرَ، وأبطل المكوسَ.

= محافظة السويداء جنوب سورية.

(١) في (ش): «الشطرنج».

(٢) في (ش): «مباشرة القاضي أحمد التوبي».

(٣) (لكع بن لكع) اللكع عند العرب: العبد، وقيل: هو اللئيم، وقيل: هو الوسِخ القذِر. انظر: «جامع الأصول» لابن الأثير (١٠/ ٣٩٤).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٣٠٣)، والترمذي (٢٢٠٩). وقال الترمذي: حديث حسن.

[النَّاصر محمَّد]

ثم تولَّى الملكُ النَّاصرُ محمَّدُ بن قلاوونَ: ثانيًا[١]، وعمرُهُ خمسَ عشرةَ سنةً[٢] للسَّلطنةِ ثانيًا، وتعطَّلتِ السَّلطنةُ إحدَى وأربعين يومًا إلى أن حضَرَ[٣] إلى القلعةِ، سادسَ جمادى الأوَّلِ، سنةَ ثمانٍ وتسعينَ وستِّ مئةٍ، فأقامَ عشرَ سنينَ وستَّةَ أشهرٍ.

وفي أوَّلِ ولايتِهِ سنةَ تسعٍ وتسعينَ وستِّمئةٍ قدمَ غازانُ ملكُ التَّتارِ في مئة ألفٍ إلى دمشقَ، فخرَجَ النَّاصرُ لقتالِهِ في نحوِ عشرينَ ألفًا، فانهزَمَ عسكَرُ النَّاصرِ، وقُتِلَ جماعةٌ من الأمراءِ، وملكَ غازانُ دمشقَ ما خلا قلعَتِها، وخُطِبَ له بدمشقَ، وجعلَ نيابةَ دمشقَ لقبجقَ، وقاسَى أهلُ دمشقَ شدائد من التَّتارِ، ثم أخذَ النَّاصرُ والأمراءُ[٤] في التَّجهيزِ لقتالِ التَّتارِ بعدَ أن جاءَهم الشَّيخُ ابنُ تيميةَ على البريدِ، وحثَّهم على ذلكَ، وجاءَ الخبرُ بعودِ غازانَ لبلادِه، وحضرَ قبجَقُ للنَّاصرِ طائعًا.

ثم بعدَ ذلكَ عادَ التَّتارُ ثانيًا، فخرجَ إليهم النَّاصرُ، وقاتلَهم فهزَمَهم أقبحَ هزيمةٍ، وقُتِلَ قطلوشاهُ مقدَّمُ التَّتارِ.

وكانَ في عسكرِ السُّلطانِ الشَّيخُ ابنُ تيميةَ، وظهرَ من شجاعَتِهِ ما لا يُوصَفُ، ولَمَّا اشتدَّ القتالُ قالَ السُّلطانُ: يا خالدُ بنَ الوليدِ! فقالَ لهُ الشيخُ: قل: يا مالكَ يومِ الدِّينِ، إيَّاكَ نعبُدُ وإيَّاكَ نستَعينُ، فحصَلَ النَّصرُ للمُسلِمينَ[٥].

ومن يومئذٍ انكسَرَ شرُّ التَّتارِ، وصارَ أمرُهم في إدبارٍ.

---

(١) في (ش): «ثم عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون».

(٢) «سنة» من (ش).

(٣) في (ش): «أحضر».

(٤) «والأمراء» من (خ).

(٥) انظر: «تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٧٨).

وفي تلكَ الولايةِ في شعبانَ، سنةَ سبع مئةٍ، أُمِرَ بحمصَ[١] والشَّامِ اليهودُ بلبسِ العمائمِ الصُّفرِ والنَّصارَى بلبسِ الأزرَقِ.

ثم عوَّلَ النَّاصرُ على الحجِّ في شهرِ رمضانَ سنةَ ثمانٍ وسبعِ مئةٍ، ثم عرَّجَ على[٢] الكركِ، وأرسَلَ يخبرُ الأمراءَ أنَّه أقامَ بها، ورجَعَ عنِ السَّلطنةِ لَمَّا قصُرَتْ يدُهُ في مملكَتِه بوجودِ سلَّارَ[٣] وبيبرسَ؛ لأنَّه كان معهُما كالمحجورِ عليهِ، وكانَ ذلكَ تدبيرًا منهُ، وذلكَ في عاشرِ شوَّالَ، سنةَ ثمانٍ وسبعِ مئةٍ.

[المظفَّر ركن الدِّين بيبرس الجاشنكير]

فولَّوا الملكَ المظفَّرَ ركنَ الدِّينِ بيبرسَ الجاشنكِيرَ[٤] **المنصورَ**: إستادارَ[٥] النَّاصرِيِّ المذكورِ، ويعرَفُ بالعثمانيِّ، قلَّدَه الخليفةُ السَّلطنةَ، وألبسَهُ الخِلعةَ

---

(١) في (ش): «بمصر».

(٢) في (ش): «خرج إلى».

(٣) سلار البيري المنصوري كَبِير أُمَرَاء الصالحية والظاهرية، ثم صار نائبًا عن السلطان الناصر بالديار المصرية، وكان هو وبيبرس يتصرفان في شؤون الملك. انظر: «الدرر الكامنة» لابن حجر (٢/ ٣٢٩).

(٤) الجاشنكير: الذي يتذوَّق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفًا من أن يدسَّ عليه فيه سمٌّ ونحوه. وهو مركَّب من لفظين فارسيين: (جاشنا) بجيم في أوّله قريبة في اللفظ من الشين، ومعناه الذّوق. والثاني (كير) وهو بمعنى المتعاطي لذلك، ويكون المعنى: الذي يذوق. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٥/ ٤٣٢).

(٥) إستادار: لقبٌ على الذي يتولَّى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه، وتمتثل أوامره فيه. وهو مركّب من لفظتين فارسيتين: (إستذ)، ومعناها الأخذ. والثانية (دار)، ومعناها الممسك، فأدغمت الذال الأولى وهي المعجمة في الثانية وهي المهملة، فصار إستدار، والمعنى المتولِّي للأخذ. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٥/ ٤٣٢).

السَّوداءَ، والعِمامةَ المدوَّرةَ، وذلك بإشارةِ سلَّار، وجلسَ على تختِ الملكِ وهو يبكِي، فأقامَ إحدى عشرَ شهرًا، بعد أن خلَعَ على الأمراءِ ألفينِ ومئتي خِلعةٍ، وأرسلَ يتعرَّضُ للنَّاصرِ ويُطالبُه بما كانَ معهُ من الأموالِ والذَّخائرِ، والنَّاصرُ يعتذِرُ فلا يَقبَلُ منهُ، فضاقَ صدرُهُ وأرسلَ لمماليكِ أبيهِ نائبِ دمشقَ وحلبَ وطرابلسَ وصفدٍ فأجابوهُ.

ثم طلبَ الملكُ النَّاصرُ السَّلطنةَ وبايعَهُ جماعةٌ من الأمراءِ، فاستدعى بيبرسُ بالشَّيخِ زين الدِّين ابنِ المرحِّلِ، والشَّيخِ شمسِ الدِّينِ ابن عَدلانَ، واستشارَهما فأشاروا عليهِ بتجديدِ العهدِ من الخليفةِ وتخليفِ الأمراءِ ففعلَ ذلكَ، وكتبَ الخليفةُ العهدَ وحثَّ فيهِ الجندَ على قتالِ الملكِ النَّاصرِ خوفَ المشقَّةِ(١) على المسلمِينَ وتفرُّقِ كلِمَتهم.

ثمَّ إنَّ الملكَ النَّاصرَ صارَ من الكركِ إلى دمشقَ، فانتظَمَ أمرُهُ، ثم توجَّهَ إلى مصرَ بالعساكرِ، فخلَعَ بيبرسُ نفسَهُ، وهرَبَ إلى الصَّعيدِ وأرسلَ يقولُ للنَّاصرِ: إنَّني خلعْتُ نفسي من الملكِ، فإن حبَستَني عددْتُ ذلك خلوةً، أو نفيتَني عددْتُ ذلكَ سياحةً، أو قتَلتَني كانَ ذلكَ شهادةً. فعفَى عنهُ وولَّاهُ نيابةَ صِهْيونَ(٢).

فخرَجَ بيبرسُ ولم يحضُر إلى السُّلطانِ، فشقَّ ذلك عليه وأرسَلَ النَّاصرُ خلفَهُ من أحضرَه من قربِ غزَّةَ، ثم أخذَ يوبِّخهُ ويعدِّدُ له ذنوبَهُ، ثم أمرَ بخنقِهِ

---

(١) في (ش): «شق العصا».

(٢) صهيون: موضع معروف بالبيت المقدس، محلة فيها كنيسة صهيون، وصهيون أيضًا: حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشَّام من أعمال حمص. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٣/ ٤٣٦).

بحضرَتهِ[١] في سادسِ شهرِ رمضانَ، وقيلَ: بشوَّالٍ سنةَ تسعٍ وسبعِ مئةٍ، ويقالُ[٢]: ودفنَهُ بمدرسةِ البيبرسيَّةِ.

وبيبرسُ هذا[٣] هو الذي عمَّرَ المدرسةَ[٤] البيبرسيَّةَ بالدَّربِ الأصفرِ داخلَ بابِ النَّصرِ، موضعَ دارِ الوزارةِ، سنةَ سبعٍ وسبعِ مئةٍ، والشُّبَّاكُ الكبيرُ الذي بها كانَ بدارِ الخلافةِ ببغدادَ، وكانتِ الخلفاءُ تجلسُ إليهِ، وأمرَ النَّاصرُ بغلقِها، ثم أمرَ بفتحِها، وهو الذِي جدَّدَ الجامعَ الحاكمَ بعدَ الزَّلزلةِ.

وأخذَ النَّاصرُ يعاقِبُ سلَّارَ ليظهِرَ مالَهُ ففتحَ سَربًا تحتَ الأرضِ، فأخرجَ منهُ سبائكَ ذهبٍ وفضةٍ وعدَّةَ جُربٍ، في كلِّ جرابٍ عشرةُ آلافِ دينارٍ، فحمَّلُوا من ذلكَ السِّربِ أكثرَ من خمسينَ بغلًا منَ الذَّهبِ والفضَّةِ، ثم أخرَجَ من موضعٍ آخرَ سبعًا وعشرينَ خابيةٍ من[٥] ذهبٍ، ومن الجواهرِ شيئًا كثيرًا، وأخرجَ ألفَي حياصةٍ[٦] مجوهرةٍ بالفُصوصِ، وألفَي قلادةٍ من الذَّهبِ.

ثم حبسَهُ النَّاصرُ حتى ماتَ جوعًا، فأكلَ ساقَ خفِّهِ، ووجِدَ عاضًّا على السَّرموجةِ[٧].

---

(١) «بحضرته» من (ش).

(٢) «ويقال» من (ش).

(٣) «هذا» من (خ).

(٤) «المدرسة» من (خ).

(٥) «من» من (خ).

(٦) الحياصة: المِنطقة، وهي ما يشد به الإنسان وسطه، يلبسها الملك للأمراء عند إلباسهم الخلع والتشاريف؛ وهي تختلف بحسب اختلاف الرتب، فمنها ما يكون من ذهب مرصّع بالفصوص، ومنها ما ليس كذلك. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٢/ ١٤٢).

(٧) السَّرموجة أو السَّرموزة: كلمة فارسية معربة؛ وأصلها في الفارسية: سَرْمُوزه؛ مركبة من: سَرْ بمعنى: =

وكانَ في شؤنتِه[١] يومَ موتِهِ من الغلالِ ما يزيدُ على أربعمئةِ ألفِ أردَبٍّ[٢].

قال ابن الجوزيُّ[٣]: وجِدَ لسلَّارَ بعد موتِهِ غيرُ ما أَخِذَ منه في حياتِهِ من الذَّهبِ ثمانُ مئةِ ألفِ ألفِ دينارٍ، غيرَ الجواهرِ والحلي[٤] والخيلِ والسلاحِ، وأنكرَ الذَّهبيُّ ذلكَ[٥]، وقالَ: هذا كالمستَحيلِ[٦].

[الناصر محمد بن قلاوون]

ولما عادَ الملكُ النَّاصرُ محمدُ بنُ قلاوونَ: ثالثًا[٧] للسلطنةِ سنةَ تسعٍ واستقرَّ أمرُه بها شرَعَ يعاتِبُ النَّاسَ في أمرِه، فقالَ للخليفةِ: هل أنا خارجيٌّ وبيبرسُ من سلالةِ العبَّاسِ، وقالَ للقاضي علاءِ الدِّينِ الذي كتبَ العهدَ: يا أسودَ الوجهِ!

وقالَ للقاضي بدرِ الدِّينِ ابن جماعة: كيفَ تفتي المسلِمينَ بقتالي؟ وعزلَهُ عن القضاءِ.

ووبَّخَ ابنَ المرحِّلِ، وجاءَ ابنُ عدلانَ يستأذنُ، فقالَ النَّاصرُ للدوادارِ[٨]:

= فوق، ومن مُوزَه بمعنى الخف؛ والمعنى الكلى: نوع من الأحذية يُلبس فوق الخف، أو الخف الواسع يلبس فوق الخف. انظر: «المعجم العربي لأسماء الملابس» لرجب إبراهيم (ص٢٣٢).

(١) الشونة: مخزن الغلة. مصرية. انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: شنن).

(٢) انظر: «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٩/ ١٨).

(٣) في (ش): «الجزري».

(٤) في (ق): «والحلق».

(٥) انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٢/ ٤٩١).

(٦) «وقال هذا كالمستحيل» من (ش).

(٧) في (ش): «ثانيًا».

(٨) في (ش): «للدويدار». والدوادارية: مهمتهم تبليغ الرسائل عن السلطان، وإبلاغ عادة الأمور، وتقديم القصص إليه والمشاورة على من يحضر إلى الباب، وتقديم البريد هو وأمير جاندار وكاتب =

قـل لـهُ: أنـتَ أفتيْـتَ أنّـه خارجـيٌّ وقتالُه جائـزٌ، ما لـكَ عندَهُ دخـولٌ[١].

وأرسـلَ أحضرَ شـيخَ الإسـلامِ ابـنَ تيميةَ مـن حبسِـهِ بالإسـكندريةِ، وكان قد سـعَى فيـهِ ابـن عـدلانَ وغيـره[٢] فاسـتفتى النَّاصرُ ابـنَ تيميـةَ ليعمَـلَ فيهـم بفتياهُ، فنهـاهُ ابـن تيميـةَ وقـالَ لـهُ: إنـك إن عدمْـتَ هـؤلاءِ لم تلـقَ خيـرًا منهُم، مـع أنهم كانـوا قد[٣] سـعَوا في حبـسِ ابنِ تيميـةَ عندَ بيبـرسَ وسـجَنوه[٤] بالقلعـةِ، وبحبسِ الديلَـمِ وبإسـكندريةَ، فـكانَ ابـنُ عدلانَ يقـولُ: لم نـرَ أفتى من ابـنِ تيميـةَ، لم نبقِ ممكنًـا فـي حقّـهِ، ولما قـدرَ هـو عفَى[٥].

ثم لَمَّا جلسَ[٦] السُّلطانُ وعندَهُ العلماءُ وقضاةُ مصرَ والشامِ دخلَ الوزيرُ وأنهى: أنَّ أهلَ الذِّمةِ بذلُوا للدِّيوانِ في كلِّ سنةٍ سبع مئةَ ألفِ دينارٍ على أن يعودُوا للبسِ العمائمِ البيضِ، فسألَ السُّلطانُ العلماءَ في ذلكَ فسكَتُوا، فقامَ ابن تيميةَ وردَّ على الوزيرِ مقالتَهُ[٧]، وزجرَ السُّلطانَ، فأصغَى إليهِ ولم يظفَر أهلُ الذِّمَّةِ بمرادِهم، ثم فعِلَ ذلك بهم في بغدادَ اقتداءً بالنَّاصرِ ملكِ مصرَ، وهذا من حسناتِ ابنِ تيميةَ[٨].

= السر، ويأخذ خط السلطان على عموم المناشير والتواقيع والكتب. انظر: «مسالك الأبصار» لابن فضل الله القرشي (٣/ ٤٥٦).

(١) انظر: «السلوك» للمقريزي (٢/ ٤٤٤)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ١١٤).

(٢) في (خ): «غيره».

(٣) «قد» من (خ).

(٤) في (ش): «وحبسوه».

(٥) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٦١).

(٦) في (ش): «حبسَ».

(٧) «مقالته» من (ش).

(٨) انظر: «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص٢٩٧)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٦٠).

واستمرَّ الملكُ النَّاصرُ في السَّلطنةِ، وتمكَّنَ منها، فعمَّرَ الجامعَ الجديدَ بمصرَ، عامَ اثني عشرَ وسبع مئةٍ، والقصرَ بالقلعةِ سنةَ أربعَ عشرةَ، وجامعَ القلعةِ سنةَ ثمانَ عشرةَ، والمدرسةَ التي[1] بين القصرَينِ سنةَ ثلاثٍ وسبع مئةٍ في سلطنَتِهِ الثَّانيةِ.

وسافرَ إلى الحجازِ الشَّريفِ بالرَّكْبِ سنة تسعَ عشرةَ.

وحفرَ الخليجَ الحاكميَّ[2] النَّاصريَّ المتوصِّلِ إلى خانكاه[3] سَرْياقَوْس[4]، لَمَّا بنى بها الخانقاه سنةَ خمسٍ وعشرينَ وسبع مئةٍ، فحُفِرَ[5] في شهرينِ، وعمَّرَ عليه القناطرَ، وكذلك القناطر[6] بالجيزةِ وغيرَ ذلكَ من ميادينَ وقصورٍ وجوامعَ، وعزمَ على أن يجرِيَ النِّيلَ من تحتِ القلعةِ، فقيلَ لهُ: إنَّه يحتاجُ إلى ثلاثِ خزائنَ من المالِ، ولا يُدرَى هل يصحُّ أو لا، فرجَعَ عن ذلكَ.

وفي أيَّامهِ كثرَتِ العمارةُ من قبَّةِ الشَّافعيِّ إلى بابِ القَرَافةِ، وزيدَ في مباني القاهرةِ مقدارُ نصفِها، وطالَتْ أيَّامُهُ وتمَّ سعدُهُ، وأطاعتهُ البلادُ والعبادُ، وسافرَ أيضًا بالرَّكبِ للحجازِ الشَّريفِ عامَ اثنينِ وثلاثينَ وسبع مئةٍ، وفي أيَّامهِ حدثَ التَّذكيرُ يومَ الجمعةِ، ليتهيَّأ النَّاسُ للصَّلاةِ.

---

(١) «التي» من (خ).

(٢) «الحاكمي» من (ش).

(٣) الخانقاه: بقعة يسكنها أهل الصلاة والخير، والصوفية، والنون مفتوحة، معرب: فانه كاه، قال المقريزي: وقد حدثت في الإسلام في حدود الأربع مئة، وجعلت لمتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى. انظر: «تاج العروس» (مادة: خنق).

(٤) سرياقوس: بليدة في نواحي القاهرة بمصر. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٣/ ٢١٨).

(٥) في (خ): «فحفره».

(٦) «وكذلك القناطر» من (خ).

وفي أَيَّامِهِ انقطعَتِ الخطبةُ للخلفاءِ العباسيينَ، واكتُفِيَ بمجرَّدِ اسمِ السُّلطانِ إلى يومنا هذا، وذلكَ أَنَّه في سنةِ ستٍّ وثلاثينَ وسبعِ مئةٍ قبَضَ على الخليفةِ، واعتقلَهُ بالبُرجِ، ومنعَهُ من الاجتماعِ بالنَّاسِ، ثم نفاهُ في سنةِ سبعٍ إلى قوصٍ(١) هو وأولادُهُ وعيالُهم، وكانوا قريبَ مئةِ نفرٍ، وسببُه أَنَّه رُفِعَ إليه قصةٌ عليها خطُّ الخليفةِ: يحضِرُ السُّلطانَ لمجلسِ الشَّرعِ الشَّريفِ، وكانَ في طولِ مدَّةِ حبسِهِ ونفيِهِ يُخطَبُ له على المنابرِ، فلما ماتَ عهِدَ إلى ابنه أحمدَ بالخلافةِ، فلم يرضَ السُّلطانُ، وبايعَ إبراهيمَ ابنَ أخيهِ، وهو الذي كان يمشِي بين عمِّهِ الخليفةِ وبين السُّلطانِ بالنَّميمةِ، وكانَ غيرَ صالحٍ للخلافةِ لأمورٍ قبيحةٍ يتعاطاها، فقامَ قاضي القضاةِ ابنُ جماعةَ في صرفِ رأيِ السُّلطانِ عن إقامةِ الخطبةِ باسمِ إبراهيمَ فلم يفعَل، فاتَّفقَ الرَّأيانِ على تركِ الخطبةِ للاثنينِ، واكتفيَ فيها بمجردِ اسمِ السُّلطانِ. ومن هناكَ انقطعَتِ الخطبةُ للخلفاءِ والدُّعاءُ لهم على المنابرِ كافَّةً.

وكانَت وفاةُ النَّاصرِ محمَّدٍ يومَ الأربعاءِ، تاسعَ عشرَ ذي الحجَّةِ، سنةَ إحدى وأربعينَ وسبعِ مئةٍ، ودُفِنَ على والدِه بالقبَّةِ المنصوريَّةِ، فكانَت مدَّتهُ الأخيرةُ اثنينِ وثلاثينَ عامًا وسبعةَ أشهرٍ ونصفَ شهرٍ، فصارَت جملَةُ ولايتِهِ أربعًا وأربعينَ سنةً وخمسةَ عشرَ يومًا، ولم يبلُغ مدَّتهُ أحدٌ من السَّلاطينِ المتولِّينَ بمصرَ(٢)، لا قبلَهُ ولا بعدَهُ.

وما أَلطَفَ قول بعضِهم في موتِهِ:

---

(١) قوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يومًا. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٤/ ٤١٤). وحاليًا هي مدينة تابعة إداريًّا لمحافظة قنا في مصر.

(٢) في (ش): «سلاطين مصر».

قلْـتُ لبـدرِ الأفـقِ[(١)] لمَّـا بدا ... ووَجـهُـــهُ منكسـفٌ باسـرْ[(٢)]

مالـكَ لا تُسـفِرُ عـن بـهـجَـةٍ ... فــقالَ مـاتَ الملـكُ النَّاصـرْ

وكانَ ملكًا عظيمًا مُطاعًا، ذا بطشٍ ودهاءٍ وحزمٍ شديدٍ، وكيدٍ مديدٍ، ذكيًّا عاقِلًا، كريمًا شُجاعًا[(٣)]، لا يحبُّ الظُّلمَ، ويتروَّى في الأمرِ إذا أرادَ فعلَهُ، وكانَ يصبِرُ الدَّهرَ الطَّويلَ على الإنسانِ، وهوَ يكرَههُ.

هادتهُ الملوكُ وراسلَتهُ، وكانَ كلَّما بَعُدَ الإنسانُ عن بلادِه وجدَ مهابَتهُ أكثَرَ ومكانتَهُ أكبرَ، وعندَما انتهَت سعادَتهُ وخُطِبَ له بالرُّومِ، وضربَتِ الدَّراهمُ والدَّنانيرُ باسمِهِ ببغدادَ أدركَتهُ المنيَّةُ، فسبحانَ من لا يدومُ إلَّا ملكُهُ.

ويقالُ: وجِدَ بخِّطه ما صورَتهُ: أرزاقُ الفقهاءِ صدقةٌ، أموالُ الظَّلمةِ مُكدَّرةٌ بشروطِ الواقِفينَ، منغَّصةٌ بمننِ النظَّارِ والمباشرِينَ، مَنْ باشرَها أكلَها صدقةً، ومَنْ لم يُباشِرها أكلَها حرامًا، وكتبهُ محمدُ بن قلاوونَ.

وتركَ عدَّةَ بنينَ تولوا السَّلطنَةَ بعدَهُ.

[المنصورُ أبو بكرٍ]

فتولَّى الملكُ المنصورُ أبو بكرٍ: ولدُهُ، وأنشدَه الشُّعراءُ:

إذا النَّاصِـرُ السُّــلطانُ راحَ لرَبِّــهِ ... فللَّـــهِ منـــهُ قائـــمٌ بمُهنَّـــدِ

وقَـدعقَـدَ الإسـلامُ إجماعَهُـم عَلَى ... أبــي بكْــرٍ الصِّدِّيــقِ بعــدَ محمَّــدِ

(١) في (ش): «الدين».

(٢) في (ش): «منكسر ما يسر».

(٣) «كريمًا شجاعًا» من (ش).

فأقامَ شهرَين وأيَّامًا، وخُلعَ في العشرِ الأخيرِ من صفرٍ، عامَ اثنينِ وأربعينَ، لفسادِهِ وشربِهِ الخمورَ، حتى قيلَ: إنَّهُ جامعَ زوجةَ أبيهِ، ونفي هو وإخوتُهُ إلى قوصٍ، وتهتكَتْ[1] حريمُ أبيهِ النَّاصرِ، وكثُرَ البكاءُ والعويلُ بالقاهرةِ، ثم قُتِلَ بقُوصٍ، وكانَ ذلك مجازاةً لِمَا فعلَهُ والدُه بالخليفةِ.

[الأشرفُ كجك]

ثم تولَّى الملكُ الأشرفُ كجك: أخوهُ، وعمرُهُ ستُّ سنينَ، فأقامَ ثمانيةَ أشهرٍ، والأمرُ في دولَتِهِ لقَوْصُونَ[2] وبَشْتَكَ[3]، فعزلوهُ، وتوفِّيَ بقُوصٍ بعدَ أربعِ سنينَ.

[النَّاصر أحمد]

ثمَّ تولَّى الملكُ[4] النَّاصرُ أحمدُ: أخوهُ، وكانَ مُقِيمًا بالكركِ، فحضرَ إلى مصرَ في عاشرِ شوَّالٍ عامَ اثنينِ وأربعينَ وسبعِ مئةٍ، وكانَ الذي عقدَ المبايعةَ بينَهُ وبينَ الخليفةِ الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ السُّبكيُّ، فأقامَ في الملكِ في مصرَ أربعينَ يومًا، وظلمَ النَّاسَ وعسفَ بهم، ثم بدا لهُ أن يترُكَ مصرَ ويقيمَ في الكركِ

---

(١) في (خ): «وانتهك».

(٢) قوصون: الأمير الكبير النائب سيف الدين الساقي الناصري، كان أميرًا وهو في عداد الملوك الكبار، كان أولًا من أكبر خواص الملك الناصر، وزوجه ابنته، ولما مات السلطان الملك الناصر قام هو في صف المنصور أبي بكر، وقام في صف الناصر أحمد الأمير سيف الدين بشتاك، واختلفا، وفي الآخر كان الأمر على ما أراده قوصون، ثم خلعه، وأجلس أخاه الأشرف كجك. ثم لما استلم الناصر الملك سجنه، ثم قتل في السجن. انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٤/ ١٣٦).

(٣) في (ش): «ويشتك». بَشْتَك أو بَشْتاك: الأمير سيف الدين الناصري، قُتل في الحبس في أول سلطنة الأشرف كُجُك، سنة (٧٤٢هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (١/ ٦٩٠).

(٤) «الملك» من (ش).

ففعَلَ ذلكَ، وأخذَ الأموالَ والذَّخائرَ، ثم رجَعَ للكركِ، فاضطربَتْ أحوالُ النَّاسِ وكاتبوه في القدومِ، فأبى فأجمَعُوا على خلعِهِ، فخُلِعَ وهو[1] بها، ثمَّ قُتلَ سنةَ خمسٍ وأربعينَ وسبعِ مئةٍ[2].

ثم تولَّى الملكُ الصَّالحُ إسماعيلُ أبو الفدا أخوه، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وشهرَينِ وخمسةَ عشرَ يومًا، إلى أن توفِّيَ رابعَ شهرِ[3] ربيعٍ الآخرةِ، سنةَ ستٍّ وأربعينَ وسبعِ مئةٍ، وعمرُهُ نحو العشرينَ سنةً.

وفيه يقولُ الصَّلاحُ الصَّفديُّ[4]:

مضَى الصَّالحُ المرجُوُّ للبأسِ والنَّدَى ... ومَن لم يزَلْ يلقَى المُنَى بالمنائحِ

فيا مُلكَ مصرَ كيفَ حَالكَ بعدَهُ ... إذا نحنُ أثنَينا عَليكَ بصالحِ[5]

وهوَ الذي وقفَ بيسوسَ وسَنْدَبِيسَ[6] على كسوةِ الكعبةِ.

وكانَ في أوَّلِ ولايتِهِ أرسلَ لمحاصرةِ أخيهِ بالكركِ، فجزَّ رأسهُ في سنةِ خمسٍ، وأُتِيَ بهِ إليهِ[7].

---

(١) «وهو» من (ش).

(٢) «وسبع مئة» من (خ).

(٣) «شهر» من (ش).

(٤) انظر: «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (١٠/ ٩٦)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ١١٧).

(٥) من قوله: «سنة وفيه يقول الصلاح...» إلى هنا من (خ).

(٦) بيسوس: قرية بشرقي مصر. وسندبيس: قرية من عمل الشرقية بمصر. انظر: «تاج العروس» (١٥/ ٤٥٩)، و(١٦/ ١٥٤).

(٧) «إليه» من (خ).

[الكامل شعبان]

ثم تولَّى الملكُ[١] الكاملُ شعبان: أخوهُ، في ربيعِ الآخرِ، وفيهِ يقولُ ابنُ نباتةَ ـ شعر ـ[٢]:

جَبينُ سُلطانِنا المرَجَّى مُبارَكُ الطَّالِعِ البدِيعِ
يا بهجَةَ الدَّهرِ إذ تَبدَّى هِلالُ شعبانَ في ربيعِ[٣]

فأقامَ سنةً وشهرًا وسبعةَ عشرَ يومًا، فأساءَ السِّيرةَ، ثم حبِسَ وخلِعَ ووضعُوهُ مكانَ أخيهِ أمير حاجي، وأُخرِجَ أمير حاجي وتسلطَنَ، فجلسَ على سماطِ[٤] شعبانَ، وتغذى شعبانُ ممَّا عمِلَ الأميرُ حاجي بالحبسِ، ثمَّ بعدَ ذلك قُتِلَ.

[الملك المظفر حاجي]

ثمَّ تولَّى الملكُ المظفَّرُ حاجي: أخوهُ، فأقامَ سنةً وثمانيةَ أشهرٍ وعشرةَ أيامٍ، ثم خُلِعَ وذُبحَ في ثاني عشرَ شهرِ رمضانَ سنة ثمانٍ وأربعينَ وسبع مئةٍ، وكانَ سيِّءَ التَّدبيرِ، قبيحَ السِّيرةِ، يؤثِرُ صحبةَ الأوباشِ[٥] على أربابِ الفضائلِ.

---

(١) «الملك» من (ش).

(٢) انظر: «ديوان ابن نباتة» (ص٣٢٠). وانظر: «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (١٠/ ١١٦)، و«حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ١١٧).

(٣) من قوله: «في ربيع الآخر...» إلى هنا من (خ).

(٤) السِّماط: ما يمد ليوضع عليه الطعام. انظر «تاج العروس» للزبيدي، و«المعجم الوسيط» (مادة: سمط).

(٥) الأوباش: هم الأخلاط من الناس السَّفلة، مفردها: الوبش. انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (مادة: وبش).

[الناصر حسن]

ثمَّ تولَّى الملكُ النَّاصرُ حسنٌ: أخوهُ، وعمرُهُ إحدَى عشر سنةً، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وتسعةً وخمسينَ يومًا ثم خُلعَ، وحُبِسَ بالقلعةِ.

[الصالح صالح]

ثم تولَّى الملكُ الصَّالحُ صالحٌ: أخوه، وهو الثَّامنُ ممَّن تسلطَن من أولادِ الملكِ النَّاصرِ محمَّد بن قلاوونَ، فأقامَ ثلاث سنينَ وثلاثةَ أشهرٍ، ثم خُلعَ وحُبسَ في شوالٍ سنةَ خمسٍ وخمسينَ وسبعِمئةٍ، ولم يكُن له منَ السَّلطنةِ إلَّا الاسمُ لغلبةِ شيخو[1] وطازَ[2] وصرغتمش[3] على الأمرِ، فكانوا أهلَ حَلِّ المملكةِ وعَقدِها.

[الناصر حسن]

ثم عادَ الملكُ النَّاصرُ حسنٌ ثانيًا للسلطنةِ، فأقامَ ستَّ سنينَ وسبعةَ أشهرٍ وأيَّامًا، وجملَةُ مدَّتهِ عشرُ سنينَ وأربعةُ أشهرٍ وأيَّامًا.

---

(١) في (ش): «وشيخون». شيخو: هو الأمير الكبير الأتابك سيف الدين الناصري، توفي سنة (٧٥٨هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٢/ ٥٣١).

(٢) طاز: ابن قُطْغاج، الأمير سيف الدين أمير مجلس، أول ما اشتهر ذكره في أيام الصالح إسماعيل، ولم يزل أميراً إلى أن خلع الكامل شعبان، وأقيم المظفر حاجي، فكان هو أحد الأمراء الستة أرباب الحل والعقد.
ولما خلع المظفر، وأقيم السلطان الملك الناصر حسن زادت وجاهته وحرمته. توفي بدمشق، سنة (٧٦٣ هـ). انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٢/ ٥٦٧).

(٣) صرغتمش: الأمير سيف الدين الناصري، رأس نوبة، انفرد بتدبير الملك، وعظم أمره وزاد مكانة، وعزل القضاة بمصر والشام، وغير النواب الكبار، وخضع السلطان الناصر حسن له وصبر عليه وأرخى به طول الإمهال إلى أن أمسكه، سنة (٧٥٩هـ)، وكان ذلك آخر العهد به. انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٢/ ٥٥٧).

ثم حصلَتْ فتنةٌ بينَهُ وبينَ مملوكِه يلبُغا[١]، فتقابلا[٢]، فانكسَرَ السُّلطانُ منه[٣]، وهربَ يريدُ الشَّامَ، فمُسِكَ وقُتلَ عندَ مملوكِهِ يلبُغا[٤] النَّاصريِّ، في جمادى الأُولى عامَ اثنين وستِّينَ وسبعِ مئةٍ.

وفي أيَّامِهِ بنيَ جامعُ شيخونَ سنةَ خمسٍ وخمسينَ، وخانقاه شيخونَ سنةَ ستٍّ وخمسينَ وخانقاه صرغتمش سنةَ سبعٍ وخمسينَ، ومدرسَةُ السُّلطانِ حسنٍ بالرُّميلةِ[٥] سنةَ ثمانٍ وخمسينَ وسبع مئةٍ.

قالَ المقريزيُّ: وليسَ ببلادِ الإسلامِ مسجدٌ[٦] يحكِيها في كبرِ قالبِها، وحسنِ هندامِها، وضخامةِ شكلِها، أقامَ بناؤها ثلاثَ سنينَ متواليةً، وأُرصِدَ لمصروفِها كلَّ يومٍ نحو ألفِ[٧] مثقالِ ذهبٍ[٨].

وسقطَت منارَتُها التي عندَ البابِ، فهلكَ بمكتبِها ثلاثُ مئةِ نفرٍ من الأيتامِ وغيرِهم، فلهَجَ النَّاسُ بزوالِ دولتِهِ، فقتِلَ بعدَ ذلكَ بثلاثةٍ وثلاثين يومًا كما مرَّ.

---

(١) في (خ): «كتبغا». يلبغا: الأمير الكبير سيف الدين اليحيوي الساقي الناصري نائب حماة وحلب ودمشق، ابن الأمير سيف الدين طابُطا، من أكبر الأمراء الخاصكية، ولم يكن عند أستاذه الملك الناصر محمد أعز منه. حبس وقتل خنقًا. انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٥/ ٥٨٤).

(٢) في (ش): «فتقاتلا».

(٣) «منه» من (ش).

(٤) في (خ): «كتبغا».

(٥) الرميلة: تحت قلعة الجبل. انظر: «المواعظ والاعتبار» للمقريزي (٤/ ٢٧٦).

(٦) في (ش): «معبد».

(٧) «نحو ألف» من (خ).

(٨) انظر: «حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ٢٦٩).

وقد وليْتُ مشيخةَ هذه المدرسةِ وباشرتُ فيها التَّدريسَ، فنازَعني فيها بالدُّنيا رجلٌ يقالُ لهُ: إبراهيمُ الميمونيُّ[١]، لهُ من الوظائفِ كلَّ يومٍ نحوُ ألفِ[٢] عثمانيٍّ، ومن العجبِ أن بيدِه عدَّةَ تداريسَ في الفقهِ والفرائضِ والحديثِ، وهو لا يعرِفُ القديمَ من ذلكَ ولا الحديثَ، ولكِن مِنْ عيبِ الدُّنيا لا تعطِي كلَّ أحدٍ ما يستحِقُّهُ، وفي الحديثِ: «إذا وسِّدَ الأمرُ لغيرِ أهلِهِ فانتظروا السَّاعةَ»، رواهُ البخاريُّ[٣].

وكانَ السُّلطانُ حسنٌ سلطانًا[٤] شُجاعًا مِقدامًا كَريمًا عاقِلًا حازِمًا[٥] مدبِّرًا سيوسًا كثيرَ[٦] الصَّدقاتِ.

---

(١) قال المحبي في ترجمة المصنف: ثم تولى المشيخة بجامع السلطان حسن ثم أخذها عنه عصريه العلامة إبراهيم الميموني ووقع بينهما من المفاوضات ما يقع بين الأقران وألف كل منهما في الآخر رسائل. انظر: «خلاصة الأثر» (٤/ ٣٥٨). وترجم للشيخ إبراهيم الميموني فقال: الشيخ إبراهيم بن محمد بن عيسى المصري الشافعي الملقب برهان الدين الميموني الإمام العلامة الفهامة المحقق المدقق خاتمة الأساتذة المتبحرين، كان آية ظاهرة في علوم التفسير والعربية، أعجوبة باهرة في العلوم العقلية والنقلية، حافظًا متفننًا متضلعًا من الفنون، مشهورًا خصوصًا عند القضاة وأرباب الدَّولة، وأبلغ ما كان مشهورًا فيه علم المعاني والبيان حتى قل من يناظره فيهما...
وبالجملة فإنه مما اتفقت كلمة الكل على تفرده في عصره وتوحده في وقته، وتصانيفه كثيرة منها: «حاشية على المختصر»، و«حاشية على المواهب اللدنية»، و«حاشية على تفسير البيضاوي» وغيرها، وتوفي يوم الثلاثاء (١٠٧٩). انظر: «خلاصة الأثر» (١/ ٤٥).

(٢) في (ش): «خمس مئة».

(٣) رواه البخاري (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) «سلطانًا» من (ش).

(٥) «حازمًا» من (ش).

(٦) في (ش): «ذا شهامة ووقار كثير البر و».

وفي أيَّامِهِ سنةَ ستٍّ وخمسينَ قالَ السيوطيُّ في «تاريخِهِ»: رسِمَ بضربِ فلوسٍ جددٍ على قدرِ الدِّينارِ ووزنِهِ، وجعِلَ كلُّ أربعةٍ وعشرينَ فلسًا بدرهمٍ، وكانَ قبلَ ذلك العتقِ كلُّ رِطلٍ ونصفٍ بدرهمٍ، قالَ: ومن هنا يُعرَفُ مقدارُ الدَّراهمِ النُّقْرةِ[1] التي جعَلَها شيخو وصرغتمش والسُّلطانُ حسنٌ لأربابِ الوظائفِ، قالَ: فالمرادُ بالدِّرهمِ ثلثا رطلٍ من الفلوسِ[2].

[المنصور محمَّد بن حاجي]

ثم تولى الملكُ المنصورُ محمَّدُ بن حاجي بنُ الناصرِ قلاوونَ: بعدَ عمِّهِ حسنٍ، فأقامَ سنتين وثلاثةَ أشهرٍ، ثم خلعَهُ يلبُغا سنةَ أربعٍ وستِّينَ، وحُبِسَ بالقلعةِ إلى أن ماتَ، في[3] سنةِ إحدى وثمانمئةٍ، وصلَّى عليه برقوقُ[4].

[الأشرف شعبان بن حسين]

ثم تولى الملكُ الأشرفُ شعبانُ بنُ حسينِ بنِ النَّاصرِ بنِ قلاوونَ، وعمرُهُ عشرُ سنينَ، فأقامَ أربعَ عشرةَ سنةً وشهرينِ وخمسةَ عشرَ يومًا، وقتلَ يلبغا بعدَ أن عظمَ أمرُهُ حتى جاوزَ الحدَّ، ثم خُلعَ بمصرَ[5] بمخابرةِ الأمراءِ عندَ توجُّهِهِ للحجِّ.

ومن غريبِ الاتِّفاقِ أنَّ الأمراءَ الذين توجَّهوا معهُ قاموا عليهِ أيضًا في ذلكَ

(١) الدراهم النقرة: هي التي يكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس، وتطبع بدور الضرب بالسّكة السلطانية. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٣/ ٥٠٩).

(٢) انظر: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص٣٥١).

(٣) «في» من (ش).

(٤) «وصلى عليه برقوق» من (ش).

(٥) «بمصر» من (خ).

اليومِ في عقبةِ إيلياءَ، فهربَ منهم إلى القاهرةِ، فوجدَ الفتنةَ، فاختفى، ثم مُسِكَ، وقتلَ خامسَ شهرِ[1] ذي القعدةِ، سنةَ ثمانٍ وسبعينَ وسبعِمئةٍ، وكانَ عمرُهُ أربعةً وعشرينَ سنةً.

ولَمَّا قتلُوه لم يدفِنُوه، بل وضعُوه في قُفَّةٍ مخيَّطةٍ، ورمَوه في بئرٍ حتى ظهرَت رائحَتهُ.

وكان رحمَهُ الله من أجلِّ الملوكِ سماحةً وشهامةً، هيِّنًا ليِّنًا محبًّا لأهلِ الخيرِ والعلماءِ، واقفًا عندَ الأمورِ الشَّرعيةِ، وهو الذي بنى الأشرفيَّةَ تجاهَ القلعةِ برأسِ الرُّميلَةِ، وهُدِمَ أكثرُها بعدَهُ، وكانَت من محاسِنِ الدُّنيا ضاهَى بها الملكُ الأشرفُ مدرسةَ عمِّهِ السُّلطانِ حسنٍ، والذي أمرَ بهدمِها فرجُ بن برقوقٍ، ومكانها الآنَ بيمارستانُ المؤيَّد شيخ.

وفي أيامهِ سنةَ ثلاثٍ وسبعينَ وسبع مئةٍ أُحْدِثَتْ العِمامةُ الخضراءُ للأشرافِ، وفي ذلكَ قالَ بعضُ الشُّعراء:

جعلُوا لأبناءِ الرَّسُولِ عَلامةً إنَّ العلامَةَ شأنُ مَن لم يُشْهَرِ
نورُ النبوَّةِ في كَرِيمِ وجُوهِهِمْ يُغني الشَّريفَ عن الطِّرازِ الأخضَرِ[2]

وفي تلكَ السَّنةِ كانَ ابتداءُ خروجِ الطَّاغيةِ تمرلنكَ[3] الذي أخرَبَ البلادَ، وأبادَ

---

(١) «شهر» من (ش).

(٢) للأديب شمس الدين محمد بن أحمد بن جابر الأندلسي. انظر: «السلوك» للمقريزي (٤/ ٣٤٨)، و«إنباء الغمر» لابن حجر (١/ ١١).

(٣) تمرلنك: اسمه تِيْمور، ونطقوا به: تمور، وتمرلنك، وهو بالتركي الحديد ابن ترغاي بن أبغاي، ولد في قرية تسمى خواجة إيلغار، من أعمال كش، مدينة من مدن ما وراء النهر، وأخباره مستفيضة وكثيرة، وللتوسع انظر: «كتاب عجائب المقدور في أخبار تيمور» لابن عربشاه.

العبادَ، وكان أصلُهُ من أبناءِ الفلاحينَ، ثم صارَ سرَّاقًا وقاطعَ طريقٍ، إلى أن وصَلَ ما وصَلَ، وحصلَ منه(١) ما حصَلَ.

[المنصور علي]

ثم تولَّى الملكُ المنصورُ عليٌّ: ولدُ الأشرفِ شعبانَ، وعمرُه نحوُ سبعِ سنينَ، فأقامَ خمسَ سنينَ وأربعةَ أشهرٍ، وكانَ محجوبًا لصغَرِ سنهِ، والكلامُ لبرقوقٍ، وتوفي يومَ الأحدِ ثالثَ عشرَ صفرٍ، سنةَ ثلاثٍ وثمانينَ وسبعِمئةٍ.

[الصَّالح حاجي]

ثم تولى الملكُ الصَّالحُ حاجِي: أخوهُ(٢)، ولدُ الأشرفِ شعبانَ، وعمرُهُ ستُّ سنينَ، فأقامَ سنةً وستَّةَ أشهرٍ وخمسةَ عشرَ يومًا، والأمرُ في ذلكَ لبرقوقٍ، ثم خُلعَ بمكيدَتهِ، في ثامنَ عشرَ رمضانَ(٣) سنةَ أربعٍ وثمانينَ وسبعِمئةٍ، وهو تمامُ الدَّولةِ القولونيَّةِ التُّركيةِ الكُرديَّةِ.

ومن العجيبِ أنه قد تولَّى مِن ذريَّةِ الملكِ(٤) النَّاصرِ اثنى عشرَ سُلطانًا، ولم تبلُغ سلطنَتُهم كلُّها مدةَ سلطنةِ النَّاصرِ، فإنهُ أقامَ أربعًا وأربعينَ سنةٍ ونصفَ شهرٍ كما مرَّ، ومدَّةُ هؤلاء(٥) ثلاثٌ وأربعونَ سنةً، فسبحانَ الفعَّالِ لما يريدُ.

***

---

(١) «منه» من (ش).

(٢) «أخوه» من (خ).

(٣) «في ثامن عشر رمضان» من (خ).

(٤) «الملك» من (ش).

(٥) «فإنه أقام أربعًا وأربعين سنة ونصف شهر كما مر، ومدة هؤلاء» من (ش).

[الدولة الجركسية]

ثـم جـاءَتِ الدَّولـةُ الجركسـيَّةُ، وكانَ ابتداؤها تاسـعَ عشـرَ رمضانَ سـنةَ أربعٍ وثمانينَ وسـبعِمئةٍ.

وهـم نـوعٌ مـن التُّركِ، وهـم تابعـونَ لملـكِ خـوارزمَ، وكانَ قلاوونُ قـد أكثرَ مـن شـرائِهم واتخاذِهـم مماليـكًا لـه، وكذلـكَ بنـوهُ بعـدَهُ، فكانوا سـببًا فـي زوالِ دولَتِهـم، فأوَّلُهم:

[الظَّاهر برقوق]

الملكُ الظَّاهرُ برقوقٌ: وكانَ اسمُه من قبلُ ألطُنْبُغا، فسمَّاهُ أستاذُه يلبُغا الكبيرُ: برقوقًا؛ لنتوءٍ في عينيهِ، وليسَ في الجراكسةِ مَنْ تسلطَنَ وأبوهُ مسلمٌ غيرُهُ، ولقِّبَ بالظَّاهرِ بإشارةِ السِّراجِ البُلقِينيِّ رضي اللهُ تعالى عنه.

فأقامَ ستَّ سنينَ وسبعةَ أشهرٍ ونصفًا، ثم تحرَّكَ عليهِ يلبُغا النَّاصريُّ من الشَّامِ، وقاتلَهُ بمصرَ، إلى أن خُلِعَ في جمادى الآخرةِ سنةَ إحدى وتسعِينَ، وسُجنَ بالكركِ، وكانَ قد بدأَ بعمارةِ البرقوقيَّةِ في سنةِ ثلاثٍ وثمانينَ، وتمَّت في سنةِ ثمانٍ وثمانينَ(١) وسبعمئةٍ في ولايَتِهِ، ثم انتَهتْ في ولايَتِهِ(٢) الثَّانيةِ.

ثم عادَ الملكُ المنصورُ حاجي بنُ الأشرفِ شعبانَ، الملقَّبُ في الولايةِ الأولى بالملكِ الصَّالحِ، فأقامَ سبعةَ أشهرٍ إلى أن خَلعَ نفسَهُ من السَّلطنةِ عندَ ظهورِ برقوقٍ ثانيًا، في شهرِ المحرَّمِ، سنةَ اثنين وتسعينَ، بعدَ وقعاتٍ بينَهُما لم يُسمَع بمثلِها في سالفِ الدُّهورِ.

---

(١) «ثمان وثمانين» من (ش).

(٢) «ثم انتهت في ولايته» من (خ).

ثم عادَ برقوقٌ ثانيًا، ودخَلَ القاهرةَ، والمنصورُ حاجي عن يمينِهِ، والخليفةُ أمامَهُ، فأقامَ تسعَ سنين وتسعةَ أشهرٍ، فكانَت جملَةُ مدَّتِهِ ستَّةَ عشرَ سنةً وأربعةَ أشهرٍ وخمسةَ عشر يومًا، وتوفِّيَ في شوالٍ سنةَ إحدى وثمانمئةٍ، ودُفِنَ بتربَتِهِ بالصَّحراءِ.

وخلَّفَ من الذَّهبِ العينِ ألفَي ألفِ دينارٍ وأربعمئةَ ألفِ دينارٍ، ومن الأثاثِ ما قيمَتُهُ ألفُ ألفِ دينارٍ وأربعمئةَ ألفِ دينارٍ، سوَى الخيولِ المسوَّمةِ، والبغالِ الفارهةِ، والجمالِ البُختيَّةِ[1]، وكانَ علفُ دوابهِ في كلِّ شهرٍ أحدَ عشرَ ألف أردبٍّ شعيرٍ.

وكانَ حازمًا مهابًا مِقدامًا، محبًّا لفعلِ الخيرِ وللعلماءِ، ويقومُ لهم، ولم يُعرَف أحدٌ من الملوكِ قبلَهُ قامَ لفقيهٍ.

وفي أيَّامهِ بني[2] الجسرُ العظيمُ جسرُ المجامعِ على نهرِ الأردن بالشَّامِ[3]، المعروفُ الآنَ بالشَّريعَةِ[4]، وما ألطفَ قولَ بعضِهِم:

بنى سُلطانُنا بَرقُوقُ جِسرًا — بعَدْلٍ والأنامُ لهُ مُطيعة
مجَازًا في الحقِيقةِ للبَرايا — وأمرًا بالسُّلوكِ على الشَّرِيعة[5]

وفي أيَّامِهِ أرادَ أن ينقُضَ هذه الأوقافَ كلَّها، وقالَ: إنَّها[6] استغرقَتْ نصفَ أراضيهِ، وعقدَ لذلكَ مجلِسًا حافلًا حضرَهُ السِّراجُ البُلقِينيُّ وابنُ جَماعةٍ، والشَّيخُ

---

(١) البختية: الإبل الخراسانية من بين عربية وفالج. انظر: «المحكم والمحيط الأعظم» لابن سيده (٥/ ١٥٥). والفالج: الجمل الضخم.

(٢) في (ش): «أراد أن ينقض بناء».

(٣) «بالشام» من (خ).

(٤) الشريعة: هو نهر الأردن، مصبه في البحر الميت. وانظر: «صبح الأعشى» (٤/ ٨٤).

(٥) لشمس الدين محمد المزين. انظر: «شذرات الذهب» (٩/ ١٧).

(٦) في (ش): «إنما أخذت من بيت المال وقد».

أكملُ الدِّينِ شيخُ الحنفيَّةِ، فقالَ البُلقِينيُّ: أما ما وُقِفَ على العلماءِ وطلبةِ العلمِ فلا سبيلَ إلى نقضِهِ؛ لأنَّ لهم في بيتِ المالِ أكثرَ من ذلك، وأما ما وُقِفَ على فاطمةَ وخديجةَ وعويشةَ فإنَّه يُنقَضُ، ووافقَهُ الحاضرونَ، وكانَ أوَّلُ مَن أحدثَ وقفَ أراضي بيتِ المالِ على جهاتِ الخيرِ كالمدارسِ نورُ الدِّينِ الشَّهيدُ، ثم صلاحُ الدِّينِ لَمَّا استفتى ابنَ أبي عصرونَ[١]، فأفتاهما بالجوازِ على معنى أنَّهُ إرصاد وإفراز لبيتِ المالِ على بعضِ مستحِقِّيهِ ليصِلُوا إليه بسهولةٍ، لأنَّه وقفٌ حقيقيٌّ، إذ من شرطِ الوقفِ كونُه مملوكًا لواقفِهِ[٢]، والإمامُ ليس بمالكٍ لذلكَ، ووافقَ ابنَ أبي عصرونَ على فتياهُ ومرادِهُ جماعةٌ من أئمَّةِ المذاهبِ الأربعةِ في عصرِهِ[٣].

[الناصر فرج]

ثم تولَّى الملكُ النَّاصرُ فرجٌ، أبو السَّعاداتِ بنُ برقوقٍ: وعمرُه نحوُ عشرِ[٤] سنينَ، فأقامَ ستَّ سنينَ وخمسةَ أشهرٍ وعشرةَ أيَّامٍ، ثم خُلعَ سنة ثمانٍ وثمانمئةٍ.

وفيهِ يقولُ أحمدُ المقرئ[٥]:

---

(١) ابن أبي عصرون: عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن علي بن أبي عصرون بن أبي السري، قاضي القضاة شرف الدين أبو سعد التميمي، الحديثي، ثم الموصلي الفقيه، أحد الأعلام، ولي قضاء سنجار، وحران، وديار ربيعة، وتفقه عليه جماعة، وصنف التصانيف، وانتفع به خلق، وانتهت إليه رياسة المذهب، توفي في دمشق سنة: (٥٨٥ هـ).

(٢) في (ش): «كالواقفة» بدل «مملوكًا لواقفه».

(٣) انظر: «الحاوي للفتاوى» للسيوطي (١/ ١٤٨).

(٤) في (ش): «عشرين».

(٥) أحمد المقرئ: هو أحمد بن عبد الله بن الحسن بن طوغان بن عبد الله الشهاب الأوحدي، كان ضابطًا متقنًا ذاكرًا لكثير من القراءات وتوجيهها وعللها، حافظًا لكثير من التاريخ سيَّما أخبار المصريين، مع معرفة النحو والعروض والنظم الحسن والحفظ في الفقه لمذهب =

مَضَى الظَّاهِرُ السُّلطانُ أكرَمُ مالِكٍ إلى ربِّهِ يرقَى إلى الخُلدِ في الدَّرَج
وقالوا ستَأتي شدَّةٌ بعدَ موتِهِ فأكذَبهم ربي وما جا سِوى (فرَج)[1]

وفي أيَّامِهِ اختلفَتْ عليهِ أمراءُ الشَّامِ، فخرَجَ لقتالهم، فحصرَهم[2] واضطربَتِ الأحوالُ، فوصَلَ تمرلنكُ لبلادِ الشَّامِ والرُّومِ، فسفَكَ دماءَ المسلمينَ، وسبَى ذرارِيهم، ونهَبَ أموالَهم، وأحرقَ دورَهم، وأسرَ أميرَ الشَّامِ وقتلَهُ، فخرَجَ النَّاصرُ فرجٌ لقتالِهِ فوجدَهُ قد ترَكَ البلادَ وتوجَّهَ للرُّومِ، فرجعَ النَّاصرُ إلى مصرَ، وكثرَتِ الفتنُ وخربت بلادُ مصرَ، ووهيَ أمرُه، فهرَبَ واختفَى وخُلِعَ كما مرَّ.

[المنصور عبد العزيز]

ثم تولَّى الملكُ المنصورُ عبدُ العزيزِ: أخوهُ، فأقامَ سبعةً وأربعينَ يومًا، فتلاشَتْ أمورُ المملكةِ؛ لصغَرِ سنهِ واختلافِ دولَتِهِ، ثم ظهرَ النَّاصرُ فرجٌ، ومسكَهُ وحبسَهُ بالإسكندريةِ في ثالثَ عشرَ جمادى الأوَّلِ، وقُتِلَ بها عقِبُهُ في سنةِ ثمانٍ وثمانمئةٍ.

[الناصر فرج]

وعادَ النَّاصرُ فرجُ بنُ برقوقٍ: إلى السَّلطنةِ ثانيًا، وتخالفَتْ عليهِ الأمورُ، ووقعَتِ الفتنُ، فأقامَ ستَّ سنينَ وتسعةَ أشهرٍ، وكان منهُ ما كانَ من ذبحِ جُندِهِ وغيرِ ذلكَ، ثم

= الشَّافعي، وكثرة التعصب للدولة التركية. انظر: «الضوء اللامع» للسخاوي (١/ ٣٥٨).

(١) في (خ): «الفرج». انظر: «السلوك» للمقريزي (٥/ ٤٤٩)، و«النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (١٢/ ١٦٨).

(٢) في (ش): «فهزمهم».

قُتلَ شرَّ قِتلةٍ بدمشقَ في حادِي عشرَ صفرٍ سنةَ خمسَ عشرةَ وثمانمئةٍ، وألقيَ على مزبلةٍ، ثم دفِنَ في ثالثِ يومٍ وعمرُهُ دونَ الأربعِ وعشرينَ سنةٍ.

وكانَ أفرسَ ملوكِ التُّركِ بعدَ الأشرفِ خليلٍ، تجهزَ سبْعَ مراتٍ للخروجِ للشَّامِ وتهديدِها وقهرِ مُتغلِّبيها كالمؤيَّدِ شيخ وغيرِه.

وفي أيَّامِهِ أحدثَ المؤذِّنونَ عقِبَ الأذانِ الصَّلاةَ والتَّسليمَ على النَّبيِّ ﷺ بأمرِ المحتسبِ نجمِ الدِّينِ الطُّنْبُذِيِّ(١).

[المستعين بالله أبو الفضل العباس]

ثم تولى أميرُ المؤمنينَ الخليفةُ المستعينُ باللهِ الملكُ العادلُ أبو الفضلِ العبَّاسُ بنُ المتوكِّلِ العباسيُّ، وفيهِ يقولُ الحافظُ ابنُ حجرٍ:

المُلْكُ أصبَحَ ثابتَ الأساسِ ... بالمستَعِينِ العادِلِ العبَّاسِي

رجَعتْ مكَانةُ آلِ عمِّ المصطَفَى ... لمحَلِّها من بعدِ طُولِ تَنَاس(٢)

وهيَ طويلةٌ، فأقامَ ستةَ أشهرٍ وأيامًا، ثم خُلعَ من السَّلطنةِ في مستهلِّ شهرِ شعبانَ من سنتِهِ، وكانَ قد استنابَ المؤيدَ شيخ وشاركَهُ في الخطبةِ، والأمرُ لشيخٍ فتغلَّبَ على السَّلطنَةِ، وخلعَ المستعينَ من الخلافةِ، وبايعَ بالخلافةِ أخاهُ داودَ سنةَ خمس عشرةَ وثمان مئةٍ.

---

(١) نجم الدِّين محمَّد بن عمر بن محمد الطنبذي: وكيل بيت المال، ثم محتسب القاهرة، توفي سنة (٧٩٨هـ). انظر: «السلوك» للمقريزي (٥/ ٤٢٣). وفي «سلك الدرر» لأبي الفضل الحسيني (٣/ ١٥٧): نجم الدين الطنبذي: كان شيخاً جهولاً وبلهانًا مهولًا سيء السيرة في الحسبة والقضاء متهافتاً على الدرهم ولو قاده إلى البلاء.

(٢) انظر: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص٥٠٦).

[المؤيَّد أبو النَّصر شيخٌ المحمودِيّ]

ثم تولَّى الملكُ المؤيَّدُ أبو النَّصرِ شيخٌ المحمودِيّ، الظَّاهري برقوقٌ: وأقامَ الخليفةَ في القلعةِ محبوسًا إلى أن أرسلَهُ إلى الإسكندريةِ، ثم في شهرِ المحرَّمِ سنةَ تسعَ عشرةَ وثمان مئةٍ، وصحبتُهُ أولادُ النَّاصرِ فرجٍ، فأقامَ المؤيَّدُ ثمانَ سنينَ وخمسةَ أشهرٍ، وتوفِّيَ يومَ الثُّلاثاء من شهرِ المحرَّمِ سنةَ أربعٍ وعشرينَ وثمان مئةٍ.

وخرجَتْ عنهُ الشَّامُ، فتجهَّزَ للقتالِ إلى أن مهَّدَها، ثم خرجَتْ ثانيًا فتجرَّدَ[1] ثانيًا وقتلَ أمراءَها ومهَّدَها، ثم تجرَّدَ مرَّة ثالثةً إلى بلادِ الشَّامِ، وافتتحَ قلاعًا كثيرةً، ثم قامَ في أرغدِ عيشٍ، فاعتراهُ وجعُ المفاصِلِ، حتى أُقعِدَ، فصارَ يحملُ على الأكتافِ إلى أن ماتَ.

وكانَ سلطانًا شُجَاعًا مِقدامًا مُهابًا، عارفًا بأنواعِ الفروسيَّةِ ومكرِ الحروبِ، معظِّمًا للشَّريعةِ محبًّا للفقهاءِ والعلماءِ.

وفي أيَّامهِ بُنيَتِ المدرسةُ المؤيديَّةُ، بَدأ فيها سنةَ سبعَ عشرةَ، وكملَتْ في سنةِ عشرينَ وثمان مِئةٍ.

وفي سنةِ ثماني عشرةَ أرسلَ المؤيَّدُ مِنبرًا حَسنًا للمسجدِ الحرامِ، ودرجةً يُصعدُ عليها للكعبةِ.

وفيها عمَّرَ شريفُ مكَّةَ حسنُ بن عجلانَ جدُّ أشرافِ مكةَ الآنَ البيمارستانَ وقفَ المستنصرِ العباسيِّ بعدَ دثورِهِ[2].

---

(١) في (ش): «فتجهز».

(٢) «البيمارستان العباسي بعد دثوره» سقط من (خ).

[المظفر أحمد أبو السعادات]

ثم تولَّى الملكُ المظفَّرُ أحمد[١] أبو السَّعاداتِ ولدُ المؤيَّدِ: وعمرُهُ دون سنتينِ، والأمرَ لططرَ فأقامَ سبعةَ أشهرٍ وأيَّامًا، ثم خُلِعَ بالشَّامِ بعدَ فتنٍ وحروبٍ وقعَت بأرضِ مصرَ والشَّامِ.

وسبب كونِ الأمرِ كان[٢] لططرَ ما ذكرَ بعضُ فقهاءِ الحنفيَّةِ له أنَّ في فروعِ المذهبِ أن السلطانَ إذا كان صغيرًا وأجمعَ أهلُ الشَّوكةِ على إقامةِ رجلٍ للتَّحدثِ عنهُ في أمورِ الرَّعيَّةِ حتى يبلُغَ رشدَهُ نفذَتْ أحكامُه.

[الظَّاهرُ طَطَرُ أبو الفتحِ]

ثم تولى الملكُ الظَّاهرُ طَطَرُ أبو الفتحِ: تاسعَ عشري شعبانَ، بدمشقَ سنةَ أربعٍ وعشرينَ وثمان مئةٍ، فأقامَ ثلاثةً وتسعينَ يومًا، وتوفِّيَ في خامسِ ذي الحجَّةِ سنةَ تاريخهِ، ودفِنَ بجوارِ الإمامِ اللَّيثِ بالقَرافَةِ.

وكانَ ملكًا جليلًا، عاليَ الهمَّةِ، يحبُّ مجالسة العلماء أهل الفضل.

[الملك الصَّالح محمَّد]

ثم تولَّى الملكُ الصَّالحُ محمَّدٌ: ولدُهُ، وعمرُه نحو عشر سنينَ، فأقامَ أربعةَ أشهرٍ ويومينِ، وخُلِعَ في ثامنِ ربيعِ الآخرِ، سنةَ خمسٍ وعشرينَ وثمان مئةٍ، وأقامَ إلى أن ماتَ في الطَّاعونِ، سنةَ ثلاثٍ وثمانينَ وثمان مئةٍ[٣].

---

(١) «أحمد» من (خ).

(٢) «كان» من (خ).

(٣) من قوله: «ثم تولَّى الملكُ الصالحُ محمدٌ...» إلى هنا من (ش).

[الأشرف أبو النصر بُرُسْبايْ]

ثم تولَّى الملكُ الأشرفُ أبو النَّصرِ[١] بُرُسْبايْ الدّقمَاقيُّ: سنةَ خمسٍ وعشرينَ، وهو ثامنُ ملوكِ الجراكسةِ، فأقامَ سلطانًا ستَّ عشرةَ سنةً وثمانيةَ أشهرٍ وخمسةَ أيَّامٍ.

وتوفِّيَ في[٢] نهارِ السَّبتِ ثالثَ عشر ذي الحجَّةِ الحرامِ، سنةَ إحدى وأربعينَ وثمان مئةٍ، ويقالُ: قتلَهُ ابنه يوسفُ[٣]، ودفنَ بتربتِهِ التي أنشأها خارجَ بابِ النَّصرِ، بجوارِ تربةِ الظَّاهرِ برقوق رحمه اللهُ تعالى.

وكانَ سلطانًا جلِيلًا شهمًا[٤] مدبِّرًا عاقِلًا، يميلُ إلى الخيرِ وسماعِ القرآنِ، ويصومُ الخميسَ والإثنينِ، وأيَّامَ البيضِ وأوَّلَ الشَّهرِ وآخرَهُ، ويجلُّ أهلَ الصَّلاحِ.

وفي أيَّامِهِ بنى المدرسَةَ الأشرفيَّةَ التي بالعنبرانيينَ بالقاهرةِ المحروسةِ، والتُّربةَ خارجَ بابِ النَّصرِ، والمدرسةَ بالخانكاه السّرياقُوسيَّةِ.

وفُتحَتْ جزيرةُ قبرصَ[٥] في أيَّامِهِ سنةَ تسعٍ وعشرينَ وثمان مئةٍ، وهو في تختِ مملكتِهِ بمصرَ لم يتحرَّكْ؛ لحسنِ تدبيرِهِ وسياسَتِهِ[٦] بعدَ أن وجَّهَ لها نحوَ الخمسينَ مركبًا، وأُحضِرَ ملِكُها أسيرًا، ومنَّ عليهِ وأعادَهُ إلى بلدِهِ بمن شاءَ من جماعتِهِ، وصارَ يرسِلُ الجزيةَ في كلِّ سنةٍ، وأمرَ بعمارةِ أماكنَ متعددةٍ بالمسجدِ الحرامِ، وكانَت سفرَتهُ المشهورَةُ إلى آمدَ وديارِ بكرٍ، سنةَ ستٍّ وثلاثينَ وثمان مئةٍ.

---

(١) «أبو النصر» من (ش).

(٢) «في» من (ش).

(٣) «ويقال قتله ابنه يوسف» من (ش).

(٤) «شهمًا» من (ش).

(٥) في (ش): «قبرس».

(٦) «وسياسته» من (ش).

ولـهُ الأوقـافُ العظيمـةُ علـى أنـواعِ الخيـراتِ والقُربِ، فـاللهُ تعالـى يرحمُهُ ويسامحُهُ.

[العزيز أبو المحاسن يوسف]

ثم تولَّى الملكُ عبدُ العزيزِ[1] **أبو المحاسِنِ يوسفُ**: ولدُهُ[2] فأقامَ ثلاثةَ أشهرٍ وستةَ أيامٍ، وخلِعَ تاسعَ عشرَ ربيعِ الأولِ عامَ اثنينِ وأربعينَ، وأقامَ أيَّامًا، وجهِّزَ للإسكندريَّةِ، وأقامَ بها، وماتَ بها في أيَّامِ الظَّاهرِ خشقدم.

[الظاهر أبو سعيد جقمق]

ثم تولَّى الملكُ الظَّاهرُ أبو سعيدٍ جَقمَقُ العلائيُّ عليُّ بنُ إينالَ: فأقامَ أربعَ عشرةَ سنةً وعشرةَ أشهرٍ، وتوفِّيَ ليلةَ الثُّلاثاءِ، ثالثَ صفرٍ سنةَ سبعٍ وخمسينَ وثمان مئةٍ، بعدَ أن فوَّضَ أمرَ السَّلطنةِ لولَدِهِ في حادي عشرَ شهرِ المحرَّمِ في ابتداءِ توعُّكِهِ، ودُفنَ بتربةِ الأميرِ قايتباي الجركسِيِّ.

وكانَ قد خرَجَ عن طاعتِهِ نائبُ حلبَ ونائبُ دمشقَ، فجرَّدَ لهما العساكِرَ وقتلَهما، ثم صفَا لهُ الوقتُ، وغزا في أيامِهِ رُودِسَ[3] ولم يفتَحها.

وعُمِّرَ في أيَّامِهِ أشياءُ كثيرةٌ من مساجدَ وجوامِعَ وقناطرَ وجسورٍ وغيرِ ذلكَ ممَّا فعلَهُ هو وأربابُ دولَتِه، وعمَّرَ عينَ حنينٍ، وأصلَحَ مجاريَها، وعمرَ مسجدَ

---

(١) كذا في النسختين: «عبد العزيز»، والمشهور في كتب التاريخ: «العزيز». انظر: «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (١٦/ ٣٢٦)، و«نظم العقيان» للسيوطي (ص١٧٩).

(٢) في (خ): «ابنه يوسف» بدل «يوسف ولده».

(٣) رودس: جزيرة في البحر المتوسط، مقابل الإسكندرية على ليلة منها في البحر، فتحها السلطان سليمان القانوني. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٣/ ٧٨)، و«المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» لموستراس (ص٢٧٨).

الخَيفِ بمنى، وجدَّدَ في الحرِم الشَّريفِ مواضعَ، ورمَّمَ الكعبةَ، وصرفَ مالًا عظيمًا في جهاتِ الخيرِ، وله مآثرُ حميدةٌ.

وكانَ مغرَمًا بحبِّ الأيتامِ والإحسانِ إليهم وإلى غيرِهم، متواضِعًا، محبًّا للفقراءِ(١) والعلماءِ والصَّالحينَ، جوادًا برًّا طاهرَ الفمِ والذَّيلِ(٢)، فقيهًا(٣) فاضلًا شُجاعًا، عارِفًا بأنواعِ الفروسيَّةِ، وكانَ يقومُ لمن يدخُلُ عليهِ من الفقهاءِ والفقراءِ رحمَهُ الله تعالى.

[المنصور عثمان أبو السعادات]

ثم تولَّى الملكُ المنصورُ ولدُهُ عثمانُ أبو السَّعاداتِ: فأقامَ أربعينَ يومًا، وخُلعَ في مستهلِّ ربيعِ الأولِ سنةَ سبعٍ وخمسينَ وثمان مئةٍ بعدَ حروبٍ كثيرةٍ، ثم جُهِّزَ للإسكندريةِ.

[الأشرف أبو النصر إينال]

ثم تولَّى الملكُ الأشرَفُ أبو النَّصرِ إينالُ العلائيُّ النَّاصريُّ: ثامنَ شهرِ ربيعِ الأوَّلِ، فأقامَ ثمانَ سنينَ وشهرَينِ وستَّةَ أيَّامٍ، وتوفِّيَ يومَ الخميسِ، خامسَ عشرَ جمادى الأُولى، سنةَ خمسٍ وستِّينَ وثمان مئةٍ، بعدَ أن فوَّضَ لولدِهِ السَّلطنةَ، ودُفنَ بتُربتِهِ التي أنشأها في الصَّحراءِ في القبَّةِ بجوارِ مدرسَتهِ.

وكانَ قليلَ السَّماعِ للكلامِ في النَّاسِ، قليلَ سفكِ الدِّماءِ، مُتجاوزًا عن الخطأِ والتَّقصيرِ، إلَّا أن مماليكَهُ ساءَت سيرَتُهم في النَّاسِ، وكانَ أمِّيًّا لا يحسِنُ الكتابةَ ولا القراءةَ.

---

(١) في (ش): «للفقهاء».

(٢) طاهر الذيل: كناية عن العفة. انظر: «رسائل الثعالبي» (ص٧٥).

(٣) «فقيها» من (خ).

[المؤيَّد أحمد أبو الفتح]

ثم تولَّى الملكُ المؤيَّدُ أحمدُ أبو الفتحِ: ولدُهُ، فأقامَ خمسةَ أشهرٍ وأربعة أيَّامٍ، وخُلِعَ يومَ الأحدِ، تاسعَ عشرَ رمضانَ، سنةَ خمسٍ وستِّينَ وثمان مئةٍ.

وكانَ قد ساسَ النَّاسَ أحسنَ سياسةٍ، وأُمِّنتِ السُّبُلُ في أيَّامِهِ، وقمعَ مماليكَ أبيهِ، فانكفؤوا، وكانَ أحسنَ ملوكِ مصرَ وجهًا ومعرفةً، وتدبيرًا وسياسةً، إلَّا أنَّه لم يجِدْ له مُعينًا ولا مُنصفًا، بل تحامَلُوا عليهِ وخلعُوهُ من غيرِ موجبٍ؛ لأنَّ الدَّهرَ لا ينصِفُ مثل هذا ولا يرفَعُ إلَّا ناقصًا[1].

[الظَّاهر أبو سعيد خشقدم]

ثم تولَّى الملكُ الظَّاهرُ أبو سعيدٍ خشقدمُ: النَّاصريُّ ثم المؤيديُّ، فأقامَ ستَّ سنينَ وخمسةَ أشهرٍ واثنينِ وعشرينَ يومًا، وتوفِّيَ يوم السَّبتِ، عاشرَ ربيعِ الأوَّلِ، عامَ اثنينِ وسبعينَ وثمان مئةٍ، ودفنَ بتربتهِ التي أنشأها بالصَّحراءِ.

قالوا: وهوَ السُّلطانُ الأوَّلُ من الأروامِ[2] بالدِّيارِ المصريةِ، إن لم يكُنِ المعزُّ أيبكُ التُّركمانيُّ ولاجينُ من الأروامِ.

وكانَ له معرفةٌ بفنونِ الفروسيَّةِ، وله حذقٌ ومعرفةٌ، وعندهُ مشاركةٌ في علمِ القراءةِ، وفيهِ محاسنُ لولا طمعٌ وشحٌّ كانَ فيهِ، وأفعالُ مماليكه[3] الأجلابِ في النَّاسِ، ولذلك طلبَ النَّاسُ زوالَهُ.

---

(١) من قوله: «ثم تولى الملك المؤيد» إلى هنا من (ش).

(٢) الأروام: جمع رومي. انظر: «تاج العروس» للزبيدي (مادة: روم).

(٣) في (خ): «مماليك أبيه».

[الظاهر أبو سعيد يلباي]

ثم تولَّى الملكُ الظَّاهرُ أبو سعيدٍ يلباي العلائيُّ المؤيدِيُّ[١] **الجركسيُّ** يومَ وفاةِ الظَّاهرِ خشقدم، فأقامَ سبعةً وخمسينَ يومًا، وليسَ له من السَّلطنَةِ إلَّا مجرَّدُ الاسمِ، وخُلعَ يومَ السَّبتِ سابعَ جمادى الأولى، وجهزَ للإسكندريةِ، وأقام بها إلى أن ماتَ.

[الظَّاهرُ أبو سعيدٍ تمربُغا]

ثم تولَّى الملِكُ الظَّاهرُ أبو سعيدٍ تمربُغا[٢] **الظَّاهريُّ** يومَ خَلْعِ يلباي، فأقامَ ثمانيةً وخمسينَ يومًا، وخلِعَ يومَ الإثنينِ ثالثَ رجبٍ، عامَ اثنينِ وسبعينَ وثمان مئةٍ، وجُهِّزَ مكرمًا على أحسنِ حالٍ إلى ثغرِ دمياطَ، ثم أُعيدَ إلى إسكندريَّةَ ليسكُن بها في أيِّ مكانٍ شاءَ، فأقامَ بها[٣] إلى أن ماتَ.

وكانَ جامعًا بين فنونِ العلمِ والفروسيَّةِ والذَّكاءِ، والفصاحةِ وفنونِ السِّياسةِ وأنواعِ الكمالِ، قالوا: لم يلِ مصرَ مَنْ يُشبِهُهُ، بل ولا يقارِبهُ، إلا أنَّ الدَّهرَ غيرُ مُنصِفٍ.

[الأشرفُ قايتباي]

ثم تولَّى الملكُ الأشرفُ قايتباي الظاهريُّ المحموديُّ نسبةً للخواجا محمود جالبِهِ، وللظَّاهرِ جقمقَ مُعتقِهِ، وهو السَّادسَ عشرَ من ملوكِ الجراكسةِ، والحادي والأربعونَ من ملوك التُّركِ.

بويعَ يومَ خَلْعِ الظَّاهر تمربُغا، وذلكَ يومَ إثنين ثالثَ رجبٍ، عامَ اثنينِ وسبعينَ

---

(١) «المؤيدي» من (خ).

(٢) تمربغا: اسم تركي مركب من كلمتين: (تمر) بمعنى الفحل، (بغا) بمعنى الحديد، فيكون معناه: فحل الحديد. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٥/ ٤٠١).

(٣) «بها» من (خ).

وثمان مئةٍ، فأقامَ(١) في السَّلطنةِ تسعًا وعشرينَ سنةً وأربعةَ أشهرٍ وعشرينَ يومًا، وتوفِّيَ آخرَ نهارِ الأحدِ، ودفنَ يومَ الإثنين ذي القعدةِ، سنةَ إحدى وتسع مئةٍ، بقُبَّةٍ بناها بتربته بالصَّحراءِ شرقي القاهرةِ، وقبرُهُ ظاهرٌ يزارُ، رحمهُ الله تعالى.

وكانَ ملكًا جليلًا(٢) وسُلطانًا نبيلًا(٣)، لهُ اليدُ الطُّولى في الخيراتِ، والطَّولُ الكاملُ في إسداء المبرَّاتِ، وكانَت أيَّامهُ كالطِّرازِ المذْهَبِ، وهوَ واسطةُ عقدِ ملوكِ الجراكسةِ وأطولُهم مدةً، واستقرَّ له الملكُ في أيَّامِهِ.

وسارَ في المملكةِ بشهامةٍ ما سارَها ملكٌ قبلَهُ من عهدِ النَّاصر محمَّدِ بنِ قلاوونَ، بحيثُ إنَّه سافرَ من مصرَ إلى الفراتِ في طائفةٍ يسيرةٍ من الجندِ، ولم يولِّ بمصرَ صاحبَ وظيفةٍ دينيَّةٍ كالقضاةِ والمشايخِ والمدرِّسينَ إلَّا أصلَحَ الموجودِين لها بعدَ طولِ تروِّيهِ وتمهُّلِه.

وسافرَ إلى الحجازِ برسمِ الحجِّ سنةَ أربعٍ وثمانينَ قبلَ حريقِ المسجدِ النَّبويِّ، فبدأ بزيارةِ المدينةِ، وفرَّقَ بها ستَّةَ آلافِ دينارٍ، ثم قدِمَ مكَّةَ وفرَّق بها خمسةَ آلافِ دينارٍ.

وحجَّ وعادَ، وزُيِّنتِ البلدُ لقدُومِهِ، وأنشأَ بمكَّةَ عندَ بابِ السَّلامِ مدرسةً لطيفةً، وقرَّر بها شيخًا وصوفيَّةً، وبجانِبها رباطًا للفقراءِ، وعمِلَ بالمدينةِ المنوَّرةِ مدرسةً، وجدَّدَ المنبرَ والحُجرةَ، ورتَّبَ لأهلِ المدينةِ والوارِدينَ لها ما يكفِيهم، وعملَ أيضًا ببيتِ المقدسِ مدرسةً، وبغزَّةَ مدرسةً، ولهُ بصالحية قَطْيَا(٤) جامعٌ، وجدَّدَ من جامعِ

---

(١) في (ش): «وبقي».

(٢) في (خ): «جميلاً».

(٣) «وسلطانًا نبيلاً» من (ش).

(٤) في (ش): «قطيه». وقطيا: منزل على الحدود المصرية، بها توخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم =

عمرِو بن العاصِ بعضَ جِهاتِهِ، وأنشأ مِيضأةَ الجامعِ الأزهرِ، والفِسقِيَّةَ[1] المعتبرةَ، والسَّبيلَ، والمكتَبَ ببابِهِ، والمقامَ الأحمديَّ، والمقامَ الدُّسُوقيَّ، ومدرسةً عظيمةً بثغرِ دمياطَ.

واجتهدَ في بناءِ المشاعرِ العظامِ، كعمارةِ مسجِدِ الخيفِ بمنى، ومسجِدِ نَمِرةَ بعرفةَ، وعمَّرَ بِرْكةَ خُلَيْصٍ[2]، وأجرى العينَ إليها، وعمَّرَ عينَ عرفةَ بعدَ انقطاعِها نحوَ مئةٍ وخمسينَ سنةً، وسقايةَ العبَّاسِ، وأصلَحَ ما بينَ زمزمَ والمقامِ، وأرسلَ للمسجِدِ الحرامِ مِنبرًا عظِيمًا، ولهُ بمصرَ عِدَّةُ مساجدَ وسقاياتٌ وعمائرُ نفيسةٌ، ومسجِدٌ بالرَّوضةِ، كانَ في الأصلِ مسجدًا للفخرِ كاتبِ المماليكِ البحريَّةِ.

وفي أيَّامِهِ سنةَ ستٍّ وثمانينَ وثمان مئةٍ نزلَتْ صاعقةٌ على المئذنةِ بالحرمِ النَّبويِّ فأحرَقتها، واحترَقتْ سقوفُ المسجِدِ الشَّريفِ وما فيهِ من خزائنَ وكتبٍ، ولم يبقَ سوى الجُدرانِ، وكانَ أمرًا مهولًا، وفي أيَّامِهِ خرجَ يشبَكُ الدَّوادارُ إلى جهةِ العراقِ بعسكرِ مصرَ، فالتقَوا مع عسكرِ يعقوب شاه بقربِ الرُّها، فكسِرَ المصريُّونَ، وأُسرَ الدَّوادارُ، وكان يكرَهُ قاضي الحنفيَّةِ الأمشاطِيَّ، وكلٌّ منهُما يودُّ زوالَ الآخرِ، فكانَ قتلُ الدَّوادارِ بشاطئِ الفراتِ وموتُ الأمشاطيِّ بمصرَ في يومٍ واحدٍ.

= ويبحث عما لديهم أشد البحث، وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود. انظر: «رحلة ابن بطوطة» (١/ ٢٣٢).

(١) الفسقية: حوض ماء من رخام، وقد تتوسطه نافورة ماء. انظر: «المعجم الوسيط» (مادة: فسق).

(٢) خليص: حصن بين مكة والمدينة. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ٣٨٦).

[النَّاصر محمَّد أبو السَّعادات]

ثـم تولَّـى الملـكُ النَّاصـرُ محمَّـدٌ[1] أبـو السَّـعاداتِ: ولَـدُ قايتبـاي، بويـعَ بالسَّـلطنةِ بمـرضِ والـدِهِ، قبـلَ موتـهِ بيومٍ، وهو في سـنِّ البلوغِ، في سـادسَ عشـرَ ذي القعـدةِ سـنةِ إحـدى وتسـع مئـةٍ، فأقامَ سـتَّةَ أشـهرٍ ويومينِ، ثـم خُلعَ فـي ثامنَ عشـرَ جمـادى الأولـى بعدَ ثبـوتِ عجزِهِ عـن السَّـلطنةِ بحضـرةِ القضـاةِ والخليفةِ المتـوكِّلِ علـى اللهِ، وأركانِ الدَّولـةِ.

[الأشرف قانصوه]

ثم تولَّى الملكُ الأشرفُ قانصوَه: مملوكُ قايتباي رأسُ العساكرِ، فأقامَ نحوَ إحدى عشر يومًا، وحاصرَ القلعةَ ليدخُلَها، فلم يحصُل له الغرضُ، وحصلَ لهُ ضربةٌ في وجههِ، ثم تحرَّكَ عليهِ العسكرُ، فهرَبَ إلى غزَّةَ، ثم فُقِدَ في وقعةِ خان يونسَ، ولم يُعرَف موتُهُ ولا حياتُهُ.

[النَّاصر محمَّد أبو السَّعادات]

ثم عادَ الملكُ النَّاصرُ محمدُ بن قايتباي للسَّلطنةِ بعدَ ثبوتِ رُشدِهِ، فأقامَ سنةً وستَّةَ أشهرٍ ونصفٍ، ثم شرَعَ في اللَّهوِ واللَّعبِ والشَّعبذَةِ ومخالطةِ الأوباشِ وارتكابِ الفواحشِ، وأمورٍ لا يليقُ ذكرُها، وصدقَ عليه قولُ القائلِ:

مـا المَـوتُ فاعلَمـهُ التَّلَـف لكِنَّــهُ سُــوءُ الخَلَــف

فقُتِـلَ شـرَّ قِتلـةٍ يـومَ الأربعاءِ قُبيـلَ غروبِ الشَّـمسِ، خامسَ عشـرَ ربيعٍ سـنةَ أربـعٍ وتسـع مئةٍ.

---

(١) «محمد» من (ش).

[الظَّاهر أبو سعيد قانصوه]

ثـم تولّـى الملكُ الظَّاهرُ أبو سـعيدٍ قانصوه الأشـرَفيُّ القايتباي، خـالُ النَّاصرِ، أقامتـهُ أختُـهُ مُقـامَ ولدِها، وبذلَت لـهُ الأمـوالَ والخزائنَ، بويـعَ بالسَّـلطنةِ بحضرَةِ الخليفـةِ والقضـاةِ، وقتَ صلاةِ الجمعةِ، سـابعَ عشـرَ ربيعِ الأوَّلِ سـنةَ أربعٍ وتسـع مئـةٍ، وعمـرُهُ فـوقَ العشـرينَ سـنةً، فأقامَ سـنةً وثمانيـةَ أشـهرٍ واثني عشـرَ يومًا، ثم قامَ العسـكَرُ عليـه، فاختفَى.

وكانَ قـد حصَـلَ فـي أيَّامـهِ العـدلُ والأمـنُ، ورتَّبَ للجامـعِ الأزهرِ فـي أيام رمضـانَ الخبـزَ والحرمـزةَ[1]، فصـارَت سُـنَّةً ماضيةً إلـى يومنا، وضاعَـفَ الغوريُّ ذلـكَ في أيَّامـهِ أضعافًـا كثيرةً.

[الأشرف جانبلاط]

ثـم تولَّـى الملكُ الأشـرَفُ جانبـلاطُ[2]: ثانـي الحجَّةِ سـنةَ خمسٍ وتسـع مئةٍ، فاسـتقرَّ فـي السَّـلطنةِ، وجلـسَ علـى سـريرِ الملكِ، فأقامَ نصفَ سـنةٍ وسـتَّةَ عشـر يومًـا، وبنى المدرسَـةَ الجنبلاطيَّةَ خارجَ بـابِ النَّصرِ، ثم خلِعَ، ونفي للإسـكندِريَّةِ.

[العادل طومان باي سيف الدِّين]

ثـم تولّـى الملكُ العـادِلُ طومان باي[3] **سـيفُ الدِّينِ**: وكانَ من أعيـانِ مماليكِ قايتبـاي، بويـعَ بالسَّـلطنةِ بالشَّـامِ، وجلـسَ علـى السَّـريرِ بعـدَ ظهـرِ يـومِ السَّـبتِ، ثامـنَ عشـرَ جمـادى الآخرةِ، سـنةَ خمسٍ وتسـع مئةٍ، وكانَـت مدَّتهُ من حيـنِ تغلُّبِهِ

---

(١) فـي (خ): «الجرمـزة». والحرمـزة: طعام معـروف زمن المماليـك. انظر: «زبدة كشـف الممالك» لغرس الديـن بن شـاهين (ص١٢٥).

(٢) في (ش): «جنبلاط».

(٣) «باي» من (ش).

بالشَّـامِ أربعةَ أشـهرٍ وخمسـةَ عشـرَ يومًا، ومن حينِ بويـعَ بقلعةِ الجبلِ ثلاثةَ أشـهرٍ وثلاثةً وعشـرينَ يومًا.

وبنى مدرسَةَ العادليةَ، وتربةً خارجَ بابِ النَّصرِ، ثم هجَمَ عليهِ العسكرُ، وقتلُوهُ.

[الأشرف أبو النَّصر قانصوه الغوري]

ثم تولَّى الملكُ الأشرَفُ أبو النَّصرِ قانصوه الغوريُّ: يومَ الإثنينِ عيدَ الفطرِ، مستهَلَّ شوَّالٍ، سنةَ ستٍّ وتسع مئةٍ بعدَ أن هابَ الأمراءُ الجلوسَ على تختِ الملكِ، وجعلَ بعضُهم يحيلُ على بعضٍ في[1] الجلوسِ عليهِ، فاتَّفقُوا على الغوريِّ؛ لأنَّهم رأوهُ ليِّنَ العريكةِ، سهلَ الإزالةِ أيَّ وقتٍ أرادُوهُ، وليسَ الأمرُ كما ظنُّوهُ، فقالَ لهم: أقبلُ ذلكَ بشرطِ أن لا تقتُلوني، بل إذا أردتم خلعي وافقتُكم، فاستوثَقَ منهم.

وبويعَ بالقلعةِ[2] بحضرةِ الخليفةِ المستنصرِ باللهِ، والقضاةِ الأربعِ، وأصحابِ الحلِّ والعقدِ، فأقام سلطانًا خمس عشرةَ سنةً وتسعةَ أشهرٍ وخمسةً وعشرينَ يومًا.

وكان ذا رأيٍ وفطنةٍ، كثيرَ الدَّهاءِ والعسفِ، قمعَ الأمراءَ، وأذلَّ المعاندينَ، حتى اشتدَّ ملكُهُ وهيبَتُه، فهادَتهُ الملوكُ، وأرسلَت قصَّادها إليهِ، كملِكِ الهندِ واليمنِ والمغربِ والرُّومِ والمشرقِ والعبدِ والفِرَنجِ، وفكَّ الأسرى منهم.

وكان لـهُ المواكـبُ الهائلةُ، ومهَّـدَ طريقَ الحجِّ، بحيثُ كانَ يسـافرُ إليهِ من مصرَ النَّفـرُ القليـلُ، وكانَ فيـه خصالٌ حسـنَةٌ، وكانَ يصـرِفُ لمطبخِ الجامعِ فـي الأزهرِ في رمضـانَ سـتَّ مئةٍ وسـبعينَ دينارًا، ومئةَ قنطارِ عسـلٍ، وخمس مئـةِ أردبٍّ قمحٍ للخبزِ المفرَّقِ فيهِ.

---

(١) «في» من (ش).

(٢) في (ش): «بقلعة الجبل».

وفي أيَّامِهِ بنى دائرةَ الحجرةِ الشَّريفةِ، وبعضَ أروقةِ المسجدِ الحرامِ، وبابَ إبراهيمَ، وجعَلَ علوَّهُ قصرًا شاهقًا، وتحتَهُ ميضأةٌ، وبنى عدَّةَ خاناتٍ وآبارٍ في طريقِ الحاجِّ المصريِّ، منها خانٌ في العقبةِ والأزلم[١]، وأنشأَ مدرسةً بسوقِ الجملونِ بالقاهرةِ، والتُّربةِ المقابلةِ لها، والمئذنةِ المعتبرةِ بالجامعِ الأزهرِ، والبستانِ تحتَ القلعةِ، والمتنزَّهِ العجيبِ بالملقةِ، وأنشأ مجرَى الماءِ من مصرَ العتيقةِ إلى القلعةِ، وعمَّرَ بعضَ أبراجِ الإسكندريةِ، وغيرَ ذلكَ من جوامعَ وقصورٍ ومنتزَهاتٍ.

إلَّا أنَّهُ يقالُ: كانَ شديدَ الطَّمعِ، كثيرَ الظُّلمِ والعَسْفِ، مُصادِرًا للنَّاسِ في أخذِ أموالهم، وبطلَ الميراثُ في أيَّامِهِ، بحيثُ كانَ إذا ماتَ أحدٌ أُخِذَ مالُهُ جميعُهُ، كذا قالَ القطبيُّ[٢]، فجمَعَ أموالًا عظيمةً، وخزائنَ واسعةً.

وافتتَحَ اليمنَ، واتخذَ مماليكَ لنفسِهِ، فصارُوا يظلِمونَ النَّاسَ، وأظهَرُوا الفسادَ، وأضرُّوا العبادَ، وصارَ يُغضي عنهُم ويُسامحُهم.

ويحكَى أن بعضَ مماليكِهِ اشترَى متاعًا[٣]، ولم يُرض صاحبَهُ في قيمتِهِ، فقالَ لهُ: شرعَ اللهِ، فضربَهُ بالدَّبُّوسِ[٤] فشجَّ رأسَهُ وقالَ: هذا شرعُ اللهِ، فسقَطَ مغشِيًّا عليهِ، ومضَى بالمتاعِ ولم يقدِرْ أحدٌ يتكلَّمُ، فرفَعَ بعضُ الصَّالحينَ يدَيْهِ ودعا على الجندِ وعلى سلطانِهِ بالزَّوالِ، ثم قالَت لهُ نفسُهُ: كيفَ يزولُ ملكُ هذا السُّلطانِ العظيمِ

(١) في (ش): «والألزام». والأزلم: ما بين عقبة أيلة والمدينة، أحد مناهل الحاج المصري، سمي به لأنه لا ينبت به نبات كأنه من الزلم، وهو السهم الذي لا ريش له. كان يقال له قديمًا: الأزنم. انظر: «تاج العروس» للزبيدي (مادة: زنم).

(٢) انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (١٠/ ١٦١).

(٣) في (ش): «شيئًا».

(٤) الدبوس: عَمُود على شكل هراوة مدملكة الرَّأس. انظر: «المعجم الوسيط» (مادة: دبس).

الذي ملأت جنودُهُ وسطوتُه(١) الأرضَ، فلم يمضِ إلَّا القليلُ، ثم وقعَت فتنةٌ بينَهُ وبينَ السُّلطانِ سليمٍ ملكِ الرُّومِ بسببِ إسماعيل شاه، كما سيأتي عندَ ذكرِ السُّلطانِ سليمٍ، فقصدَ كلٌّ منهما الآخرَ في عسكَرَينِ عظِيمَين فالتقَيا بموضعٍ يسمَّى: مرجَ دابق، شمالي حلبَ بمرحلةٍ، في خامسَ عشرَ رجبٍ عامَ اثنينِ وعشرينَ وتسع مئةٍ، فانهزَمَ عسكَرُ الغوريِّ بمكيدَةِ خير بك والغزاليِّ من جماعَتهِ، وفُقِدَ الغوريُّ تحتَ سنابكِ الخيلِ في مرجِ دابق.

ويقالُ: إنه قتلَ في تلكَ الوقعةِ رحمَهُ اللهُ تعالى، وأقامَ السُّلطانُ سليمٌ بعدَ الوقعةِ في بلاد الشَّامِ أشهرًا(٢)، وأمرَ بعمارةٍ على قبرِ الشَّيخِ محي الدِّينِ ابن عربي بصالحِيَّةِ دمشقَ.

[الأشرف طومان باي]

ثم تولَّى تلكَ المدة بمصرَ الملكُ الأشرفُ طومان باي الجركسِيُّ: ابن أخ الغوريِّ(٣) ووقَعَ بينَهُ وبينَ السُّلطانِ سليمٍ حروبٌ يطولُ ذكرُها، ثم سلَّمَ نفسَهُ طائعًا، فقُتِلَ ببابِ زويلةَ، وأمرَ سليمٌ بدفنِهِ بجانبِ مدفنِ الغوريِّ المشهورِ.

وفي آخرِ أيامِ الغوريِّ في حدودِ العشرينَ ظهرَتِ الفِرَنجُ البُرتقانُ(٤) على بنادِرِ(٥) الهندِ، استطرَقُوا بها من بحرِ الظُّلماتِ من وراءِ جبالِ القمرِ منبعِ النِّيلِ، فغاصُوا في أرضِ الهندِ، ووصَلَ أذاهُم وفسادُهم إلى جزيرةِ العربِ وبنادرِ اليمنِ

---

(١) في (خ): «وسلطنته».

(٢) في (ش): «شهر».

(٣) في (خ): «هو للغوريِّ ابن أخيه».

(٤) البرتقان: أو البرتقال، يقصد بهم البرتغال.

(٥) بنادِرُ: مركز إداري تتبعه عدة قرى. انظر: «معجم اللغة العربية المعاصرة» لأحمد عمر (مادة: بندر).

وجُدَّةَ، فلمَّا بلَغَ السُّلطانَ الغوريَّ ذلك جهَّزَ إليهم خمسينَ غُرابًا[١] معَ الأميرِ حسينٍ الكرديِّ، وأرسلَ معه فيها عسكرًا عظيمًا من التُّركِ والمغاربةِ واللُّوندِ[٢]، وجعلَ لهُ جُدَّةَ إقطاعًا وأمرَهُ بتحصِينها، فلمَّا وصلَها حسين الكرديُّ شرعَ في بناءِ سورِها وإحكامِ أبراجِها، وهدمَ كثيرًا من بيوتِ النَّاسِ مع عَسْفٍ وشدَّةِ ظلمٍ، بحيثُ بنى السُّورَ جميعَهُ في دونِ عامٍ.

ثم توجَّهَ بعساكرِهِ إلى الهندِ في حدودِ إحدى وعشرينَ وتسع مئةٍ، فاجتمَعَ بسلطانِ كجراتٍ[٣] خليل شاه، فأكرمَهُ وعظَّمهُ، وهرَبَ الفِرَنجُ عن البنادرِ لَمَّا سمِعوا بوصولِهِ، ثم عادَ حسين الكرديُّ على اليمنِ فافتَتَحها من بني طاهرٍ ملوكِها، وقتلَ سلاطِينَها في عامِ اثنين وعشرينَ وتسع مئةٍ، وترك بها نائبًا في زبيدٍ، اسمُه بُرُسْبايُ الجركسيُّ، وتمَّ الأمرُ الذي لا مزيدَ عليهِ لهُ وللسُّلطانِ الغوريِّ، وإذا تم شيءٌ بدا نقصُهُ، ثم عادَ حسينٌ إلى جُدَّةَ وقدِمَ مكَّةَ، فبلغَهُ زوالُ دولةِ الغوريِّ، ووردَ أمرُ السُّلطانِ سليمٍ بقتلِ حسينٍ الكرديِّ، فأخذَهُ شريفُ مكَّةَ بغتةً وقيَّدهُ وشمِتَ بهِ، وأرسلَهُ لبحرِ جُدَّةَ فغرَّقَهُ فيهِ.

وبطومان باي انقرضَتْ دولةُ الجراكسَةِ، وارتفعَتِ السَّلطنةُ من مصرَ، وعادتْ للنيابةِ كما كانت في صدرِ الإسلامِ، وأوَّلُ نوابِها بعَد سلطنةِ الجراكسةِ: خير بك،

(١) غراب: سفينة شراعية صغيرة. انظر: «تكملة المعاجم العربية» (مادة: غرب).

(٢) اللوند: طائفة من العسكر، عبارة عن مجموع أفراد من أقوام وأجناس وعناصر مختلفة، وكان مقدمهم يختار من ذوي الجسارة والهمة والإقدام والنجدة، ومن يتوسم فيهم الذب والمدافعة عن حقوق الدولة. انظر: «مجلة لغة العرب العراقية» (٣/ ٦٠٧).

(٣) كجرات: أحد أقاليم الهند، فقد كانت الهند تقسم إلى ثلاثة وعشرين إقليمًا. وتعرف بنهر والة، وبأحمد آباد. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٥/ ٧٤)، و«تاج العروس» للزبيدي (مادة: كجرت).

أقامَهُ السُّلطانُ سليمٌ نائبًا بها، واستمرَّ إلى أن ماتَ ودفِنَ بمدرسةِ الخيربكيَّةِ تحتَ القلعةِ بدربِ الوزيرِ، ثم مصطفى باشا، ثم أحمد باشا، وقُتِلَ بعدَ أن تسلطَنَ كما يأتي، وهلُمَّ جرًّا.

فائدةٌ

تولَّى مصرَ اثنانِ وعشرونَ سلطانًا مسَّهمُ الرِّقُّ: أيبكُ التركُمانيُّ، وقطزُ المعزِيُّ، وبيبرسُ الظَّاهرُ، وقلاوونُ، وكتُبغا، ولاجِينُ، وبيبرسُ الجاشنكِيرُ، وبرقوق، والمؤيَّدُ شيخ، وطَطرُ، وبُرُسْبايُ، وجقمَقُ، وإينالُ، وخشقدمُ، وبلبايُ، وتمربُغا، وقايتبايُ، وقانصوه، وطومان باي، وجنبلاطُ، والغوريُّ، وطومان باي ابنُ أخيهِ، آخرُ الدَّولةِ المصريَّةِ الجركسيَّةِ.

قالَ النَّاظمُ فيهِ:

وكانَ شَخْصًا حسَنَ المجالسَة   وهوَ انتهاءُ مدَّةِ الجراكِسَة[1]

وعدةُ سلاطينِ الجراكسةِ اثنان وعشرونَ، ومدَّتهُم مئةٌ وثمانيةٌ وأربعونَ سنةً.

* * *

(١) انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (١٠/ ١٦٢).

[الدَّولة العثمانيَّة]

ثم جاءَتِ الدَّولةُ الرُّوميَّةُ العثمانيَّةُ، ألبسَها اللهُ تعالى لباسَ العزِّ المقرونِ بالدَّوامِ، وحلَّاها بحِلْيةِ النَّصرِ المستمرِّ بمرورِ اللَّيالي والأيَّامِ.

[السُّلطان سليم]

فأوَّلُهم بمصر السُّلطانُ سليمٌ، تولَّى مصرَ مُستهلَّ سنة ثلاثٍ وعشرينَ وتسع مئةٍ، وله عدَّةُ جدودٍ تولَّوا كلُّهم السَّلطنةَ بالرومِ ثم بالقسطنطينيَّةِ العُظمى، ولم يتولَّوا مصرَ، ولا بأسَ بذكرِهم كُلِّهم هنا استِطرادًا لتتمَّ الفائدةُ فأوَّلُهم:

[السُّلطان عثمان]

السُّلطانُ عثمانُ الغازِي بنُ طغريلَ بنِ سليمان شاه، تولَّى سنةَ تسعٍ وتسعينَ وستِّ مئةٍ في أيَّامِ الملكِ النَّاصر محمَّدِ بن قلاوونَ صاحبِ مصرَ، فأقامَ ستًّا وعشرين سنةً، وتوفِّيَ سنةَ خمسٍ وعشرينَ وسبع مئةٍ، وكانَ سليمان شاه جدُّهُ سلطانًا بالمشرقِ في بلادِ ماهانَ قربَ بلخٍ، وأصلُهُ من التُّركمانِ الرَّحالةُ النَّزَّالةُ من طائفةِ التَّتارِ، ويتصل نسَبُهُ إلى يافِثَ بن نوحٍ، كذا قالَ القطبيُّ[(١)].

ونقلَ صاحِبُ «دُررِ الأثمانِ» أنَّ أصلَ منبعِ ملوكِ بني عثمانَ من صميمِ عربِ الحجازِ، وزادَ جماعةٌ من أهلِ التَّاريخِ: أنَّهُ من المدينةِ المشرَّفةِ، واللهُ أعلَمُ بحقيقةِ الحالِ.

فلمَّا ظهرَ جنكز خان أخربَ بلادَ بلخٍ، فخرَجَ سليمان شاه بخمسينَ ألفًا إلى أرضِ الرُّومِ، فغرِقَ بالفراتِ، فدخَلَ ولدُهُ طغريلُ الرُّومَ، فأكرَمهُ السُّلطانُ علاءُ الدِّينِ السَّلجوقيُّ سلطانُ الرُّومِ.

---

(١) انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (٨/ ١٢٢).

فلمَّا ماتَ طغريلُ خلَّفَ أولادًا أمجادًا، أشدُّهم بأسًا وأعلاهُم همَّةً عثمانُ، فنشأ مولَعًا بالقتالِ والجهادِ في الكفَّارِ، فلمَّا أعجَبَ السُّلطانَ علاءَ الدِّينِ السَّلجوقيَّ ذلكَ منهُ أرسلَ إليهِ الرَّايةَ السُّلطانيَّةَ والطَّبلَ والزَّمرَ، فلمَّا ضُرِبَتِ النَّوبةُ[1] بينَ يديهِ قامَ على قدَميهِ تعظِيمًا لذلكَ، فصارَ قانونًا مستمرًا لآلِ عثمانَ إلى الآنَ، يقومونَ عندَ ضربِ النَّوبةِ، ثم بعدَ ذلكَ تمكَّنَ من السَّلطنةِ، وافتتحَ من الكفَّارِ عدَّةَ قلاعٍ وحصونٍ، رحمَه اللهُ تعالى.

[السلطان أورخان]

ثم تولى السُّلطانُ أورخانُ، ولدُهُ، سنةَ ستٍّ وعشرينَ وسبعمئةٍ، فأقامَ خمسًا وثلاثين سنةً، وتوفيَ سنةَ إحدى وستِّينَ وسبعمئةٍ في أيَّامِ السُّلطانِ حسنٍ صاحبِ مصرَ، وكان شديدًا على الكفَّارِ، ففاقَ والدَهُ في الجهادِ وفتح البلادِ، فافتتحَ قلاعًا كثيرةً، وحصونًا منيعةً، وفتحَ بُرسَا[2]، وجعلَها مقرَّ سلطنتِه، هذا كلُّهُ ما ذكرَهُ الشيخُ القطبيُّ[3].

وذكرَ صاحبُ الدُّررِ الثمان في أصلِ منبعِ آلِ عثمانَ: أنَّ عثمانَ جدُّهُ الأعلى من عربِ الحجازِ، وأنَّه هاجرَ من الغلاءِ إلى بلادِ قزمانَ، واتَّصلَ بأتباعِ سلطانها في سنةِ خمسٍ وستِّينَ وستِّمئةٍ، وتزوَّجَ من قونيا، فوُلِدَ لهُ سليمانُ، فاشتهَرَ أمرُهُ بعد عثمانَ، ثم تسلطَنَ سُليمانُ، وهوَ الذي فتَحَ بُرسَا في حدودِ ثلاثينَ وسبعمئةٍ، ثم تسلطَنَ[4]

---

(١) النوبة: غناء مصحوب بالآلات أشبه بلحن أوركسترالي. انظر: «موجز دائرة المعارف الإسلامية» (٢٤/ ٧٦٤٠).

(٢) برسا: هي بروسة وبورسة أو بورصة، مدينة في تركيا الآسيوية، بنيت على سفح جبل. انظر: «المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» لموستراس (ص١٥٧).

(٣) انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (٦/ ١٩٠).

(٤) «سليمان، وهو الذي فتح برسا في حدود ثلاثين وسبع مئة، ثم تسلطن» سقط من (ش).

بعدَ سليمانَ ولدُه عثمانُ جواي الأصغرُ، ويقالُ: هو الذي افتتَح بُرسَا وأنَّهُ أولُ ملوكِ بني عثمانَ، فإنَّهُ استقلَّ بنفسِهِ، واتخذَ لهُ مُلكًا بقائمِ سيفِهِ عن اتِّباعِ السَّلاجقةِ، بخلافِ أبوَيهِ، فإنهما كانا تابِعَين للملوكِ السَّلاجقةِ.

ثم تسلطنَ بعدَ عثمانَ ولدُهُ آران عليٌّ، فعظُمَ أمرُهُ، ونبُلَ قدرُهُ، ثم تسلطَنَ بعدَهُ ولدُه أورخانُ يعني: المتقدِّمُ ذكرُه، انتَهى واللهُ أعلَمُ.

[السُّلطان مراد الأوَّل]

ثم تولَّى السُّلطانُ مرادٌ، ولدُ أورخانَ، سنةَ إحدَى وستِّينَ وسبع مئةٍ، فأقامَ إحدَى وثلاثينَ سنةً- وتوفِّيَ سنةَ اثنينِ وتسعينَ وسبعمئةٍ في أيامِ الظَّاهر برقوقٍ صاحبِ مصرَ، وكانَ شديدَ البطشِ والفَتْكِ في الكفَّارِ، وافتتحَ كثيرًا من البلادِ، ومنها أدرنةُ[1] فُتِحتْ سنةَ إحدى وستِّينَ وسبعمئةٍ، فلما ضاقَ الكفَّارُ ذَرعًا أظهرَ واحدٌ من ملوكِهم الطَّاعةَ لهُ، وقدِمَ يقبِّلُ يدهُ، فضرَبَ السُّلطانَ بخنجرٍ كانَ في يدهِ، فاستُشهِدَ رحمَهُ اللهُ تعالى.

[السلطان بايزيد الأول]

ثم تولَّى السُّلطانُ بُلْدرتمر[2] بايزيدُ، ولدُهُ، سنةَ اثنينِ وسبعينَ وسبع مئةٍ، فأقامَ ثمانًا وعشرينَ سنةً، وتوفِّيَ سنةَ عشرينَ وثمان مئةٍ في أيَّامِ المؤيَّدِ شيخٍ صاحبِ مصرَ.

---

(١) أدرنة: مدينة في تركية الأوربية، قريبًا من الحدود اليونانية، كانت العاصمة الأوربية للدولة العثمانية حتى تم فتح القسطنطينية. انظر: «المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» لموستراس (ص٣٦).

(٢) كذا في (خ)، وفي (ش): «يلزم». وفي بعض المراجع: «ييلدرم» وهو لقب له، ويعني البرق. انظر: «تاريخ الدولة العثمانية العلية» (ص١٣٣، ١٦١). وفي كثير من المراجع: (يلدريم)، انظر: «السلوك» للمقريزي (٧/ ٣٢٣).

وكانَ ملِكًا شَهمًا[١] شُجاعًا، استولى على كثيرٍ من قلاعِ النَّصارى وحصونهم.

ولم يزَل بايزيدُ شأنُهُ في العلا يزيدُ، إلى أن جرَّدَ له[٢] الحَيفُ سيفَ[٣] العناءِ والقهرِ، وطافَ في جِنانِ مُلكِه سمُّ تيمور، الَّذي كانَ من نوائبِ الدَّهرِ، ووافاهُ من رُوَّادِ الرَّدى من لا يغفُلُ عن بايزيدَ ولا عَمرو[٤]، وذلكَ لأنَّه[٥] لَمَّا رامَ أن يستوليَ على ملوكِ الطَّوائفِ، وضيَّقَ على جماعَتِهم، فهربَ منهم جماعةٌ، واستَعانوا عليهِ[٦] بتيمورلنكَ الباغي، وحسَّنوا له الوصولَ لبلادِ الرُّومِ، فوصلَ إلى البلادِ الحلبيَّةِ والشَّاميةِ، وقتلَ وسفَكَ الدِّماءَ، وسبَى الذَّراري، ثم توجَّهَ للرُّومِ فالتقَى مع بايزيدَ، وكانَتْ وقعةً عظيمةً، ثم إنَّ بايزيدَ خدعَهُ عسكرُهُ وانهزَمُوا عنهُ، فثبتَ هوَ وقليلٌ ممَّن معه، مجرِّدًا سيفَهُ لا يطاقُ، فرمَوا عليهِ بساطًا ومسكُوهُ بعدَ أن قاربَ الوصولَ إلى تيمورَ، ثم جعلُوهُ في الحبسِ، فحصَلَ له حمًّى غضبيَّةٌ[٧]،.......................

(١) «شهمًا» من (خ).

(٢) «له» من (ش).

(٣) «سيف» من (خ).

(٤) في (خ): «عمر».

(٥) «لأنه» من (خ).

(٦) «عليه» من (ش).

(٧) حمى غضبية: أي التي سببها شدة الغضب. قال ابن سينا في «القانون» (٣/ ١٣): فصل في حمى يوم غضبية: قد يعرض لفرط حركة الروح إلى خارج في حال الغضب سخونة مفرطة، ويتشبث بالروح حمى. العلامة: احمرار الوجه إلا أن يخالطه فزع فيصفر، وانتفاخ الوجه شبيه بما ينتفخ في الرقبة، وتكون العينان محمرتين جاحظتين لشدة حركة الروح إلى خارج، وربما عرض لبعضهم رعدة بحركة خلط أو لضعف طباع، ويكون الماء أحمر حادًّا يحس بحدته، وله أدنى بصيص، ويكون النبض ضخمًا ممتلئًا شاهقًا متواترًا. المعالجات: هو تسكينهم وشغلهم بالمفرحات من =

فماتَ رحمه اللهُ، فتنازعَ بنوهُ السَّلطنةَ من بعدِهِ، ودامَ القتالُ بينهُم مدةً مديدةً.

[السُّلطان محمَّد الأوَّل]

ثم تولى السُّلطانُ محمَّدٌ، ولدُهُ، سنةَ عشرينَ وثمان مئةٍ، فأقامَ تسع سنينَ، وتوفِّي سنةَ ثمانٍ وعشرينَ وثمان مئةٍ في أيَّام الأشرفِ بُرُسْباي.

وكانَ شجاعًا مِقدامًا مجاهِدًا، فتحَ عدَّةَ قلاعٍ وبلادٍ، وبنى المدارسَ، وعمَّرَ العمائرَ، وهو أوَّلُ من عمِلَ الصَّرَّ[1] للحرمَينِ الشَّريفَينِ مِن آلِ عثمانَ.

[السُّلطان مراد الثَّاني]

ثـمَّ تولَّى السُّـلطانُ مـرادٌ، ولدُهُ، سـنةَ ثمانٍ وعشـرينَ وثمـان مئةٍ، فأقـامَ ثمانًا وعشـرين سـنةً، ثـم خَلَـعَ نفسَـهُ مـن المُلـكِ لولـدِهِ محمَّـدٍ السُّـلطانِ سـنةَ سـتٍّ وخمسـينَ وثمـان مئـةٍ[2]، وتوفِّـيَ سـنةَ أربـعٍ وسـتِّينَ وثمان مئـةٍ في أيام الأشـرَفِ إينـالَ صاحـبِ مصرَ.

وكانَ ملِكًا شـجاعًا، ولـه الفتوحاتُ العديدةُ ببلادِ الـرُّومِ والصَّدقاتُ الجزيلةُ، وكانَ يرسِـلُ الصَّـرَّ للحرمَينِ في كلِّ سـنةٍ ثلاثةَ آلافِ دينارٍ وخمـس مِئةِ دينارٍ[3].

= الحكايات والسماع الطيب واللعب والمناظر العجيبة، وإدخالهم الحمام في ماء فاتر غير كثير الحرارة، وتمرخهم تمريخًا كثيرًا بدهن كثير، فذلك أوفق لهم من الماء الحار، وتغذيتهم بما يبرد ويرطب، ومنعهم الشراب أصلًا، فلا سبيل لهم إليه.

(١) الصَّرُّ عند التجار: ما يُصَرُّ من الدراهم أو الدنانير فيرسل إلى الجهات. انظر: «تكملة المعاجم العربية» لرينهارت (مادة: صرر).

(٢) «وثمان مئة» من (ش).

(٣) «دينار» من (ش).

[السلطان محمد الثاني (الفاتح)]

ثـم تولَّـى السُّـلطانُ محمَّـدٌ، ولدُهُ، فـي حياةِ والدِهِ[١]، سـنةَ سـتٍّ وخمسـينَ، فأقـامَ إحـدى وثلاثينَ سـنةً وتوفِّيَ سـنةَ ثمانٍ وثمانيـنَ وثمان مئةٍ في أيَّامِ الأشـرفِ قايتباي.

وكانَ مـن أعظـمِ الملـوكِ جِهـادًا، وأقواهـم إقدامًـا واجتِهـادًا، وكان مـن أعظَـمِ سـلاطينِ آلِ عثمـانَ، وهـوَ الَّـذي سـنَّ لهـم القوانيـنَ الخاصَّـةَ بهـم إلى[٢] الآنَ.

وفي أيَّامِهِ افتتَحَ القسطنطينيَّةَ الكبرى، وساقَ إليها العساكرَ برًّا وبحرًا، وأقامَ في حِصَارها خمسينَ يومًا، ثم افتتَحها نهارَ الأربعاءِ في جمادى الآخرةِ، سنةَ سبعٍ وخمسينَ وثمان مئةٍ، وصلَّى الجمعةَ في آياصوفيةَ، ثم جعلَها مقرَّ السَّلطنةِ، وبنى بها المدارِسَ، ورتَّبَ الرَّواتبَ[٣].

[بايزيد الثاني]

ثـم تولَّـى السُّـلطانُ بايزيـدُ، ولـدُهُ، سـنةَ سـبعٍ وثمانيـنَ وثمـان مئـةٍ، فأقـامَ إحـدى وثلاثيـنَ سـنةً، وتوفـي سـنة سـبعَ عشـرةَ وتسـع مئـةٍ فـي أيـامِ الأشـرَفِ الغـوريِّ بطريـقِ أدرنـةَ، بعـدَ أن خلـعَ نفسَـهُ لولَـدِهِ سـليمٍ، وكانَ محبًّـا للعلمـاءِ والمشـايخِ والأوليـاءِ.

وفي أيامِهِ تزايدَ الفتحُ ببلادِ الرُّومِ، وفتحَ عدَّةَ قِلاعٍ وحُصونٍ، وبنى المدارِسَ

---

(١) «في حياة والده» من (خ).

(٢) «إلى» من (ش).

(٣) «ورتب الرواتب» من (ش).

والجوامِعَ والتَّكايا[١] والزَّوايا والخوانِقَ[٢]، ودارَ الشِّفاءِ للمرضَى، والحماماتِ والجسورَ، ورتَّبَ للمفتي الأعظَمِ ومَن في مرتبَتِه من العلماءِ لكلِّ واحدٍ في كلِّ عامٍ عشرةُ آلافِ عثمانيٍّ[٣]، وكانَ يرسِلُ للحرمَينِ في كلِّ سنةٍ أربعةَ عشرَ ألفَ دينارٍ نصفُها لمكَّةَ، ونصفُها للمدينةِ.

وفي أيَّامِهِ قاتلَهُ أخوه السُّلطانُ جم على السَّلطنَةِ، ثم انهزَمَ جم إلى مصرَ، وحجَّ في زمنِ السُّلطانِ قايتباي، ثم عادَ فأكرمَهُ قايتباي إكرامًا عظِيمًا، ثم رجعَ للرُّومِ[٤] وقاتَلَ أخاهُ ثانيًا، فهزَمه، فهربَ جم إلى بلادِ النَّصارَى، فأرسلَ بايزيدُ إليهِ من يُسمُّهُ، فحُلِقَ رأسهُ بموسٍ مسمومٍ، فماتَ.

وفي أيَّامه كانَ ظهورُ إسماعيل شاه، فاستَولى على ملوكِ العجَمِ، وأظهَرَ مذهبَ الإلحادِ والرَّفضِ، وغيَّرَ اعتقادَ أهلِ العجَمِ إلى يومنا هذا.

وفي أيَّامِهِ قدِمَ عليهِ خطيبُ مكَّةَ الشَّيخُ محيي الدِّينِ بنُ عبدِ القادرِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ العراقيُّ، والشَّيخُ شهابُ الدِّينِ بنُ الحسينِ شاعرُ البطحاءَ وامتدحَهُ بقصيدةٍ، ولا بأسَ بذكرِ بعضِها لحُسنِ ألفاظِها وعُذُوبتِها ومطلَعُها:

---

(١) التكايا جمع تكية، وهي بالتركي مرادفة لكلمة خانقاه بالفارسي، ومرادفة لكلمة زاوية في أفريقيا. انظر: «موجز دائرة المعارف الإسلامية» (٢٢/ ٦٨٤٨). وتطلق كلمة تكية أيضًا على المكان الذي يأوي إليه فقراء المسافرين. انظر: «تكملة المعاجم العربية» (مادة: تكية).

(٢) الخوانق: جمع خانقاه؛ بقعة يسكنها أهل الصلاة والخير، والصوفية، والنون مفتوحة، معرب: فانه كاه، قال المقريزي: وقد حدثت في الإسلام في حدود الأربع مئة، وجعلت لمتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى. انظر: «تاج العروس» للزبيدي (مادة: خنق).

(٣) عثماني: وعثمانية، تجمع على عَثامنة: قطعة نقد تركية. انظر: «تكملة المعاجم العربية» (مادة: عثم).

(٤) «للروم» من (ش).

خُذُوا من ثنائي مُوجِبَ الحمدِ والشُّكرِ ... ومن دُرِّ لفْظِي طِيبَ النَّظمِ والنَّثرِ
فيا راكِبًا يسري عَلَى بَطنِ ضَامِرٍ ... إلى الرُّومِ يُهدِي نحْوَها طَيِّبَ النَّشرِ
لكَ الخيرُ إن وافيتِ برُسًا فسِرْ بها ... رُويدَكَ لإستَنبُولَ سَامِيةِ الذِّكرِ
لذي مَلِكٍ لا يَبلُغُ الوَصْفُ كُنْهَهُ ... شَرِيفِ المسَاعي نافِذِ النَّهي والأمرِ
إلى بايَزيدَ الخَيرِ والمَلِكِ الذي ... حمَى بيْضَةَ الإسْلامِ بالبِيْضِ والسُّمرِ
وجرَّدَ للدِّينِ الحنيفِ صَارِمًا ... أبادَ بهِ جميعَ الطَّواغِيتِ والكُفرِ
وجاهَدَهُم في اللهِ حقَّ جِهادِهِ ... رجاءً بما يبقَى مِن الفوزِ والأجرِ
لهُ هَيبةٌ مِلءُ الصُّدورِ وصولَةٌ ... مُقسَّمةٌ بينَ المخافَةِ والذُّعرِ
أطاعَ لهُ ما بينَ رُومٍ وفارِسٍ ... ودانَ لهُ ما بَينَ بُصرَى إلى مِصرِ
هوَ البحرُ إلَّا أنَّهُ دائمُ العَطَا ... وذلكَ لا يخْلُو منَ المدِّ والجزرِ
هوَ البدرُ إلَّا أنهُ كامِلُ الضِّيا ... وذاكَ حَلِيفُ النَّقصِ في كامِلِ[1] الشَّهرِ
هو الغيثُ إلَّا أنَّ للغَيثِ مُسْكَةً ... وذا لا يَزالُ الدَّهرَ يَنهَلُّ بالقَطرِ
هو السَّيفُ إلَّا أنَّ للسَّيفِ نَبوةً ... وفَلًّا وذا مَاضِي العَزِيمةِ في الأمرِ
سَلِيلُ بني عُثمانَ والسَّادةِ[2] الأُولى ... عَلَى مجدِهِم فوقَ السِّمَاكَينِ والنَّسرِ
مُلوكٌ كِرامُ الأصلِ طَابَتْ فُروعُهُم ... وهَلْ يُنسَبُ الدِّينارُ إلَّا إلى التِّبرِ
محَوا أثَرَ الكُفَّارِ بالسَّيفِ فاغتَدَت ... بهِم حَوزَةُ الإسْلامِ سَامِيةَ القَدرِ
فيا مَلِكًا فاقَ الملُوكَ مَكارِمًا ... فكُلٌّ إلى أدْنى مَكارِمِهِ يجْري

(١) في (ش): «معظم».
(٢) في (ش): «وأنسابه».

لئن فُقتَهم في رُتبَةِ المُلْكِ والعُلا ... فإنَّ اللَّيالي بَعضُها لَيلَةُ القَدرِ
فدَتْكَ مُلوكُ الأرضِ طُرًّا لأنَّها ... سِرارٌ وأنتَ البدرُ في غُرَّةِ الشَّهرِ
تعالَيتَ عَنهُم رِفعَةً ومَكانَةً ... وذاتًا وأوْصافًا تجِلُّ عنِ الحَصْرِ
سمَوْتَ عُلُوًّا إذ دَنوتَ تَواضُعًا ... وقُمْتَ بحَقِّ اللهِ في السِّرِّ والجَهْرِ
غدَتْ بكَ أرْضُ الرُّومِ تَزهُو ملامةً ... وترفِلُ في ثَوبِ الجَلالةِ والفَخرِ
ألسْتَ ابنَ عُثمانَ الذِي سارَ ذِكرُهُ ... مَسِيرَ ضِياءِ الشَّمسِ في البَرِّ والبَحرِ
يمِينُكَ يروِي عَن عَطاءٍ ونائلٍ ... ووجهُكَ يروِي في البشَائرِ عَن بِشْرِ
وإني لصَوَّانٌ لدُرِّ قَلائدِي ... عنِ البَذْلِ[1] إلَّا فيكَ يا مَلِكَ العَصرِ
فقابِلْ رعَاكَ اللهُ شُكرِي بمِثلِهِ ... فإنَّكَ للمَعرُوفِ مِن أكرَمِ الذُّخرِ
فلا زِلتَ محرُوسَ الجَنابِ مُؤَيَّدًا ... مِنَ اللهِ بالتَّوفيقِ والعِزِّ والنَّصرِ

فأجازهُ عليها بألف دينارٍ، ورتَّبَ لهُ في دفترِ الصَّرِّ كلَّ سنةٍ مئةَ دينارٍ، فكانَت تصلُ إليهِ ثم إلى أولادِهِ من بعدِهِ، وهيَ جديرةٌ بذلكَ، فقد مدحَ بعضُ الشُّعراءِ الخليفةَ المأمونَ بقصيدةٍ فأجازَهُ عليها بخمسينَ ألفَ دينارٍ.

وكانَ للسُّلطانِ بايزيدُ عدَّةُ أولادٍ، وكانَ يتوقعُ العهدَ بالسَّلطنةِ لأكبرِ أولادِهِ أحمدَ، فمالَ العسكرُ إلى ولدِهِ سليمٍ، فتحارَبَ سليمٌ مع والدِهِ ووقعَ بينهما القتالُ، ثمَّ لَمَّا رأى ميلَ العسكرِ إلى ولَدِه سليمٍ عهِدَ إليهِ بالسَّلطنةِ، وانتقَلَ بايزيدُ إلى رحمةِ اللهِ تعالى، ودُفنَ بالقسطنطينيةِ، وعلى قبرِهِ الأُنسُ والجلالةُ.

---

(١) في (خ): «الذر».

[السُّلطان سليم]

ثم تولَّى السُّلطانُ الأعظمُ سليمٌ، ولدُهُ، فاتحُ مصرَ والشَّام، وسائرِ مماليكِ العربِ، في سنةِ سبعَ عشرةَ وتسع مئةٍ، فأقامَ تسعَ سنينَ وثمانيةَ أشهرٍ، وتوفي سنةَ ستٍّ وعشرينَ وتسع مئةٍ.

وكانَ سلطانًا قهَّارًا، وملكًا جبَّارًا، كثيرَ السَّفكِ، قويَّ البَطْشِ، كثيرَ الفَحْصِ عن أخبارِ النَّاسِ، ولما فرغَ من دفنِ والدِهِ خرجَ لقتالِ أخيهِ أحمدَ فهزَمَ عسكرَهُ وأسرَهُ، ثم أمرَ بخنقِهِ، ثم قتلَ إخوتَهُ جميعًا وأولادَهم حتى تمَّ أمرُه.

وفي أيَّامهِ تزايدَ ظهورُ شأنِ إسماعيل شاه، واستولى على سائرِ ملوكِ العجمِ، وملكَ خراسانَ وأذربيجانَ وتبريزَ[1] وبغدادَ وعراقِ العجَمِ[2]، وقهرَ ملوكَهم، وقتَلَ عساكِرَهم، بحيثُ قتلَ ما يزيدُ على ألفِ ألفٍ، وكان عسكرُهُ يسجدُونَ لهُ ويأتمِرونَ بأمرِهِ، وكان يدَّعِي الرُّبوبيَّةَ، وقتلَ العلماءَ، وأحرَق كتُبَهم ومصاحِفَهم، ونبشَ قبورَ المشايخِ من أهلِ السُّنَّةِ، وأخرجَ عِظامَهم وأحرَقَها، وكانَ إذا قتلَ أميرًا أباحَ زوجَتهُ وأموالَهُ لشخصٍ آخرَ.

---

(١) تبريز: أشهر مدن أذربيجان: وهي مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والجصّ، وفي وسطها عدة أنهار جارية، والبساتين محيطة بها، والفواكه بها رخيصة. وقد جعلها هولاكو مقر حكمه. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ١٣)، و«تقويم البلدان» لأبي الفداء (ص٤٠٠).

(٢) «وملك خراسان وأذربيجان وتبريز وبغداد وعراق العجم» من (خ). وعراق العجم: وكانت تعرف ببلاد الجبل، أو بلاد الجبال، وهي سلطنة تلاصق العراق، ويحيط بها من جهة الغرب أذربيجان، ومن جهة الجنوب شيء من بلاد العراق وخوزستان، ومن جهة الشرق مفازة خراسان وفارس، ومن جهة الشّمال بلاد الدّيلم وقزوين، وأعظم من توارث السلطان فيها بنو بويه، من أهم مدنها: أصبهان، وإربل، وشهرزور. انظر: «مسالك الأبصار» (٥/ ١٦٥)، و«صبح الأعشى» للقلقشندي (٤/ ٣٦٦).

ومما يُنسَبُ إليهِ:

نحْـنُ أنـاسٌ غَـلا طبْعُنـا   حُـبُّ عَلـيٍّ بـنِ أبـي طالِـبِ
يعِيبُنـا النَّـاسُ عَلـى حبِّـهِ   فلعنَـةُ اللهِ علـى العَائـبِ

فأجابَهُ بعضُ علماءِ أهلِ السُّنَّةِ:

مـا عَيـبكُم هَـذا ولكنَّـهُ   بُغضُ الـذي لُقِّبَ بالصَّاحِـبِ
وكذِبكُـم عَنـهُ وعَـن بَيتِـهِ   فـلَعنَةُ اللهِ علـى الـكاذِبِ[١]

فلما بلَغَ السُّلطانُ سليمٌ قُبحَ فعالِهِ[٢] تحرَّكت همَّتُه لقتالِه، وعدَّ ذلكَ من أفضَلِ الجهادِ فالتقَى معهُ بقربِ تبريزَ بعسكَرٍ جرَّارٍ، وكانت وقعةً عظيمةً، فانهزَمَ جيشُ إسماعيل شاه، واستولى سليمٌ على خيامِهِ وسائرِ ما فيها، وأعطى الرَّعيةَ الأمانَ، ثم أرادَ الإقامةَ بالعجمِ للتَّمكُّنِ من الاستيلاءِ عليها، فما أمكنَهُ ذلكَ لشدَّةِ القَحطِ بحيثُ، بيعَتِ العليقةُ[٣] بمئتي[٤] درهمٍ، والرَّغيفُ بمئةِ[٥] درهمٍ.

وسببُهُ تخلُّفُ قوافِلِ الميرةِ[٦] التي كانَ أعدَّها السُّلطانُ سليمٌ لتتبَعهُ في مكانِ

---

(١) الشعر من (خ). وينسب بيتا الإجابة إلى المولى أبي السعود. انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (١٠/ ٥٨٥).

(٢) في (ش): «ذلك» بدل «قبح فعاله».

(٣) كذا في النسختين «العليقة»، وهي: البعير أو الناقة يوجهه الرجل مع القوم إذا خرجوا ممتارين ويدفع إليهم دراهم يمتارون له عليها. ولعل المراد: «العلقة» أو «العلاقة»، وهي: ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغذاء. انظر: «لسان العرب» لابن منظور (مادة: علق).

(٤) في (ش): «بمئة».

(٥) في (خ): «بمئتي».

(٦) الميرة: جلب الطعام. انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: مير).

الحاجةِ، وما وجدَ في تبريزَ شيئًا؛ لأن إسماعيل شاه عندَ انهزامِهِ أمرَ بإحراقِ أجرانِ[١] الحَبِّ والشَّعيرِ، فاضطرَّ سليمٌ للعودِ إلى بلادِ الرُّومِ.

وفي أيَّامِهِ كانت وقعةُ السُّلطانِ الغوريِّ، وذلكَ أن السُّلطانَ سليمًا لَمَّا رجَعَ من غزوِ إسماعيلَ شاه وقتالِهِ من شدَّةَ القحطِ، تفحَّصَ عن سببِ انقطاعِ قوافِلِ الميرةِ وتخلُّفِها عنهُم، فأُخْبِرَ أنَّ سببَهُ سلطانُ مصرَ قانصوه الغوريُّ، فإنَّهُ كانَ بينَهُ وبينَ إسماعيل شاه محبَّةٌ ومراسلاتٌ وهدايا.

فلمَّا تحقَّقَ سليمٌ ذلكَ صمَّمَ على قتالِ الغوريِّ أوَّلًا، ثم بعدَهُ يتوجَّهُ إلى قتالِ إسماعيل شاه[٢]، فتجهَّزَ السُّلطانُ سليمٌ وتهيَّأَ لقتالِ الغوريِّ، وتوجَّهَ بعسكرِهِ إلى جهةِ حلبَ، عامَ اثنين وعشرينَ وتسع مئةٍ، فخرجَ قانصوه الغوريُّ من مصرَ بعساكرَ عظيمةٍ لقتالِهِ، فوقعَ المصافُّ بمرجِ دابقٍ شمالي حلبٍ، ورمَى عسكرُ سليمٍ[٣] عسكرَ الغوريِّ بالبُندقِ[٤]، ولم يكُن في عسكَرِ الغوريِّ شيءٌ منهُ، فكانَتْ الهزيمةُ على عسكَرِ الغورِيِّ بعدَ أن كانَتِ النُّصرةُ لهُ أوَّلًا واستيلاؤه على الخيامِ، وفُقِدَ الغوريُّ تحت سنابكِ الخيلِ كما مرَّ عندَ ذِكْرِهِ، وكانَ ذلكَ بمخامرَةِ خير بك نائبِ حلبَ والغزاليِّ نائبِ الشَّامِ، بعدَ أن عهِدَ إليهِما السُّلطانُ سليمٌ بتوليَتِهما مِصرَ والشَّامِ.

ثم بعدَ الوقعةِ أخلَيا لهُ حلبَ لأنَّهما معَهُ في الباطنِ، فأقبلَ سليمٌ إلى حلبَ فخرجُوا إلى لقائهِ يطلبونَ الأمانَ ومعهُم المصاحِفُ يتلونَ جهارًا: ﴿وَمَا رَمَيْتَ

---

(١) أجران: جمع جرن، وهي رقعة من الأرض تُكَدَّس فيها الغلال وغيرها من حصيلة الزِّراعة. انظر: «معجم اللغة العربية المعاصرة» (١/ ٣٦٦)، وتطلق أيضًا على البيدر.

(٢) «شاه» من (خ).

(٣) في (ش): «ورمي» بدل «ورمى عسكر سليم».

(٤) البندق: الذي يُرمى به، الواحدة بندقة، والجمع البنادق. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: بندق).

﴿إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فقابلَهم بالإجلالِ والإكرامِ، ثم حضرَتْ صلاةُ الجمعةُ، فلمَّا سمِعَ الخطيبُ خطبَ باسمِهِ وقالَ: خادمُ الحرمَين الشَّريفَينِ سجدَ للهِ شُكرًا على أنْ أهَّلَهُ لذلكَ.

ثم ارتحلَ للشَّامِ بعدَ أن أخلاها له خير بك والغزاليُّ فخرَجُوا للقائهِ، ودعَوا لهُ، فأكرمَهم وأقامَ بها لتمهيدِ أمرِ المملكةِ، وأمر بعمارةِ قبةٍ على الشَّيخِ محيي الدِّينِ بن عربيٍّ بصالحيَّةِ دمشقَ، ورتَّبَ عليهِ أوقافًا كثيرةً، ثم توجَّهَ إلى مصرَ، فلمَّا وصلَ إلى[1] خانَ يونسَ بقربِ غَزَّةَ قتلَ فيهِ وزيرَهُ حسام باشا، ثم لَمَّا دخَلَ مصرَ وقعَ بينَهُ وبينَ طومان باي سلطانِ الجراكسةِ حروبٌ يطولُ ذكرُها، وقُتِلَ بها وزيرُ سليمٍ: يوسف سنان باشا، وكانَ مِقدامًا ذا رأيٍ وتدبيرٍ[2]، فأسفَ سليمٌ عليهِ بحيثُ قالَ السُّلطانُ سليمٌ: أيُّ فائدةٍ في مِصرَ بلا يوسُفَ؟

وقاتلَ طومان باي ومَن معَهُ من الأمراءِ قتالًا شدِيدًا، وظهرَ لطومان باي شجاعةٌ عظيمةٌ[3] عُرِفَ بها، وشهدَ له بها الفريقانِ، وأوقعَ الفَتْكَ بعسكرِ السُّلطانِ سليمٍ، قالوا: ولولا شدُّ عضدِه بخير بك والغزاليِّ ومكيدَتهِ ما شرِبَ سليمٌ من نيلِ مصرَ، لكن لكلِّ شيءٍ آفةٌ من جنسِهِ، ثمَّ لَمَّا ظفرَ بطومان باي أرادَ سليمٌ أنْ يكرِمَهُ، ويجعلَهُ نائبًا عنه بمصرَ، فعارضَهُ خير بك، وخافَ عاقبةَ فعلِهِ، وقال للسُّلطانِ سليمٍ: إنَّكَ[4] إنْ فعلْتَ ذلكَ استولى على السَّلطنةِ ثانيًا، وحسَّنَ له قتلَه، فقتَلَهُ وصلَبَهُ على بابِ زويلةَ، ودفنَهَ، كما أسلفناهُ.

---

(١) «إلى» من (خ).

(٢) «وتدبير» من (ش).

(٣) في (ش): «قوية».

(٤) «إنك» من (ش).

ونزلَ السُّلطانُ سليمٌ في المقياسِ[١] مدةَ إقامَتِهِ بمصرَ؛ بعدًا عن روائحِ القتلى، وحَذَرًا من المكيدةِ إلى أن مهَّدَها.

ثم تولَّى خير بك أميرُ الأمراءِ بمصرَ، وولَّى الغزاليَّ على الشَّامِ، وولَّى بمصرَ القضاةَ الأربع، وهم قاضي القضاةِ كمالُ الدِّينِ الشَّافعيُّ، وقاضي القضاةِ نورُ الدِّينِ عليُّ بن ياسينَ الطَّرابلسيُّ الحنفيُّ، وقاضي القضاةِ الدَّميريُّ المالكيُّ، وقاضي القضاةِ شهابِ الدِّين[٢] أحمدِ بنِ النَّجارِ الحنبليِّ، واستولى على الأرضِ الحجازيَّةِ وغيرِها، ورتَّبَ الرَّواتبَ، وأبقَى الأوقافَ على حالها، ورتَّبَ لأهلِ الحرمَينِ في كلِّ سنةٍ سبعةَ آلافِ إردبِّ حبٍّ.

ثم عادَ للقسطنطينيَّةِ، وقد صرَفَ غالبَ خزائنهِ، فأخَّرَ السَّفرَ عن بلادِ العجمِ ليجمَع ما يستعينُ بهِ على القتالِ، فظهرَ له في أثناءِ ظهرِهِ جراحة فعجزَت عن علاجهِ الأطباءُ، واتَّسعَ الجرحُ بحيثُ كان توضَعُ الدَّجاجة فيه فتذوبُ، وشُوهِدَت معاليقُ أكبادِهِ من خلفِ ظهرِه، إلى أن توفِّيَ سنةَ ستٍّ وعشرينَ وتسعِ مئةٍ كما مرَّ، سامحَهُ الله تعالى.

[السلطان سليمان القانوني]

ثم تولَّى السُّلطانُ سليمانُ بنُ السُّلطانِ سليمٍ، سنةَ ستٍّ وعشرينَ وتسع مئةٍ، وعمرُه نحو ستٍّ وعشرينَ سنةً، فأقامَ تسعًا وأربعينَ سنةً، وتوفيَ سنةَ خمسٍ وسبعينَ

---

(١) دار المقياس: دار كبيرة في جزيرة وسط النيل، يحيط بها من داخلها في كل وجه أقبية دائرة على عمد، وفي وسط الدار فسقية كبيرة عميقة ينزل إليها بدرج رخام، يجتاز إليها على جسر من السفن فيه ثلاثون سفينة وكان بها قلعة عظيمة فخربت، وبها المقياس الذي يقيس ارتفاع الماء في النيل. انظر: «نزهة المشتاق» للإدريسي (ص٣٢٥)، و«خريدة العجائب» لأبي حفص ابن الوردي (ص٨٨).

(٢) «شهاب الدين» من (ش).

وتسع مئةٍ، وكانَ سلطانًا سعيدًا عادِلًا فاضِلًا جوادًا ممدُوحًا، مجاهِدًا في سبيلِ اللهِ تعالى، ناظِرًا إلى الرَّعيةِ بالعدلِ، لم يلِ من بني عثمانَ مثلَهُ، لا قبلَهُ ولا بعدَهُ.

وصلَتْ سراياهُ إلى أقصى الشَّرقِ والغربِ، وغزا بنفسِهِ ثلاثَ عشرةَ غزوةً عظيمةً، وكانَ أَيَّانَ سلكَ ملك، وأَنَّى توجَّهَ فتحَ وفتك، مؤيَّدًا في حروبه، مُسدَّدًا في آرائه، مَسعُودًا في وقائعِه، وما زالَ منذُ وليَ قائمًا بنصرِ الدِّينِ وإظهارِ العدلِ، وتأييدِ الشَّريعةِ وتجديدِ دينِ هذهِ الأمَّةِ في القرنِ العاشرِ، إلى أن توفَّاهُ اللهُ تعالى، وكانَتْ أَيَّامُهُ مِن غُرَرِ الزَّمانِ.

وشرعَ أولَ توليتِهِ في قتلِ أولادِه خوفَ الفِتنِ والخروجِ عليهِ، فأرسلَ أمرَ إحضارِ ولدِهِ مصطفى بعدَ توجُّهِهِ إلى تبريزَ لأخذِ العجمِ، فأمرَ بخنقِهِ، ثم تحيَّلَ على تحصيلِ ولدِه بايزيدَ بعدَ أن وقعَتْ فتنٌ قُتِلَ فيها نحو خمسينَ ألفًا، وعلى تحصيلِ بقيَّةِ أولادِهِ أورخانَ ومحمودٍ وعبدِ اللهِ وعثمانَ، وبذلَ المالَ الجزيلَ على ذلكَ حتى ظفرَ بهم، وخنقَهم وخنقَ أولادَهم.

وفي أَيَّامهِ(١) أَوَّلَ توليَته سنةَ سبعٍ وعشرينَ وتسع مئةٍ عصَى الغزاليُّ الجركسيُّ أميرُ الأمراءِ بالشَّامِ وادَّعى السَّلطنةَ، وخُطِبَ له بالشَّامِ، وتوجَّهَ لمحاصرةِ حلبَ، فحاصرَها، ثم أدركَهُ الشِّتاءُ فرجَعَ للشَّامِ، فجهزَ السُّلطانُ سليمانُ إليهِ العساكِرَ، فقُتِلَ وحُمِلَ رأسُهُ إليهِ، ثم ماتَ أميرُ الأمراءِ بمصرَ خير بك بعدَهُ بسنةٍ بفرخِ جَمْرٍ(٢)، ودفِنَ بمدرسةِ الخيربَكيَّةِ بدربِ الوزيرِ، ويقالُ: مكثَ أيامٌ يُسمَعُ صُراخُهُ بالقبرِ.

وفي سنةِ ثلاثينَ وتسع مئةٍ وردَ مرسومُ السُّلطانِ لأمراءِ مصرَ سرًّا بقتلِ أحمد

---

(١) «أيامه» من (ش).

(٢) فرخ جمر: خراج كبير. انظر: «تكملة المعاجم العربية» لرينهات (مادة: جمر).

باشا نائبِ مصرَ، وذلكَ بإغراءِ الوزيرِ الأعظمِ إبراهيم باشا؛ لعداوةٍ كانَتْ بينَهُما، فوقعَ المرسومُ بالقدَرِ في يدِ أحمد باشا، فأخفَاهُ، وأحضرَ الأمراءَ المكتوبَ لهم ذلكَ، وذكرَ لهم أنَّ أمرَ السُّلطانِ وردَ بقتلِهم، فأذعَنُوا قهرًا للأمرِ، فقتَلَهم، ثمَّ ادَّعى السَّلطنةَ لنفسهِ، فأمرَ أن يخطبَ باسمِهِ على المنابرِ، وضرِبَت باسمِهِ السِّكةُ على الدَّراهمِ والدَّنانيرِ، وصادرَ النَّاسَ وجمعَ الأموالِ.

وكان ممَّن حبسَهُ للمُصادَرةِ جانمُ الحمزاوِيُّ ومحمود بيك، فذهبَ أحمد باشا يومًا للحمَّامِ فكسرا الحبسَ، وبرزا ونصبَا صنجقًا[١] سلطانيًّا، ونادَيا: مَنْ أطاعَ السُّلطانَ فليقِفْ تحتَ لوائِهِ. فاجتمَعَ خلائقُ، وهجَمُوا على أحمد باشا في الحمَّامِ[٢]، فتسلَّقَ من السطوحِ، وهربَ إلى شيخِ عربِ الشَّرقيَّةِ ابنِ بقر، فخوَّفوهُ العاقبةَ، فسلَّمهُ لهم، فقَطعُوا رأسَهُ، وعُلِّقَ ببابِ زُويلةَ، ثم بُعِثَ بِهِ للسُّلطانِ.

وفي سنة ثمانٍ وعشرينَ وتسع مئةٍ كانَت غزوةُ رُوْدِسَ[٣] توجَّهَ لها السُّلطانُ بنفسِهِ، وأخذَ ما حولَها من قلاعٍ وحصونٍ، وأحاط بها برًّا وبحرًا، وكانَ حِصنُها في غايةِ الاستحكامِ، يعجَزُ الواصفُ عنهُ، فما استطاعَ المسلمونَ قُربَها من المدافِعِ، فتأخَّرتْ عساكرُ البرِّ قليلًا، وأُمِروا بسوقِ الرَّملِ والتُّرابِ أمثالَ الجبالِ، وتترَّسُوا بِهِ، وصاروا يقدِّمُونَهُ قليلًا قليلًا، إلى أن وصَلَ التُّرابُ إلى الخندقِ وصارَ الكفَّارُ

---

(١) الصنجق أو السنجق: الراية. والسُّنجق باللغة التركية معناه الطعن؛ سميت الراية بذلك لأنها تكون في أعلى الرمح؛ والرمح هو آلة الطعن يسمّى بذلك مجازًا. ومنه السّنجقدار، وهو الذي يحمل السّنجق خلف السلطان. انظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي (٢/ ١٤٢) (٥/ ٤٣٠).

(٢) «في الحمام» من (ش).

(٣) رودس: جزيرة في البحر المتوسط، مقابل الإسكندرية. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٣/ ٧٨)، و«المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» لموستراس (ص٢٧٨).

تحتَ المسلمينَ فرمَوهم بالنَّارِ، فاستغاثوا وطلَبُوا الأمانَ، وشَرطُوا الخروجَ منها، فاستولى عليها السُّلطانُ.

وخرجَ الكفَّارُ منها، فعمِلُوا قلعةَ مالطةَ[١]، وجعلُوها في غايةِ الحصارِ، وصاروا يؤذُونَ المسلِمينَ إلى الآنَ، وندِمَ السُّلطانُ سلَيمانُ حيثُ أعطاهُمُ الأمانَ، وأرسلَ إليهم عمارةً عظيمةً وعساكرَ، فوقعَتْ مخالفةٌ أدَّتْ لانكِسَارهم، ولم يظفَرُوا بالمرادِ، وكانَ في نفسِ المرحومِ تدارُكُ هذا الأمرِ، وإرسالُ عسكرٍ آخرَ لأخذِ مالطةَ، فما أمهلَهُ الأجلُ.

وفي سنةِ تسعٍ وأربعينَ خرجَ السُّلطانُ سليمانُ لغزوِ العجمِ، فوصَلَ إلى تبريزَ وأخذَها، ثمَّ لَمَّا دخلَ الشِّتاءُ رجعَ لجهةِ بغدادَ، فأخذَها وما حولَها من جميعِ البلادِ والجزائرِ، وواسطَ، وبنى على قبرِ أبي حنيفةَ الإمامِ قُبَّةً ومدرسةً، ثم توجَّهَ في الصَّيفِ للعجمِ، فهرَبَ الشَّاهُ، وأرسلَ يطلبُ الصلحَ، فعقدَهُ له بعدَ أن فتحَ عراقَ العجمِ.

وفي آخرِ أيامِهِ حدثتْهُ نفسُهُ بغزوِ مدينةِ سَكْتَوارَ[٢] ببلادِ النَّصارى، وكانَ به مرضٌ مؤلمٌ، فنهاهُ الطَّبيبُ عن الخروجِ فلم يُطِعهُ، وقالَ: أريدُ أن أموتَ غازيًّا فتوجَّهَ لها، وكانَتْ غزوةً عظيمةً، ووقعةً مشهورةً، ولَمَّا اشتَدَّ الحصارُ والقتالُ اشتدَّ على السُّلطانِ مرضُهُ، وأخذَتهُ غمرَاتُ الموتِ، وصارَ يبتَهِلُ إلى اللهِ بتعجِيلِ الفتحِ، فوقعَتِ النَّارُ في خزانةِ بارودِ الكفَّارَ، فحصَلَ أمرٌ مهولٌ من خسفِ قلعَتِهم، فتزاحَمَ المسلمونَ واغتَنموا الفرصةَ، فأخذُوا القلعةَ واستولَوا على المدينةِ، ووضعوا

(١) مالطة: جزيرة بقرب جزيرة الأندلس، عظيمة الخيرات كثيرة البركات. انظر: «آثار البلاد» للقزويني (ص٥٥٧).

(٢) سكتوار: (سكودرا، سكوتاري، شقودرا) مدينة في تركيا الأوربية، في ألبانيا العليا، جنوب البحيرة التي تحمل الاسم نفسه. انظر: «المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» لموستراس (ص٧٣).

السَّيفَ في الكفَّارِ، فجاءَ البشيرُ للسُّلطانِ سليمانَ ففرِحَ، وقالَ: قد طابَ الموتُ الآنَ، فتوفَّاهُ اللهُ تعالى إلى الرَّحمةِ والرُّضوانِ.

وأخفَى الوزيرُ الأعظَمُ محمَّد باشا[1] موتَهُ، وقامَ بالأمرِ أتمَّ قيامٍ، وأرسَلَ سرًّا أحضرَ ولدَهُ السُّلطانَ سليمًا من مسيرةِ ستِّينَ يومًا، وأجلسَهُ على التَّختِ، ولم يقَع لحسنِ تدبيرِهِ شيءٌ من الاختلافِ، وانتظمَتْ بحسنِ سياسَتِهِ الأحوالُ، ولم يلِ الوزارةَ لبني عثمانَ مثلُهُ، ولهُ خيراتٌ ومآثرُ.

ولَمَّا ماتَ السُّلطانُ سليمانُ رثاهُ الشُّعراءُ بكلِّ لسانٍ، فمن ذلكَ ما رثاه بِهِ المفتي الأعظَمُ أبو السُّعودِ صاحِبُ «التَّفسيرِ»، وهيَ طويلةٌ:

أَصَوتُ صَاعقَةٍ أم نَفخَةُ الصُّورِ ... فالأرْضُ قد مُلئَتْ مِن نَقرِ ناقورِ
أصابَ منها الورَى دَهياءُ داهِيةٌ ... وذاقَ منها البرايا زَعقَةَ الطُّورِ
تهدَّمَتْ وقْعَةُ الدُّنيَا لوَقعَتِها ... وانهَدَّ ما كانَ من دُورٍ ومِن سُورِ
فمِن كئيبٍ وملهُوفٍ ومِن دنِفٍ ... عانٍ بسلسِلَةِ الأحزانِ مأسورِ
فيا لهُ من حدِيثٍ مُوحِشٍ نكرٍ ... يَعافُهُ السَّمعُ مَكرُوهٍ ومَنفورِ
تاهَتْ عيونُ الورَى مِن هولِ وحشَتِهِ ... فأصبَحوا مثلَ مجنونٍ ومَسحُورِ
تقطَّعَت قَطعًا منهُ القلُوبُ فلا ... يكادُ يوجَدُ قلبٌ غيرُ مكسُورِ
أجفَانُهم سفُنٌ مشحُونةٌ بدَمٍ ... تجْرِي ببَحرٍ من العَبراتِ مسجُورِ
أتى بوجهِ نهارٍ لا ضِياءَ لهُ ... كأنَّهُ غارَةٌ شُنَّتْ بديجُورِ[2]

---

(١) «محمد باشا» من (ش).

(٢) ديجور: ليلة ديجور: مظلمة. انظر: «الصحاح» للجواهري (مادة: دجر).

أم ذاكَ نَعـيُ سُـليمانَ الزَّمـانِ ومَنْ قـضَـتْ أوامِـرُهُ فـي كلِّ مأمـورِ
ومَـنْ[1] ومَـنْ مـلأَ الدُّنيـا مهابَتُهُ وسخَّـرتْ كـلَّ جبَّـارٍ وتَيمـورِ
لـهُ وقائـعُ فـي الأكنَـافِ شـائعَةٌ أخبارهـا زُبِـرَت فـي كلِّ طامُـورِ
ورايـةٌ رُفِعـتْ للمَجـدِ خافقَـةً تجـرِي علـى عَلَـمٍ بالنَّصْـرِ منشُـورِ
يـا نفـسُ مالَـكِ فـي الدُّنيـا مخلَّفـةً مِـن بعـدِ رِحلَتـهِ عَـن هـذِهِ الـدُّورِ
وكيـفَ تمشِـينَ فـوقَ الأرضِ غافِلَـةً أليـسَ جُثمَانُـهُ فيهـا بمقْبُـورِ
فللمَنايـا مَواقِيـتٌ مُقـدَّرةٌ تأتـي عَلَـى قـدَرٍ فـي اللَّوحِ مَسطورِ
وليـسَ فـي شـأنِها للنَّـاسِ مِـن قِصَرٍ ومدخَـلٍ مـا بتقدِيـمٍ وتأخِيـرِ
يـا نفـسُ فاتَّئـدِي لا تهلِكِـي أسَـفًا فأنـتِ مَنظُومـةٌ فـي سِـلكِ مَغـدورِ
إذ لَسْـتِ مَأمـورةً بالمسـتَحِيلِ ولا بمـا سِـوى بـذْلِ مجهُـودٍ وميسُـورِ
إنَّ المنَايـا وإن عَمَّـتْ محرَّمـةٌ علـى شَـهيدٍ جميـلِ الحـالِ مَبـرورِ
مرابـطٍ فـي سَـبيلِ اللهِ مُقتَحِـمٍ مُعـارِكِ الحتـفِ بالرِّضـوانِ مأجُـورِ
مـا مـاتَ بـلْ نـالَ عَيشًـا باقِيًـا أبـدًا عَن عيـشٍ فـانٍ بـكلِّ الشـرِّ مَغمُـورِ[2]

***

(١) في «سمط النجوم العوالي»: «حقًّا».

(٢) انظر: «الشقائق النعمانية» لطاشكبري زاده (ص٣٧٨)، و«سمط النجوم العوالي» للعاصمي (٤/ ١٠٥).

ذِكرُ وزراءِ السُّلطانِ سُليمانَ بمصرَ

وهم خمسةَ عشرَ:

أوَّلُهم: **مصطفَى باشا**، تولَّى سنةَ ثمانٍ وعشرينَ وتسع مئةٍ، فأقامَ تسعةَ أشهرٍ وخمسةً وعشرينَ يومًا.

ثم **أحمدُ باشا**، فأقامَ سنةً، ثم تسلطَنَ وقُتلَ كما مرَّ.

ثم **قاسمُ باشا**، تولَّى سنةَ إحدَى وثلاثينَ وتسع مئةٍ، فأقامَ نحوَ تسعةِ[1] أشهرٍ وأربعةٍ وعشرينَ يومًا.

ثم **إبراهيمُ باشا**، عامَ اثنينِ وثلاثينَ وتسع مئةٍ، فأقامَ نحوَ ثلاثةِ أشهرٍ، فأحاطَ بأحوالِ مصرَ، ورتَّبَ الدِّيوانَ.

ثم **سليمانُ باشا**، سنةَ ثلاثٍ وثلاثينَ وتسع مئةٍ، فأقامَ تسعَ سنينَ وإحدى عشرَ شهرًا، وله عدَّةُ عماراتٍ بمصرَ، وبنى جامِعَ ساريةٍ بالقلعةِ، وتوجَّهَ بعد ذلكَ لفتحِ الهندِ.

ثم **خُسرُف باشا**، سنةَ إحدَى وأربعينَ وتسعِ مئةٍ، فأقامَ سنةً وعشرةَ أشهُرٍ.

ثم **سليمانُ باشا**، المتقدِّمُ ذكرُهُ بعدَ عودِهِ من الهندِ، فأقامَ سنةً واحدةً وخمسةَ أشهُرٍ.

ثم **داودُ باشا**، سنةَ خمسٍ وأربعينَ، فأقامَ إحدى عشرةَ سنةً وثمانية أشهر، ودفن بحضرة الإمام اللَّيْثِ بمصر.

ثم **عليّ باشا**، سنةَ ستٍّ وخمسينَ، فأقامَ نحوَ ثلاثِ سنينَ.

---

(١) في (ش): «سبعة».

ثم **محمَّدُ باشا**، سنةَ إحدى وستِّينَ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ.

ثم **إسكندرُ باشا**، سنةَ ثلاثٍ وستينَ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وثلاثةَ أشهرٍ ونصفًا.

ثم **عليّ باشا الخادِمُ**، سنةَ ستٍّ وستينَ، فأقامَ سنةً وأربعةَ أشهرٍ.

ثم **مصطفى باشا**، سنةَ سبعٍ وستينَ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ وأربعةَ أشهرٍ.

ثم **عليٌّ باشا**، سنةَ إحدى وسبعِينَ فأقامَ سنتَينِ وثلاثةَ أشهُرٍ.

ثم **محمود باشا**، سنةَ ثلاثٍ وسبعينَ فأقامَ سنةً ونحوَ ثمانيةِ أشهرٍ، وهوَ آخرُ وزراءِ السُّلطانِ سليمانَ بمصرَ.

[من مآثر السلطان سليمان]

وللسُّلطانِ سليمانَ مآثرُ محمودةٌ وآثارٌ باقيةٌ، وخيراتٌ جزيلَةٌ، فمنها: صدقاتُ الجوالي[١]، وما يُؤخَذُ من أهلِ الذِّمَّةِ على سبيلِ الجزيةِ، ولحِلِّها جعلَها وظائفَ للعلماءِ والصُّلَحاءِ، وكانَ يخرُجُ منها شيءٌ قليلٌ جدًّا في أيَّامِ الجراكسَةِ لبعضِ المشايخِ.

ومنها: حصونُ ثغورُ الإسلامِ ومفازاتُهم، والأماكِنُ الشَّريفةُ كسُورِ القدسِ، وسُورِ[٢] المدينَةِ، وقلعَةِ العريشِ[٣]، وغيرِ ذلك من أبراجٍ وحصونٍ.

---

(١) الجوالي: جمع جالية، ومنه قيل لأهل الذمة الذين أجلاهم عمر رضي الله عنه عن جزيرة العرب: جالية، ثم نقلت الجالية إلى الجزية التي أخذت منهم، ثم استعملت في كل جزية تؤخذ وإن لم يكن صاحبها جلا عن وطنه، فيقال: استعمل فلان على الجالية. انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: جلو).

(٢) «ثغور الإسلام ومفازاتهم، والأماكن الشريفة كسور القدس وسور» من (ش).

(٣) العريش: مدينة قديمة على ساحل البحر المتوسط، قرب نهاية الحد الشرقي لمصر، بينها =

ومنها: إجراءُ العيونِ، ومن أعظَمِها عينُ عرفاتٍ إلى مكَّةَ المشرَّفةِ بعدَ انقطاعِ عينِ حُنَينٍ التي أجرَتها زُبيدَةُ زوجَةُ هاونَ الرَّشيدِ، وبلغَتْ نفقَتُها فيها ألفَ ألفٍ وسبع مئةَ ألفِ مثقالِ ذهبٍ، فلمَّا تمَّ عمَلُها اجتمَعَ المباشرونَ والعمَّالُ لدَيها، وأخرَجُوا دفاتِرَهم للحسابِ؛ ليَخرُجوا من عُهدةِ ما تسلَّموهُ من خزائنِ الأموالِ، وكانَت في قصرٍ مشرفٍ على الدِّجلَةِ، فأخذَتْ منهمُ الدَّفاترَ ورمَتْها في البحرِ وقالَت: تركْتُ الحسابَ ليومِ الحسابِ، فمَنْ فضَلَ عندَهُ شيءٌ مِن بقيَّةِ المالِ فهو لهُ، ومن بقِيَ له عندَنا شيءٌ أعطيناهُ، وألبَستهم الخِلَعَ والتَّشارِيفَ.

وأمرَتْ أيضًا بإجراءِ عينِ وادِي نُعمانَ إلى عرفةَ، ثم منهُ إلى مُزدَلِفةَ، ثم منهُ إلى جبَلٍ خلفَ منى، ثم ينصَبُّ إلى بئرٍ عظيمةٍ مطويَّةٍ بالأشجارِ، تسمَّى عينَ زُبيدَةَ، إليها ينتَهي عملُ هذهِ العينِ، ثم تهدَّمَت قناةُ عينِ حُنَينٍ، وعينِ[1] عرفاتٍ لطولِ الزَّمانِ، فكانَتِ الملوكُ تجدِّدُهما.

وممَّن جدَّدَ عينَ حُنَينٍ شريفُ مكَّةَ حسنُ بنُ عجلانَ، ثم انقطعَتْ، فجهَدَ النَّاسُ من[2] العطشِ، فجدَّدها صاحِبُ مصرَ المؤيَّدُ شيخٌ، ثم جدَّدَها بعدَ ذلكَ السُّلطانُ قايتباي، وجدَّدَ أيضًا عينَ عرفةَ، وعمَّرَ عينَ خليصٍ، ثم بعدَ ذلِكَ جدَّدَ السُّلطانُ الغوريُّ عينَ حُنَينٍ، سنةَ ستَّ عشرةَ وتسع مئةٍ.

ثم انقطعَتْ في أوائلِ الدَّولةِ العثمانيَّةِ، وانقطعَتْ عينُ عرفاتٍ أيضًا، وجهدَ

= وبين رفح ٤٥ كم، وهي اليوم مركز محافظة سينا. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٤/ ١١٣)، و«القاموس الجغرافي للبلاد المصرية» لمحمد رمزي (٤/ ٢٦٣).

(١) «وعين» من (ش).

(٢) «من» من (ش).

النَّاسَ بمكَّةَ العطشُ، وكانَ الحُجَّاجُ يحمِلونَ المياهَ من الأماكنِ البعيدَةِ إلى عرفاتٍ، بحيثُ كانَتِ القِربةُ الصغِيرةُ تباعُ في بعضِ الأحيانِ بدينارٍ.

فأمرَ السُّلطانُ سُلَيمانُ في سنةِ إحدَى وثلاثينَ وتسع مئةٍ بتجديدِ عينِ حُنَينٍ وعرفاتٍ فجُدِّدا، وكثُرَ الماءُ بعدَ ذلكَ بعرفاتٍ وبمكَّةَ.

واستمرَّتْ عينُ حنينٍ جاريةً إلى مكَّةَ، لكنَّها تقلُّ تارةً وتكثُرُ أُخرَى، بحسبِ قلَّةِ الأمطارِ وكثرَتِها، وعينُ عرفاتٍ تجرِي من نعمانَ إلى عرفاتٍ بكثرةٍ إلى أن صارَتْ عرفاتٌ بساتينَ.

ثم قلَّتِ الأمطارُ في سنةِ ستينَ وتسع مئةٍ، وانقطعَتِ العيونُ إلَّا عينَ عرفاتٍ، وحصَلَ لأهلِ مكَّةَ الجهدُ، فلمَّا بلغَ السُّلطانَ سليمانَ ذلك، أرسَلَ يفحَصُ عن إجراءِ العيونِ إلى مكَّةَ، فاجتمَعَ الرَّأيُ أنَّ أقوَى العيونِ عينُ عرفاتٍ، وأن أعلاها ظاهرةً إلى بئرِ زُبَيدةَ خلفَ منى، وغلَبَ على ظنِّهم أنها مَبنيَّةٌ أيضًا إلى مكَّةَ لكنَّها درسَتْ ونُسِيت استغناءً عنها بعينِ حُنَينٍ، ثم حزَروا بعدَ أن ذرَّعوا الأرضَ ووجَدُوها خمسةً وأربعينَ ألفَ ذراعٍ وأربعينَ ألفَ ذراعٍ بذراعِ البنَّائين، وحزَروا أنَّ المصروفَ على ذلكَ يبلغُ ثلاثينَ ألفَ دينارٍ، ثم عرضُوا ذلكَ وأرسلُوه إلى حضرةِ السُّلطانِ سليمانَ(١)، في سنةِ تسعٍ وستينَ وتسع مئةٍ.

فطلبَت بنتُ السُّلطانِ أن يكونَ المصرُوفُ مِن عندِها؛ تتشَبَّهُ بزبيدةَ زوجةِ هارونَ الرَّشيدِ فأُجيبَتْ، وأرسلَت خمسينَ ألفَ دينارٍ بزيادةِ عشرينَ ألفًا، وعُيِّنَ لهذهِ الخدمةِ دفتدارُ مصرَ إبراهيمُ بنُ تغرِي وردي، فتوجَّهَ إلى مكَّةَ، وكانَتْ مماليكُهُ القائمونَ بخدمَتهِ نحوُ أربعمئةِ مملوكٍ في غايةِ الحسنِ والجمالِ، وكتبَ

---

(١) «سليمان» من (خ).

نحـوَ ألفِ نفـسٍ من العمَّـالِ والبنَّائيـنَ والمهندِسـينَ والحدَّاديـنَ، وأرسـلَ أخذَ من مصـرَ وبـلادِ الصَّعيدِ ومن الشَّـامِ وحلـبَ والـرُّومِ واليمَـنِ طوائفَ بعـدَ طوائفَ منَ المهندِسـينَ وخُـدَّامِ العيونِ والآبـارِ، والحدَّاديـنَ والقطَّاعِينَ، وقدَّمَ علـى ذلكَ بعزمٍ وهمَّـةٍ ظنًّـا منـهُ أنه يفـرُغُ مـن ذلكَ فيمـا دون سـنةٍ، ويرجِـعُ للسُّـلطانِ لينـالَ بذلكَ أعلـى المناصِـبِ، وليـسَ الأمرُ كمـا ظنَّ.

فشرعَ إلى أن اتَّصلَ عملُهُ بعملِ زُبيدَةَ إلى البئرِ التي انتَهى عمَلُها إليها، ثم لم يُوجَد بعدَ ذلِكَ للقناةِ رسمٌ ولا أثرٌ، بل وجدَ الأرضَ صخرًا في غايةِ الصَّلابةِ فضاقَ ذرعًا، وعلِمَ أن زُبيدَةَ إنَّما تركَتْ ذلكَ اضطرارًا لا اختِيارًا، وعدَلَت إلى عينِ حُنينٍ؛ لصلابةِ الحجَرِ، وطولِ مسافةِ ما يجِبُ قطعُهُ، فإنَّهُ يحتَاجُ من بئرِ زُبيدَةَ إلى[1] نقرٍ تحتَ الأرضِ في الحجرِ الصوَّانِ طولُهُ فوقَ الألفِ ذراعٍ بذِراعِ البنَّائينَ حتى يتَّصِلَ إلى عينِ حُنَينٍ، ثم يتَّصِلُ إلى مكَّةَ، ولا يمكِنُ نقبُ ذلكَ الحجَرِ تحتَ الأرضِ، فإنَّهُ يحتاجُ في النزولِ إلى خمسِينَ ذِراعًا في العمقِ، وصارَ لا يمكِنُ تركُ ذلكَ بعدَ الشروعِ منهُ حفظًا لناموسِ السَّلطنةِ، وما وجَدَ حيلةً غيرَ أن يحفِرَ وجهَ الأرضِ إلى أن يصِلُوا للحجرِ الصوَّانِ، ثم يوقَدُ عليهِ بالنَّارِ بمقدارِ مئةِ حملٍ من الحطَبِ الجزل ليلة كاملةً في مقدارِ سبعةِ أذرعٍ في عرضِ خمسةٍ من وجهِ الأرضِ، والنَّارُ لا تعمَلُ إلَّا في العلوِّ لكنَّها تعمَلُ عملًا يسيرًا من جانبِ السُّفلِ فيلِينُ الحجرُ فيكسِرُونه بالحديدِ إلى أن يصِلُوا للحجرِ الصَّلبِ فيوقَدُ عليهِ كذلكَ.

فاستمرُّوا إلى فرغِ الحطبِ من جميعِ جبالِ مكةَ، فصارَ يجلَبُ من المسافاتِ البعيدةِ، فغلا سعرُ الحطبِ، وضاقَ النَّاسُ لذلكَ، وصارَ كلما فرغَ المصروفُ يرسِلُ

(١) «إلى» من (ش).

يطلبُ آخرَ إلى أن صرَفَ أكثرَ من خمس مئةِ ألفِ دينارٍ من خزائنِ السَّلطنةِ، وتعِبَ إبراهيمُ الدَّفتردارُ لذلكَ، وذهبَتْ أموالُهُ وخُدَّامهُ ومماليكُه وأولادُهُ وهو يتجلَّدُ، وغرِقَ لهُ مركبٌ فيهِ ما يساوي مئةَ ألفِ دينارٍ، ثم ماتَ له طفلٌ نجيبٌ كانَ خلَّفَهُ بمصرَ، فاحترَقَ عليهِ كثيرًا، ثم ماتَ لهُ ولدانِ مراهقانِ نجيبانِ، فأخذَ بمجامعِ قلبهِ، وما زالَ في العملِ إلى أن ذهَبَ قواهُ وظهرَ بلاهُ، وتوفَّاهُ اللهُ رحمَهُ اللهُ.

فأقيمَ مُقامَهُ الأميرُ قاسمٌ، أميرُ جُدَّةَ، قائمٌ مقامَ إقامةِ السَّيدِ حسنٍ صاحبِ مكَّةَ، ثم أرسَلَ يعرِضُ ذلكَ على حضرةِ السُّلطانِ سليمانَ، فوجدُوه قد ماتَ، وتولَّى ولدَهُ السُّلطانُ سليمٌ، فعيَّنَ لخِدمتِها محمد بيك دفتردارِ مصرَ، وكانَ من أعيانِ الصَّناجقِ لهُ خبرةٌ وعقلٌ تامٌّ، فبذلَ في ذلكَ نفسَهُ ومالَهُ، ثم بعدَ مدَّةٍ ماتَ، فأقيمَ مُقامهُ أميرُ جُدَّةَ المذكورُ، ثم عرِضَ ذلك على السُّلطانِ سليمٍ، فوردَ الأمرُ باستمرارهِ ومُباشرَتهِ العملَ، وأن يكونَ القاضي حسينٌ ناظِرَ المسجدِ الحرامِ ناظرًا على ما بقِيَ من العملِ.

ثم ماتَ الأميرُ قاسمٌ سنةَ تسعٍ وسبعينَ وتسع مئةٍ، ثم عرضُوا الأمرَ على السُّلطانِ فوردَ الأمرُ بأن القاضي حسينًا المذكورَ يباشِرُ هذا العملَ، فشرعَ فيهِ بجدٍّ واجتهادٍ وحُسنِ رأيٍ وتدبيرٍ، وساعدَتهُ السَّعادةُ والإقبالُ، فكمُلَ لهُ المقصودُ فيما دونَ خمسَةِ أشهرٍ بعدَ أن عجَزوا عن إتمامهِ قريبًا من عشرةِ أعوامٍ، ووصلَ الماءُ إلى مكَّةَ في شهرِ ذي القعدةِ سنةَ تسعٍ وسبعينَ وتسعمئةٍ، ففرحَ النَّاسُ بذلكَ وأرسلُوا البشائرَ للسلطانِ سليمٍ، فأنعمَ بمزيدِ الإنعاماتِ والتَّرقياتِ لسائرِ المباشِرينَ لهذه الخدمةِ، وحصلَ للقاضي حسينٍ التَّرقياتُ العظيمةُ، وجهِّزَت إليه أنواعُ الخِلَعِ الشَّريفةِ الفاخرَةِ، وخوطِبَ من قبَلِ السَّلطنةِ بالخطابِ السامي المتضمِّنِ للشكرِ، وأنهُ داخلٌ في جملةِ خواصِّ السَّلطنةِ الشَّريفةِ، فصارَت هذهِ العينُ العامَّةُ النَّفعِ بمكَّةَ من حسناتِ المرحومِ السُّلطانِ سُلَيمانَ.

وبنى أربعَ مدارسَ بمكَّةَ المشرَّفةِ على فقهاءِ أئمةِ المذاهبِ الأربعةِ، غير أنَّها لم تكمُل إلَّا في أيَّامِ ولدِهِ السُّلطانِ سليمٍ، فقرَّرَ في المدرسةِ السُّليمانيةِ المالكيَّةِ القاضي حسينٌ بمئتَي عثمانِّي، وفي الحنفيَّةِ الشيخُ القطبيُّ، وفي الشَّافعيةِ بعضُ علماءِ الشَّافعيَّةِ، ولم يوجَد في الحنبليَّةِ مَن يكونُ نائبَها في مذهبِ الإمامِ أحمدَ، فعدِلَ عنهُ إلى علمِ الحديثِ، وجعِلَت مدرسةُ الحنابلةِ دارَ الحديثِ، كلُّ مدرسةٍ مِن المدارسِ الثلاثِ بخمسينَ عُثمانيًّا كلَّ يومٍ.

[السُّلطان سليم الثَّاني]

ثم تولَّى السُّلطانُ سليمُ بنُ السُّلطانِ سليمانَ، سنةَ أربعٍ وسبعينَ وتسع مئةٍ، فأقامَ ثمانَ سنينَ وشهرًا واحدًا[1] وأربعةَ عشرَ يومًا.

وتوفِّيَ برمضانَ سنةَ اثنينِ وثمانينَ وتسعِ مئةٍ، وكانَ ملكًا عظيمًا، وسلطانًا حليمًا، شَهمًا مُطاعًا، أحيا سنَّةَ الجهادِ، وجدَّدَ في فتوحِ البلادِ.

وفي أيَّامهِ افتتَحَ جزيرةَ قبرصَ، وكانَ أوَّلُ مَن افتتَحها أميرُ المؤمنينَ معاويةُ في خلافتِهِ، ثم افتتَحَها الملكُ الأشرفُ بُرُسْباي صاحِبُ مصرَ كما مرَّ عند ذكرِهِ، وما زالوا يؤدُّونَ الجزيَّةَ من حينئذٍ إلى أن أخَذوا في المكرِ والخداعِ، وصاروا يقطَعونَ الطَّريقَ في البحرِ على المسلمينَ، ويساعدونَ أهل الحربِ عليهم، فاستفتَى السُّلطانُ سليمٌ فيهم المفتي أبا السُّعودِ، فأفتاهُ بنقضِ عهدِهم وجوازِ قتالِهم، فجهَّزَ إليها مصطفى باشا بعساكرَ عديدةٍ.

وكانت غزوةً عظيمةً، فظفَرَ الباشا بملِكها، فركِبَ وحمَّلهُ غاشيةَ السَّرجِ، وأمرَهُ أن يمشيَ قُدَّامه كالخادمِ، ثم أمرَ بضربِ عنُقِهِ.

(١) «واحدًا» من (ش).

وفي أَيَّامِهِ استُرجِعَ اليمنُ من العصاةِ الذين استولَوا عليها بعد أن كانَتْ في يدِ والدِهِ السُّلطانِ سليمانَ، فجهَّزَ السُّلطانُ سليمٌ إليها العساكرَ العظيمةَ صحبةَ سنان باشا، وكانَ ذا رأيٍ وتدبيرٍ وإقدامٍ، فاستنقَذَها من أيديهم بعدَ وقائعَ وأمورٍ طويلةٍ(١)، وفي ذلكَ يقولُ بعضُهم ـ أبياتٌ ـ:

وما يمَنٌ إلَّا ممالِكُ تُبَّعٍ ... وناهِيكَ من مُلكٍ قديمٍ ومِن فَخْرِ
وقَدْ مَلَكَها آلُ عُثمانَ إذ مَضَتْ ... بنو ظَاهرٍ أهلُ الشَّهَامَة والذِّكرِ
فهَلْ يطمَعُ الزَّيديُّ في مُلكِ تُبَّعٍ ... ويأخُذُهُ من آلِ عُثمانَ بالمكْرِ
أبى اللهُ والإسلامُ والسَّيفُ والقَنا ... وسيرُ أميرِ المؤمنينَ أبي بكرِ(٢)

وفي أيَّامِهِ كانَ فتحُ حلقِ الوادي ببلادِ تونسَ الغربِ بعدَ استيلاءِ النَّصارَى عليها بسببِ الاختلافِ الواقعِ بينَ سلاطينِ الغربِ من آلِ حفصٍ، فصارَ بعضُهم يتقوَّى على بعضٍ بالفرَنجِ، وأطمَعُوهم في بلادِ المسلمينَ، فاستولَوا عليها وتمكَّنوا منها، وحصَّنوا الحصونَ وأحكَموا القلاعَ، بحيثُ أيِسَ المسلمونَ من فتحِها، وصاروا تحتَ حكمِ الفِرَنجِ، وأخذوا مملكةَ تونسَ، ووضعوا السَّيفَ في أهلِها، فقتَلُوا الرِّجالَ وسبَوا النِّساءَ والأولادَ، فلمَّا بلغَ السُّلطانَ سليمًا ذلكَ أرسَلَ مِئتي(٣) غرابٍ مشحونةٍ بالأبطالِ والمدافعِ وآلةِ الحربِ، وصحبَتُهُ ذلكَ سنان باشا، وقلج علي باشا، وكانتْ غزوةً مشهودةً، ووقعةً معدودةً من أعظَمِ غزواتِ بني عثمانَ، يحتاجُ إلى تفصيلِها لمؤلَّفٍ، فنصرَ اللهُ المسلمين بعدَ أن

---

(١) في (ش): «يطول ذكرها».

(٢) انظر: «خلاصة الأثر» للمحبي (٢/ ٢١٥).

(٣) في (ش): «مئة».

قُتلَ منهم نحوُ[1] عشرةِ آلافٍ معَ الحصارِ المديدِ والقتالِ الشَّديدِ.

ومن العجبِ أن الفِرَنجَ كانت بَنَتْ هناكَ حِصارًا حصِينًا، وقلعةً منيعةً، أقاموا في استِحكَامها وإتقانِ بنائها ثلاثًا وأربعينَ سنةً، فاقتحَمها[2] المسلمونَ صحبةَ الوزيرِ المذكورِ في ثلاثٍ وأربعينَ يومًا من أَيَّامِ محاصَرَتها، وذلكَ في سنةِ إحدى وثمانينَ وتسع مئةٍ، ثم أخرَبَ الوزيرُ القلاعَ والحصونَ ولم يبقِ لها رسمًا، ووصلَتِ البشائرُ للسُّلطانِ سليمٍ، وكان في نفسِه فتوحَ إقليمِ الأندلس في ثاني سنة ـ فلم يمهلْه الأجلُ، رحمه الله تعالى.

وفي أَيَّامِهِ جُدِّدَ عمارةُ المسجدِ الحرامِ، وأمرَ أن يُزادَ لأهلِ الحرمَينِ في كلِّ سنةٍ سبعةُ آلافِ إردَبٍّ من الحبِّ.

وغير ذلكَ من الصَّدقاتِ الجاريةِ[3] والمآثرِ، رحمَهُ اللهُ تعالى.

ذكرُ وزراءِ السُّلطانِ سليمٍ بمصرَ

وهم أربعٌ أوَّلهم:

سنان باشا، تولَّى مصرَ سنةَ خمسٍ وسبعينَ وتسعمئةٍ، فأقامَ نحوَ تسعةِ أشهُرٍ، وتوجَّهَ بعدَها لفتحِ اليمنِ، كما مرَّ.

ثم **جركس إسكندر باشا**، سنةَ ستٍّ وسبعينَ، فأقامَ سنتَينِ وستَّةَ أشهرٍ وسبعَةَ أيامٍ.

ثم **سنان باشا**، بعدَ رجوعِهِ من اليمنِ سنةَ تسعٍ وسبعينَ، فأقامَ سنةً واحدةً وعشرةَ أشهُرٍ، وله عدةُ مساجدَ وعمائرَ لم تكُن لأحدٍ من بني عثمانَ.

ثم **تولَّى حسين باشا**، سنةَ إحدى وثمانينَ وتسعمئةٍ، فأقامَ سنةً وتسعةَ أشهُرٍ.

---

(١) «نحو» من (ش).

(٢) في (ش): «فافتتحها».

(٣) «الجارية» من (خ).

[السُّلطان مراد الثَّالث]

ثم تولَّى السلطانُ مرادُ بن السُّلطانِ سليمٍ، سنةَ اثنينِ وثمانينَ وتسعمئةٍ، فأقامَ إحدى وعشرينَ سنةً.

وتوفِّيَ سنةَ ثلاثٍ وألفٍ، وكانَ ملِكًا مِقدامًا، وسُلطانًا درغامًا، عاليَ الهمَّةِ، عظيمَ الشَّأنِ، وبعُدَ صيتُهُ في العالَمِ، وكان من أعظَمِ سلاطين خفقَتْ عليه البُنودُ[1]، وأكبرَ ملكٍ جنَّدَ الجنودَ.

وفي أيَّامِهِ تحركت عساكرُ النَّصارى[2] المجرِ، فجهَّزَ لها الجيوشَ الكثيرةَ، وفتحَ منها المدن الكثيرةَ.

ذِكرُ وزرائِهِ بمصرَ

وهم ستٌّ أوَّلُهم:

مسيح باشا، تولَّى مصرَ سنةَ اثنينِ وثمانينَ وتسعمئةٍ، فأقامَ خمسَ سنينَ وخمسةَ أشهرٍ ونصفًا، وكان سفَّاكًا للدِّماءِ، قطَعَ دابرَ المفسِدينَ من أرضِ مصرَ، وكانَ لا يقبَلُ الرِّشوةَ، وعمَّرَ المدرسةَ المسيحيَّةَ ببابِ القرافةِ.

ثم **حسن باشا**، تولَّى مصرَ سنةَ ثمانٍ وثمانينَ وتسعمئةٍ، فأقامَ سنتَينِ وعشرةَ أشهرٍ، وكانَ جمَّاعًا للمالِ، أحيى الرِّشوةَ بعدَ موتِها.

ثم **إبراهيم باشا**، تولَّى مصرَ سنةَ إحدى وتسعينَ وتسع مئةٍ، فأقامَ سنةً وخمسةَ أشهرٍ، ولَمَّا قدِمَ مصرَ فتَّشَ على حسن باشا، ونصَّبَ عنهُ وكيلًا في الدَّعاوى عليهِ،

---

(١) البنود: جمع بند، والبند: كل علم من أعلام الروم، يكون للقائد، تحت كل علم عشرة آلاف رجل. انظر: «المحكم» لابن سيده (مادة: بند).

(٢) «النصارى» من (خ).

ثمَّ ذهبَ بنفسِهِ إلى جميع[(١)] أقاليمِ مصرَ، حتى أتى إلى الصَّعيدِ الأقصى، ثم عادَ إلى مصرَ وهو[(٢)] بغايةِ العزَّةِ.

ثم **سنان باشا الدَّفتردارُ**، تولَّى مصرَ عامَ اثنين وتسعينَ وتسعمئةٍ، فأقامَ ستَّةَ شهورٍ وعشرينَ يومًا.

ثم **أويس باشا**، تولَّى مصرَ سنةَ أربعٍ وتسعينَ وتسعمئةٍ، فأقامَ خمسَ سنينَ وخمسةَ أشهرٍ وعشرةَ أيامٍ، ثم قامَ عليهِ العسكَرُ وقتلوا جماعتَهُ، وتمرَّدَ العسكرُ غايةَ التمرُّدِ، وهو أول باشا قامَ عليهِ العسكَرُ بمصرَ[(٣)].

ثم **حافظ أحمد باشا**، تولَّى مصرَ سنةَ تسعٍ وتسعينَ وتسع مئةٍ، فأقامَ أربعَ سنينَ، وكان مُحبًّا للعلماءِ والفقراءِ، صاحبَ رأيٍ وتدبيرٍ.

[السُّلطان محمَّد الثَّالث]

ثم تولَّى السُّلطانُ محمَّدُ بنُ السُّلطانِ مرادٍ، في شهرِ رمضانَ سنةَ ثلاثٍ بعدَ الألفِ، فأقامَ تسعَ سنينَ إلَّا شهرًا، وتوفِّيَ سادسَ رجبٍ عامَ اثني عشرَ وألفٍ.

وأمرَ في[(٤)] يومِ ولايتِهِ بقتلِ جميعِ إخوتِهِ، وكانوا تسعةَ عشرَ.

وفي أيَّامِهِ فتح مدينة أكري[(٥)] بعدَ قتالٍ شديدٍ، ....

(١) «جميع» من (ش).

(٢) «وهو» من (خ).

(٣) «وهو أول باشا قام عليه العسكر بمصر» من (خ).

(٤) «في» من (ش).

(٥) أكري: أكري بوجاق: مدينة في تركية الأوربية، في ولاية روم إيلي، لواء مناستر، حاليًا في اليونان. ويوجد بلدة اسمها أكري دره، أو أكري بلنقه، في تركية الأوربية، في ولاية أسكوب، على نهر كريفاريبكا، حاليًا في مقدونية. انظر: «المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية» =

وانهزَمتْ عساكرُ المسلمينَ، ثم تدارَكَ اللهُ بلطفِهِ، وفتحَها وكانَتْ غزوةً عظيمةً.

وفي أيَّامِهِ أيضًا ظهرتِ الخوارِجُ بجهاتِ حلبٍ، وما زالتِ الأمورُ في التَّخبيطِ إلى أن ظهرَ ابنُ جنبلاطٍ، وكانَ يدَّعي السَّلطنةَ، ونهبَ حمصَ وحماةَ والشَّامَ، واضطربَتِ الأحوالُ.

ذكرُ وزرائهِ بمصرَ

وهم أربعٌ أوَّلُهم:

قرط باشا، تولَّى مصرَ سنةَ ثلاثٍ وألفٍ، فأقامَ سنةً واحدةً وثمانيةَ أيَّامٍ.

ثم **السَّيِّدُ محمَّد باشا**، تولَّى مصرَ في شوالٍ سنةَ أربعٍ وألفٍ، فأقامَ سنتينِ وشهرين وعشرين يومًا، وكانَ كثيرَ النوالِ، وفي أيَّامِهِ جُدِّدَ عمارةُ الجامعِ الأزهرِ، ورتَّبَ له العدَسَ يُطبَخُ في كلِّ يومٍ للفقراءِ، ثم عمَّرَ المشهدَ الحُسينيَّ، ثم قامَ عليه العسكرُ، وطلبُوا قتلَهُ، وقتلوا جماعةً من الأكابرِ.

ثم **خضر باشا**، تولَّى مصرَ سابعَ عشرَ الحجَّة، سنةَ ستٍّ وألفٍ، فأقامَ ثلاثَ سنينَ، واثني عشرَ يومًا، ثم قامَ عليهِ العسكرُ وقتلوا جماعةً من الأكابرِ.

ثم **علي باشا**، تولَّى مصرَ في صفرٍ[1]، سنةَ عشرٍ وألفٍ، فأقامَ سنتَيْن ونحو شهرَيْنِ، وكانَ شُجاعًا كريمًا، سفَّاكًا للدِّماءِ، وفي أيَّامِهِ كانَ الغلاءُ الشَّديدُ بحيثُ بِيْعَتْ وَيْبَةُ[2]......................................

= لموستراس (ص٨٧).

(١) «في صفر» من (خ).

(٢) والويبة: اثنان وعشرون أو أربع وعشرون مدًّا بمدِّ النَّبيِّ ﷺ. مكيال قدره خمسة ونصف صاع، وهي تساوي عند الحنفية ٩٣، ١٧ لترًا، وعند غيرهم ١٢٥، ١٥ لترًا صاع. انظر: =

القمحِ بستَّةٍ وثلاثين نصفًا[1]، ثم وقعَ بعدَهُ الطَّاعونُ العظيمُ، ثم قامَ عليهِ العسكرُ بمقامِ سيدي أحمدَ البدويِّ، ثم سلَّمَ الله تعالى.

[السُّلطان أحمد الأوَّل]

ثم تولَّى السُّلطانُ أحمدُ بن السُّلطانِ محمَّدٍ، يومَ الأحدِ رابعَ عشرَ رجبٍ، عامَ اثني عشرَ وألفٍ، فأقامَ أربعَ عشرةَ سنةً وأربعةَ أشهرٍ، وتوفِّيَ في ذي القعدةِ، سنةَ ستٍّ وعشرينَ وألفٍ، وبلغَ من العمرِ نحو ثمانٍ وعشرينَ سنةً.

وخلَّفَ كما قيلَ[2] أربعةَ أولادٍ[3] ذكورٍ: عثمانَ ومحمَّدًا ومرادًا وبايزيدَ، وكانَ رحمَهُ اللهُ ملكًا عظيمًا، وسلطانًا جَسِيمًا، صاحبَ قوَّةٍ مفرطةٍ، وشجاعةٍ عظيمةٍ، عاليَ الهمَّةِ، عظيمَ[4] الشَّأنِ، وكان من أجلِّ ملوكِ[5] بني عثمانَ.

قتلَ من الوزراءَ الصُّدورِ[6] أربعةَ عشرَ وزيرًا.

وشرعَ في قطعِ دابرِ الخوارجِ، فقطَعهم عن آخرِهم، وانتزعَ حلبَ من يدِ[7] ابنِ

= «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: مكو)، و«معجم لغة الفقهاء» لمحمد روَّاس قلعجي (مادة: ويب).

(١) نصفًا: أي نصف فضة، وهو البارة، أي: الدرهم. انظر: «تكملة المعاجم العربية» لرينهات (مادة: فض).

(٢) «كما قيل» ليس في (ش).

(٣) «أولاد» ليس في (ش).

(٤) «عالي الهمة عظيم» ليس في (ش).

(٥) «ملوك» من (ش).

(٦) «الصدور» ليس في (ش).

(٧) «يد» من (ش).

جنبلاطَ، وحُمِلَ إليهِ أسيرًا، وأرسَلَ وزيرَهُ الأعظَمَ علي باشا إلى المجرِ بالعساكرِ الإسلاميَّةِ، فماتَ متوجِّهًا، فأُقيمَ مراد باشا مقامَهُ، فأوقعَ الصُّلحَ بينَ السُّلطانِ وبينَ المجرِ لمدَّةِ عشرين سنةً[١].

وكانَ السُّلطانُ أحمدُ هذا[٢] محِبًّا لعمارةِ الحرمَينِ الشَّريفينِ، وأنشأ أوقافًا من قرى[٣] مصرَ على خُدَّامِ الحرمِ الشَّريفِ، وجعلَ مناطِقَ من الفضَّةِ المحلَّاةِ بالذَّهبِ للكعبةِ المشرَّفةِ صونًا لها عن الهدمِ، وأرسَلَ شبابيكَ فضَّةٍ محلَّاةٍ بالذَّهبِ للحُجرةِ الشَّريفةِ، وفصًّا من الألماسِ يساوي ثمانينَ ألفَ دينارٍ، ليجعلَ فوقَ الكوكبِ الدُّرِّي[٤]، ثم عزَمَ على عِمارةِ الحرمِ النَّبويِّ على حكمِ الحرمِ المكِّيِّ، وأرسَلَ البَنَّائينَ والمهندِسينَ لذلكَ، فلم يُمهِلهُ الأجَلُ رحمَهُ الله تعالى.

وفي أيَّامِهِ بنى بالقسطنطينيَّةِ جامعًا عظِيمًا لم يُرَ كمثلِهِ، ولا حسنِ شكلِهِ، وهادَتهُ ملوكُ الأقاليمِ بالتُّحفِ من قناديلِ الذَّهبِ وغيرِها لتُعلَّقَ فيهِ، وبلغَتْ مصاريفُ نفقتِهِ نحوَ نفقةِ عمارةِ جامعِ بني أميَّةَ بدمشقَ، فإنهُ يقالُ: إنَّ الوليدَ بنَ عبدِ الملكِ الخليفةَ الأمويَّ أنفقَ عليهِ أربع مئةَ صندوقٍ من الذَّهبِ، في كلِّ صندوقٍ أحدَ عشرَ ألفَ مثقالٍ من الذَّهبِ.

---

(١) في (خ): «فأوقع السلطان الحرب بينه وبين المجر الحروب لمدة عشرين سنة».

(٢) «هذا» من (خ).

(٣) «قرى» من (ش).

(٤) الكوكب الدري: تجاه الوجه الشريف في الجدار، وهو مسمار من الفضة مموه بالذهب في رخامة حمراء، من استقبله كان مستقبل الوجه الشريف. انظر: «خلاصة الأثر» للمحبي (١/ ٢٨٩).

ذكرُ وزرائه بمصرَ

وهمُ ستَّةٌ أوَّلُهم:

إبراهيم باشا الشَّهيدُ، المستولي(١) على مصرَ، رابعَ عشرَ الحجَّة، عامَ اثني عشرَ وألفٍ، فأقامَ أربعةَ أشهرٍ وسبعةَ أيَّامٍ، ثم قامَ عليهِ العسكرُ لَمَّا توجَّهَ لقطعِ جسرِ أبي المنجَّا بعدَ أن تحالَفُوا عليهِ بالقَرافَةِ، ثم هجَمُوا عليهِ وهوَ في قريةِ(٢) شبرا، فضربَهُ شخصٌ منهم بالسَّيفِ على وجهِهِ، ثم قطعُوا رأسَهُ، وطيفَ بِهِ في القاهرةِ، ثم عُلِّقَ ببابِ زُويلَةَ، وكانَ أمرًا مهولًا لم يُعهَدْ لوزيرٍ بمصرَ قبلَهُ ولا بعدَهُ(٣).

ثم **محمَّد باشا الكرجيُّ**، استولَى على مصرَ في رجبٍ سنةَ ثلاثةَ عشرَ وألفٍ، فأقامَ سبعةَ أشهرٍ واثني عشرَ يومًا، وكانَ عندَهُ حسنُ سياسةٍ وتدبيرٍ، وجدَّ في الفتكِ بقتلةِ إبراهيمَ الوزيرِ، فقتَلَ منهم نحوَ مئتي شخصٍ، ولو طالَتْ أيَّامُهُ لاستأصلَهم.

ثم **حسن باشا**، استَولى على مصرَ مستهلَّ ربيعِ الأوَّلِ بعدَ عزلِهِ عن اليمنِ سنةَ أربعَ عشرةَ وألفٍ، فأقامَ سنتينِ إلَّا شهرًا، وجدَّدَ صحنَ الجامعِ الأزهرِ، وبنى رِواقًا لطيفا تجاهَ رواقِ اليمن.

ثم **محمَّد باشا**، قاتلُ الجندِ، استولى على مصرَ، في صفرٍ سنةَ ستَّ عشرةَ وألفٍ، فأقام أربعَ سنينَ وأربعةَ أشهرٍ واثني عشرَ يومًا، ثم لَمَّا(٤) جدَّ في شأنِ قتلةِ إبراهيم باشا وإبطالِ ظُلمِهم قاموا عليهِ، وتحالَفُوا بمقامِ سيدي أحمدَ البدويِّ،

---

(١) في (ش): «استولى» بدل «الشهيد المستولي».

(٢) «قرية» من (خ).

(٣) «ولا بعده» من (خ).

(٤) «لما» من (خ).

وارتفعَتْ كلِمَتُهم، ولولا جودةُ تدبيرِهِ لفتكُوا بهِ، فجرَّدَ لهم العساكرَ والعربان، فظفَروا بهم وقتلُوا منهم نحو الخمسينَ، وأسرُوا الباقين، ودخلُوا بهم القاهرةَ، وكانَ يومًا مشهودًا.

ثم أمرَ الباشا بقتلِ أكابرِهم نحوَ ثلاثٍ وعشرينَ، وقتلَ منهم أيضًا نحو الخمسينَ، وأمرَ بنفي الباقينَ إلى اليمنِ، ثم أمرَ بقطعِ الأرضِ التي كانوا يمشونَ عليها، فقطَعَ من أرضِ أزقَّةِ مصرَ نحوُ ذراعٍ.

ثم **محمَّد باشا الصُّوفيُّ**، استولى على مصرَ ثاني[1] عشرَ شعبانَ، سنةَ عشرينَ وألفٍ، فأقامَ نحوَ[2] أربعِ سنينَ.

ثم **أحمد باشا الدَّفتردارُ**، تولَّى مصَر سادسَ ربيعِ الثَّاني، سنةَ أربعٍ وعشرينَ، فأقامَ سنتينِ وعشرةَ أشهرٍ واثني عشر يومًا، وكانَ سَيوسًا، قليلَ السَّفكِ للدماءِ، وكانَ يحبُّ الفقراءَ[3].

[السُّلطان مصطفى الأوَّل]

ثم تولَّى **السُّلطانُ مصطفَى**: أخو السُّلطانِ أحمدَ، ثاني يومِ موتِهِ، ثالثَ عشرَ القعدةِ الحرامِ، سنةَ ستٍّ وعشرينَ وألفٍ، فأقامَ ثلاثةَ أشهرٍ وعشرةَ أيامٍ، ثم خُلِعَ من الملكِ ليلًا، يقالُ: وهو نائمٌ عندَ والدَتهِ ليلةَ الأربعاءِ، ثالثَ ربيعِ الأوَّلِ، سنةَ سبعٍ وعشرينَ وألفٍ، بعدَ أن استبشَرَ النَّاسُ بولايتِهِ؛ لِمَا كانَ يُحكَى عنهُ من الصَّلاحِ وتحرِّي العدلَ.

---

(١) «ثاني» من (ش).

(٢) «نحو» من (ش).

(٣) في (ش): «جمع المال».

وانخرَمت بِهِ قاعدةُ سلطنةِ بني عثمانَ من ثلاثةِ أوجهٍ:

أحدُهـا: أنَّ كلَّ مَـن تولَّـى منهم السَّـلطنةَ فإنَّمـا هوَ ابنُ السُّـلطانِ الَّـذي قبلَهُ، وهـذا أخوهُ.

ثانيهـا: أنَّ مَـن تولَّـى منهـمُ السَّـلطنةَ لـم يُعهَـد خلعُـهُ إلَّا بموتِـه، وهـذا خُلِعَ قهـرًا فـي حياتهِ.

ثالثُها: أنَّ كلَّ مَن تولَّى منهم تطولُ مدَّتُهُ، وأقلُّها ثمان سنينَ وشيءٌ، وهذا لم تطُل مدَّةُ ولايتِهِ.

وكانَ قد ولَّى مصرَ **لمصطفى باشا**، سنةَ سبعٍ وعشرينَ، غير أنَّه لم يدخُل مصرَ إلَّا بعدَ خلعِهِ، وتوليةِ السُّلطانِ عثمانَ الآتي ذكرُهُ، فأقامَ بمصرَ نحوَ ستَّةِ أشهرٍ، ثمَّ قامَ عليهِ العسكرُ، وعلى جماعةٍ آخرينَ معهُ، فقتَلُوا بعضَهم، واختفَى الباقونَ في ساعةٍ واحدةٍ بعدَ أن كانوا في غايةِ المنعَةِ والعزَّةِ والنَّعيمِ، يتذكَّرُ بهم المتفكِّرُ قولَ ربِّ العالمين: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٥].

ثـم عُـزِلَ مصطفى باشـا ثالثَ محـرَّمٍ سـنةَ ثمانٍ وعشـرينَ بجعفر باشـا الآتي ذِكرُه[١].

[السُّلطان عثمان الثَّاني]

ثـم تولَّـى **السُّـلطانُ عثمـانُ بـنُ السُّـلطانِ أحمدَ**، سـادسَ عشـرَ سـلاطينِ بني عثمـانَ، وهـو مراهـقٌ، جلـسَ علـى تخـتِ الملـكِ فـي سـادسِ سـاعةٍ مـن ليلـةِ

(١) «ثم عزل مصطفى باشا ثالث محرَّم سنة ثمان وعشرين بجعفر باشا الآتي ذكره» من (خ).

الأربعاءِ، بعدَ خَلْعِ عمِّهِ مصطفى، ثم أمرَ بوضعِهِ في مكانٍ حسنٍ، وأمرَ بإكرامِ والدَتِهِ، ووضعِ إخوَتِهِ هوَ في موضعٍ لا يدخُلُ عليهم فيه أحدٌ، فأقامَ أربعَ سنينَ ونحو أربعةِ أشهرٍ.

ثم بعدَ عودِهِ من الجهادِ في سنةِ إحدى وثلاثينَ وألفٍ عزمَ على الحجِّ الشَّريفِ، وأخرجَ خيامهُ للحج(١) في أوائلِ رجبٍ من تلك السَّنةِ، فوقعَتْ بينَ عسكَرِهِ بسببِ خروجِهِ للحجِّ فتنةٌ راحَ فيها إلى اللهِ مظلُومًا شهيدًا وسلطانًا حميدًا، وكان ذلكَ أمرًا مهولًا غريبًا لم يُعهَد مثلُهُ في سالفِ الزَّمانِ لأحدٍ من سلاطين بني عثمانَ، فتقطَّعتْ عليهِ القلوبُ حسراتٍ، وانسكبَتْ لمصابِهِ العبراتُ، وعظُمَ ذلكَ على كافةِ الرَّعايا، وكانَ ذلكَ من أعظمِ المصائبِ والرَّزايا، وقد أشبهَ في مصابِهِ السلطانُ عثمانُ مولانا أميرَ المؤمنينَ عثمانَ(٢).

وكانَ رحمَهُ اللهُ ملكًا مِقدامًا، وسُلطانًا هُمامًا، ذا همَّةٍ عاليةٍ، ورِفعةٍ ساميةٍ، شُجاعًا مهابًا، عاقِلًا وقورًا، مُعظَّمًا فاضلًا، مِن خيرِ ملوكِ الزَّمانِ، ومن أجَلِّ سلاطينِ بني عثمانَ، عليهم الرَّحمةُ والرُّضوانُ.

وفي أيَّامهِ أواخرَ سنةِ سبعٍ وعشرينَ طلعَ في السَّماءِ قُبيلَ طلوعِ الفجرِ عمودٌ أبيضُ مستطِيلٌ، طولُ منارةٍ مدَّةَ ليالي، ثم طلعَ بعدَهُ فورًا نجمٌ لهُ ذنَبٌ يضيءُ مستطيلٌ جدًّا، وأرجفَ المنجِّمونَ بأراجيفَ، وزعمُوا وقوعَ أمورٍ مَهولةٍ، وكذبُوا واللهِ، وصدقَ القائلُ:

أَطُلَّابَ النُّجومِ أحلتُمُونا ... عَلَى علمٍ أرقَّ من الهبَاءِ

---

(١) «للحج» من (ش).

(٢) «وقد أشبه في مصابه السلطان عثمان مولانا أمير المؤمنين عثمان» من (ش).

كنوزُ الأرضِ قد خَفِيَتْ عَلَيكُم فــكَيفَ وصَلتُمُ علمَ السَّـمَاءِ(١)

وفي أيَّامِهِ سنةَ ثلاثينَ وألفٍ خرجَ السُّلطانُ عثمانُ بنفسِهِ لقتالِ النَّصارى بعساكرَ عظيمةٍ تبلُغُ مِئينَ ألوفٍ، وغابَ فوقَ سبعةِ أشهرٍ، ودخلَتْ سنةُ إحدى وثلاثينَ وما جاءَ عنه خبرٌ صحيحٌ، ثم في ربيعٍ الأوَّلِ أواخرَ شهرِ كانونَ وَطُوبه(٢) وردَ الخَبرُ بأنَّ السُّلطانَ انتصرَ واستولى على كثيرٍ من بلادِ النصَارى، بعدَ أن قُتِلَ من الفريقَينِ ألوفٌ كثيرةٌ، وزيِّنتِ الأمصارُ بورودِ هذه البشرى العظيمةِ والمسرَّةِ الجسيمَةِ، وزُيِّنت مصرُ وكانَ بها(٣) حينئذٍ الطَّاعونُ، فاجتمَعَ بها ضِدانِ غريبانِ؛ وهما الحزنُ بسببِ الطَّاعونِ، والسُّرورُ بزينةِ السُّلطانِ المأمونِ(٤).

وهذهِ الزِّينةُ لا أعلَمُ أوَّلَ مَن أحدَثها في الإسلامِ وأظهرَها بينَ الأنامِ، وهيَ في الحقيقةِ مضرَّةٌ على المتسبِّبين لِمَا فيها من المغرمِ والكسادِ، مسرَّةٌ لأهلِ الخلاعةِ والتَّمزيقِ والفسادِ.

ذكرُ وزرائهِ بمصرَ

وهُم خمسةٌ أوَّلُهم:

مصطفى باشا، المتقدِّمُ ذكرُهُ.

ثم **جعفر باشا**، دخَلَ مصرَ ضحوةَ نهارِ الإثنَينِ، عاشرَ ربيعِ الأوَّلِ، فأقامَ ستَّةَ

---

(١) البيتان لابن عبد البر. انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي (٢٩/ ١٠٠)، ولفظه:

أمتحلـــي النجـــوم أحلتمـــونا على علـــم أرق مـــن الهبـــاء
علـوم الأرض مـا أحكـمـتـمـوها فكيف بكـم إلـى علـم السـماء

(٢) طوبه: هو شهر كانون الثاني عند القبط. انظر: «مروج الذهب» للمسعودي (١/ ٢٤٦).

(٣) «بها» من (خ).

(٤) «المأمون» من (خ).

أشهرٍ، ثمَّ عُزِلَ في أواخرِ شعبانَ سنةَ ثمانٍ وعشرين، وفي أيَّامِه وقعَ الطَّاعونُ العظيمُ، ودامَ بمصرَ نحو ثلاثةِ أشهرٍ، وبلغَتِ الموتى بالقاهرةِ كلَّ يومٍ نحوَ خمسةِ آلافٍ، ثم امتدَّ بإقليمِ الشَّامِ.

ثم **مصطفَى باشا**، دخَلَ مصرَ، يومَ السَّبتِ، ثامِنَ عشرَ رمضانَ، سنةَ ثمانٍ وعشرينَ، فأقامَ سنةً إلَّا قليلًا، ثم عُزِلَ في عاشرِ رمضانَ سنةَ تسعٍ وعشرينَ.

وكانَ قد قتلَ مصطفى الصُّنجقَ رأسَ عساكرِ مصرَ، بعدَ أن عظُمَ أمرُهُ، وخيفَ على السَّلطنةِ من خروجِهِ واستيلائهِ على مصرَ، ولم يَنتَطِح في قتلِهِ شاتانِ؛ لحسنِ تدبيرِه في قتلِهِ.

ثم **حسن باشا**، دخلَ مصرَ ضحوةَ نهارِ الأربعاءِ في العشرينَ من رمضانَ، ولم يعهَد باشا[1] أسرعُ مجيئًا منهُ، لأنه ليسَ بينَ ورودِ خبرِهِ ودخولِهِ مصرَ[2] سوَى عشرةِ أيامٍ، وأمرَ بالترسيمِ على مصطفَى باشا في القلعةِ، وعمِلَ حسابُهُ وأخذَ منهُ للسَّلطنةِ مالًا جزيلًا، فأقامَ سنةً ونحوَ ثمانيةِ أشهرٍ، ثم عزِلَ في العشرينَ من ربيعٍ الثَّاني سنةَ إحدى وثلاثينَ.

وفي أيامهِ زادَ النِّيلُ زيادةً عظيمةً قريبًا من ثلاثةٍ وعشرينَ ذراعًا، ثم بعدَ أن نقَصَ في أوانِ نقصِهِ زادَ زيادةً عظيمةً، وأتلَفَ بعضَ زروعٍ للنَّاسِ، واستمرَّ الخليجُ يجرِي بالقاهرةِ فوقَ المئةِ يومٍ، وهذا لم يُعهَدْ مثلُهُ، وحصَلَ غلاءٌ عظيمٌ بحيثُ بيعَتْ وَيبةُ القمحِ بنحو أربعينَ نصفًا، ومعَ ذلكَ فالقوتُ موجودٌ بكثرَةٍ، والقلوبُ مطمئنةٌ بسببِ زيادةِ النِّيلِ وعمومِهِ لجميعِ أرضِ مصرَ.

---

(١) «باشا» من (خ).

(٢) «مصر» من (خ).

ووقعَ الطَّاعونُ لكنَّ أكثرَهُ كانَ في الغرباءِ والرَّقيقِ، ودامَ نحوَ ثلاثةِ أشهرٍ[١].

ثم **محمَّد باشا**، دخلَ مصرَ، ضحوةَ يومِ الإثنينِ، رابعَ عشرَ جمادى الثَّاني، سنةَ إحدى وثلاثينَ وألفٍ.

وفي أيَّامهِ وردَ الخبرُ إلى مصرَ بزوالِ السُّلطانِ عثمانَ[٢]، وعودِ السُّلطانِ مُصطَفى للسَّلطنةِ، فأقامَ محمَّدُ باشا المذكورُ[٣] نحو خمسةٍ وسبعينَ يومًا، ثم عُزلَ في أواخرِ شعبانَ، سنةَ إحدى وثلاثينَ وألفٍ.

***

[السُّلطان مصطفى الأوَّل ـ مرَّة ثانية]

ثم عادَ السُّلطانُ مُصطفَى عمُّ السُّلطانِ عثمانَ الشَّهيدِ إلى السَّلطنةِ، في ثامنِ رجبٍ سنةَ إحدى وثلاثينَ وألفٍ.

ذكرُ وزرائهِ في مصرَ

أوَّلُهم: **إبراهيمُ باشا**، دخلَ مصرَ يومَ السَّبتِ، السَّابعِ من رمضانَ، سنةَ إحدى وثلاثينَ وألفٍ.

واللهَ تعالى أسألُ أن يُصلِحَ حالَ ولاةِ المسلمينَ، وأن يُعلِيَ كلمةَ الإيمانِ، وأن

---

(١) في (خ): «واللهَ تعالى أسألُ أن يصلِحَ حالَ ولاة أمورِ المسلمينَ، وأن يُعلِيَ كلمةَ الإيمانِ، وأن يصلِحَ حالَ مولانا السلطانِ، وحال رعيَّتِهِ، وأن يجعَلَ السلطنةَ الإسلاميةَ في هذا البيتِ بدوامِ الملةِ المحمديَّةِ والشريعةِ الأحمديَّةِ جددَ اللهُ لهم نصرًا، ورفَعَ لهم قدرًا، وأعلَى لهم مقامًا وذِكرًا، آمينَ».

(٢) «عثمان» من (خ).

(٣) «باشا المذكور» من (ش).

يصلِحَ مولانا السُّلطانَ، وحالَ رعيَّتِهِ، وأن يجعَلَ السَّلطنةَ الإسلاميَّةَ في هذا البيتِ بدوامِ الملَّةِ المحمَّدِيَّةِ والشَّريعةِ الأحمديَّةِ، جدَّدَ اللهُ لهم نصرًا، ورفعَ لهم قدرًا، وأعلا لهم مَقامًا وذِكرًا، آمينَ[١].

***

خاتمةٌ

[موعظة ونصيحة]

قد أحببتُ أن أذكُرَ هنا موعظَةً ونصيحةً؛ عمَلًا بقولِ النَّبيِّ ﷺ الواردِ في «الصَّحيحِ»: «الدِّينُ النَّصيحةُ، الدِّينُ النَّصيحةُ، الدِّينُ النَّصيحةُ» قالوا: لمن يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «للهِ ولكتابهِ ولرسُولِهِ ولأئمَّةِ المسلِمينَ ولعامَّتِهم»[٢].

وفي «مسلمٍ» قالَ النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ يرضَى لكم ثلاثًا؛ أن تعبُدُوهُ ولا تشرِكُوا به شيئًا، وأن تعتَصِموا بحبلِ اللهِ جميعًا ولا تفرَّقُوا، وأن تناصِحُوا مَنْ ولَّاه اللهُ أمرَكُم»[٣].

وقالَ ابن عقيلٍ في «الفنونِ»: من أعظَمِ منافعِ الإسلامِ، وآكدِ قواعدِ الأديانِ[٤]:

---

(١) من قوله: «وألف، ذكر وزرائه في مصر» إلى هنا من (ش).

(٢) رواه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رضي الله عنه. لكن دون تكرار قوله: «الدين النصيحة»، وتكرارها هو في رواية أبي داود (٤٩٤٤).

(٣) رواه مسلم (١٧١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وليس فيه: «وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»، ورواه بلفظ الأصل الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٩٠)، وأبو عوانة في «المستخرج» (٦٣٨٧).

(٤) في (خ): «الإيمان».

الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَرِ والتَّناصُحُ، فهذا أشقُّ ما يحمِلُهُ المكلَّفُ؛ لأنَّهُ مقامُ الرُّسُلِ، حيثُ يثقلُ صاحبُهُ عن الطِّباعِ، وتنفِرُ عنه نفوسُ أهلِ اللذَّاتِ، وتمقتُهُ أهلُ الخلاعةِ(١).

[لا يجوز تعدد الإمام]

إذا تقرَّرَ هذا فاعلَم أنَّهُ لا يجوزُ تعدُّدُ الإمامِ، فلا يحلُّ نصبُ(٢) إمامَينِ في وقتٍ واحدٍ، وإن تباعَدَ إقليمُهما؛ لما يترتَّبُ على ذلكَ عندَ منازعَتِهما من الفتنِ، بخلافِ تعدُّدِ الرُّسلِ؛ لعصمَتِهم عليهم السَّلامُ.

قلْتُ: فلو تغلَّبَ كلُّ سلطانٍ على ناحيةٍ من البلادِ كزمانِنا هذا، فحكمُهُ كالإمامِ في الأحكامِ الآتيةِ، وهيَ أنَّهُ يلزَمُ الإمامَ حفظُ الدِّينِ، وتنفيذُ الأحكامِ، وحفظُ الرعيَّةِ، وإنصافُ بعضِهم من بعضٍ، وإقامةُ الحدودِ، وتحصينُ الثُّغورِ، وجهادُ مَنْ عاندَ الإسلامَ، وجبايةُ الفيءِ والصَّدقاتِ على ما أوجبَهُ الشَّرعُ، وتقديرُ العطاءِ لمستحقِّهِ في بيتِ المالِ بلا سَرَفٍ، واستكتابُ الأمناءِ، وتقليدُ النُّصحاءِ، فيما يفوِّضُهم إليهم من الأعمالِ، وأن يُباشِرَ بنفسِه مشارفةَ الأمورِ وتصفُّحَ الأحوالِ، ولا يعوِّلَ على التَّفويضِ، فقد يخونُ الأمينُ، ويغشُّ النَّاصِحُ.

[وجوب الطاعة وحرمة الخروج على الإمام]

فإذا قامَ بحقوقِ الأمَّةِ وجبَ له عليهمُ الطَّاعةُ والنُّصرةُ إجماعًا، ويحرُمُ الخروجُ عليهِ وخَلعُهُ، ولو غيرَ عدلٍ، خِلافًا لطائفةٍ من العلماءِ؛ محتَجِّينَ بخروجِ الحسينِ على يزيدَ بنِ مُعاويةَ، والصَّحيحُ التَّحريمُ؛ لما يترتَّبُ على ذلكَ من سفكِ الدِّماءِ،

(١) انظر: «الفروع» لابن مفلح (٢/ ٩٥).

(٢) «نصب» من (خ).

ونهبِ الذَّرارِي والأموالِ، وإخافةِ السَّبيلِ، وحرقِ الزَّرعِ والأشجارِ وغيرِ ذلكَ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»: «مَن أتاكُم وأمرُكم على رجلٍ واحدٍ يريدُ أن يشُقَّ عصاكُم أو يفرِّقَ جماعتكُم فاقتلُوه»(١).

وفي روايةٍ: «فمن أرادَ أن يفرِّقَ أمرَ هذه الأُمَّةِ وهي جميعٌ فاضربوهُ بالسَّيفِ كائنًا من كانَ»(٢).

بل طاعتُهُ مطلوبةٌ، قالَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]، فافتتحَ سبحانَهُ وتعالى هذهِ الآيةَ بإيجابِ طاعَتِهِ على الخلقِ، وثنَّى بإيجابِ طاعةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وثلَّثَ بطاعةِ أولي الأمرِ، والمرادُ بهم الأئمَّةُ الَّذين إليهِم أمورُ هذهِ الأمَّةِ هكذا.

قالَ أنسُ بن مالكٍ رضي اللهُ عنه حينَ سُئِلَ عن تفسيرِ قولِه: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ فقالَ: هم الأئمَّةُ الرَّاشِدُونَ، فمنهم أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ، ومن يَلِي أمورَ هذهِ الأمَّةِ إلى قيامِ السَّاعةِ، هكَذا سمعْتُ نبيَّكُم ﷺ يقولُ(٣).

فيجِبُ طاعَتُهم إلَّا أن يأمُرُوا بمعصيةٍ، فإن أمروا بها فلا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ، ويجِبُ على السُّلطانِ أن يستَنيبَ ويستَعمِلَ أصلحَ من يجِدُهُ، وقد لا يجِدُ الأصلحَ لِتلكَ الولايةِ، فيختارُ الأمثلَ فالأمثلَ.

ففي الحديثِ: «إن اللهَ يحِبُّ البصيرَ النَّاقدَ عندَ ورودِ الشُّبهاتِ، ويحبُّ العقلَ الكاملَ عندَ حلولِ الشَّهواتِ»(٤).

---

(١) رواه مسلم (١٨٥٢/ ٦٠) من حديث عرفجة بن شريح رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٨٥٢/ ٥٩).

(٣) لم أقف على هذا الحديث.

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٩٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٨٠، ١٠٨١) من =

وإذا وجدَ رجلينِ؛ أحدُهما أعظَمُ أمانةً، والآخرُ أعظَمُ قوَّةً، قدَّمَ أنفعَهُما لتلكَ الولايةِ(١)، فيقدِّمُ في إمارةِ الحربِ القويَّ الشُّجاعَ وإن كانَ فيهِ فجورٌ على الضَّعيفِ العاجزِ وإن كانَ أمِينًا، فقد سُئِلَ الإمامُ أحمدُ عن أميرَينِ في الغزوِ؛ أحدُهما قويٌّ فاجرٌ، والآخرُ صالحٌ ضعيفٌ، مع أيِّهما يغزو؟ قالَ: أمَّا الفاجِرُ القويُّ فقوَّته للمسلِمينَ وفجورُه على نفسِهِ، وأمَّا الصَّالحُ الضَّعيفُ فصلاحُهُ لنفسِهِ وضعفُهُ على المسلمينَ، يُغزَى مع القويِّ الفاجرِ(٢).

وفي الحديثِ: «إن اللهَ يؤيِّدُ هذا الدِّينَ بالرَّجُلِ الفاجرِ»(٣).

ورويَ: «بأقوامٍ لا خَلاقَ لهم»(٤).

وإذا كانَ السُّلطانُ شديدًا استنابَ ليِّنًا، وإن كانَ ليِّنًا استنابَ شديدًا ليكونَ أمرُهُ معتدِلًا، ولذلكَ كانَ أبو بكرٍ الصِّديقُ يؤثِرُ استنابةَ خالدِ بن الوليدِ، وعمرُ يؤثرُ عزلَهُ وتولِّي أبا عبيدةَ بن الجراحِ؛ لأنَّ خالدًا كان شديدًا كعمرَ، وأبا بكرٍ كانَ ليِّنًا كأبي عبيدةَ.

= حديث عمران بن حصين رضي الله عنه. قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١٧٧٤): وفيه حفص بن عمر العدني ضعفه الجمهور.

(١) من قوله: «عند حلول الشهوات» إلى هنا سقط من (خ).

(٢) انظر: «المغني» لابن قدامة (٩/ ٢٠١).

(٣) رواه البخاري (٤٢٠٣)، ومسلم (١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٤٥٤) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.
ورواه البزار في «مسنده» (٦٦٤١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٨٣٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٥١٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

[الإمام العادل أفضل المجاهدين]

فإذا اجتهدَ السُّلطانُ في صلاحِ رعيَّتِهِ كانَ أفضلَ أهلِ زمانِهِ، وكانَ من أفضلِ المجاهِدِينَ.

فقد روِيَ: «يومٌ من أيَّامِ الإمامِ العادلِ أفضَلُ من عبادةِ ستِّينَ سنةً»(١).

وفي الحديثِ: «أحبُّ الخلقِ إلى اللهِ تعالى إمامٌ عادِلٌ، وأبغضُهم إليهِ إمامٌ جائرٌ»(٢).

وقالَ الإمامُ عبدُ اللهِ بنُ طاهرٍ(٣): لا ينبَغِي للملِكِ أنْ يَظلِمَ وبهِ يُدفَعُ الظُّلمُ، ولا يَبخلَ وبهِ يتوقَّعُ الجودُ، وليقاتل ليكونَ الدِّينُ كلُّهُ للهِ(٤).

ففي «الصحِيحينِ»: قيلَ للنَّبيِّ ﷺ: يا رسولَ اللهِ! الرَّجلُ يقاتلُ شجاعةً، ويقاتِلُ

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٩٣٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٦٦٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٩٧): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه سعد أبو غيلان الشيباني ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) روى نحوه الإمام أحمد في «المسند» (١١١٧٤)، والترمذي (١٣٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن غريب». وفي سنده عطية العوفي. قال الذهبي في «الكاشف» (٢/ ٢٧): ضعفوه.

(٣) عبد الله بن طاهر: أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين، أحد الأجواد السمحاء، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، ولاه الشام حربًا وخراجًا، فخرج من بغداد إليها، واحتوى عليها، وبلغ إلى مصر، ثم عاد، فولاه المأمون إمارة خراسان، فخرج إليها، وأقام بها حتَّى مات، وتوفي سنة ٢٣٠هـ. انظر: «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (١١/ ١٦٢)، «الوافي بالوفيات» للصفدي (٣/ ٨٣).

(٤) انظر: «الإعجاز والإيجاز» للثعالبي (ص٨٢).

حميةً، ويقاتلُ رياءً، فأيُّ ذلكَ في سبيلِ اللهِ، فقالَ: «مَنْ يُقاتِلُ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا فهوَ في سبيلِ اللهِ»(١).

وكلمةُ اللهِ: اسمٌ جامعٌ لكلماتِهِ، التي تضمَّنَها كتابُهُ، فمن عدَلَ عن الكتابِ قوِّمَ بالحديد، ففيه منافعُ للنَّاسِ، فقوامُ الدِّينِ بالمصحَفِ والسَّيفِ.

فعن جابرٍ: أمرَنا رسولُ اللهِ ﷺ أن نضرِبَ بهذا ـ يعني: السَّيفَ ـ من عدَلَ عن هذا، ـ يعني: المصحفَ ـ (٢).

[لا يحتجب الإمام عن الناس]

ولا يحتَجِب السلطان عنِ النَّاسِ، فقد روَى إمامُنا أحمدُ بنُ حنبلٍ في «مسنَدِه»، والتِّرمذِيُّ في «جامعِهِ»، عن عَمرِو بن مُرَّةَ رضيَ اللهُ عنه قالَ: سمعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «ما مِنْ إمامٍ أو والٍ يغلِقُ بابَهُ دونَ ذِي الخَلَّةِ والحاجةِ والـمَسْكَنَةِ إلَّا أغلَقَ اللهُ أبوابَ السَّماءِ دونَ خَلَّتِهِ وحاجَتِهِ ومَسْكَنَتِهِ»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٢/ ٢٧٩)، ولفظه: «عن عمرو بن دينار قال: رأيت جابر بن عبد الله وبيده السيف والمصحف وهو يقول: أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا من خالف ما في هذا».

وروى نحوه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٩٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (٥٨٤٢)، وصححه على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي. ولفظ سعيد بن منصور: «قال جابر بن عبد الله: بعثنا عثمان في خمسين راكبًا، وأميرنا محمد بن مسلمة، فلما انتهينا إلى ذي خشب استقبلنا رجل في عنقه مصحف، متقلد سيفه، تذرف عيناه، فقال: إن هذا يأمرنا أن نضرب بهذا ـ يعني السيف ـ على ما في هذا، فقال له محمد: اجلس فنحن قد ضربنا بهذا على ما في هذا قبلك أو قبل أن تولد. قال: فلم يزل يكلمهم حتى رجعوا».

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٠٣٣)، والترمذي (١٣٣٢) وقال: غريب، وكذا رواه أبو داود =

ولهذا كانَ بعضُ الحكَّامِ لا يغيبُ من بيتِهِ، ولا يسكُنُ إلَّا في دهليزٍ[(١)].

وروَى أبـو داودُ والحاكِـمُ وصحَّـحَ إسـنادَهُ: «مـن وليَ مـن أمورِ النَّاسِ شـيئًا فاحتجَـبَ عنهُم حجَبَـه اللهُ يـومَ القيامةِ»[(٢)].

ورواهُ الطَّبرانيُّ بلفظِ: «أيما أميرٍ احتجَبَ عن النَّاسِ حاجَتَهم احتجَبَ اللهُ عنه يومَ القيامةِ»[(٣)].

[الرفق بالرعية والنصح لهم]

وليرفُق برعيَّتِهِ ويجتَهِدْ في النُّصحِ لهم. ففي «مسلمٍ» عن عائشَةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ: سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ في بيتي هذا: «اللَّهمَّ مَنْ وليَ مِنْ أمورِ أُمَّتي شيئًا فشقَّ عليهم فاشقُقِ اللَّهمَّ عليهِ، ومَنْ وليَ مِنْ أمرِ أُمَّتي شيئًا فرَفقَ بهم فارفُقْ بهِ»[(٤)].

= (٢٩٤٨) وهو الحديث الآتي.

(١) دهليـز: مـا بيـن الباب والدَّار، فارسيٌّ معـرّب. والجمـع الدهاليز. انظـر: «الصحـاح» للجواهري (مـادة: دهلز).

(٢) رواه أبو داود (٢٩٤٨)، والحاكم في «المستدرك» (٧٠٢٧) من حديث أبي مريم الأزدي، وصححه ووافقه الذهبي.

وفرق الحاكم بين حديث أبي مريم الأزدي وحديث عمرو بن مرة، فجعل حديث عمرو شاهدًا لحديث أبي مريم، وقال الترمذي بعد روايته للحديث: وعمرو بن مرة الجهني يكنى أبا مريم. وذكر التّرمذيُّ ـ عن البخاريّ ـ أن صاحب هذا الحديث هو عمرو بن مرة الجهنيِّ، وقد جزم غير واحد بأنه غيره. انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٧/ ٣٠٧).

(٣) من قوله: «وروى أبو داود والحاكم» إلى هنا ليس في (ش). وروى الطبراني في «معجمه» حديثين بمعناه؛ الأول (٢٠/ ١٥٢) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، والثاني (٢٢/ ٣٣١) من حديث أبي مريم رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (١٨٢٨).

وفي «الصَّحيحَينِ» عن مَعقلِ بن يَسارٍ رضيَ اللهُ عنه يقولُ: «ما مِنْ عَبْدٍ يَسْترعيهِ اللهُ رَعِيةً يموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌّ لرَعيَّتهِ إلَّا حرَّمَ اللهُ عليه الجَنَّةَ»(١).

وفي رواية لمسلمٍ: «ما من أميرٍ يلي أمورَ المسلمينَ ثم لا يجهدُ لهم وينصَحُ لهم إلَّا(٢) لم يدخُلْ معهم(٣) الجنَّةَ»(٤).

[كيف يتعامل الإمام مع المال]

وعلى السُّلطانِ أن يأخُذَ المالَ من حلِّهِ(٥)، ويضعَهُ في حقِّهِ، ولا يمنعُه من مستحقِّهِ، فتُحمَلُ إليهِ الأموالُ، ويبارِكُ اللهُ له فيها، وجاءَ(٦) إلى الإمامِ عمرَ بن الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ مالٌ عظيمٌ من الخُمسِ فقالَ: إنَّ قومًا أدَّوا الأمانةَ في هذا لأمناءُ، فقالَ له(٧) بعضُ الحاضرينَ: إنَّك أدَّيْتَ الأمانةَ إلى اللهِ فأدَّوا إليكَ الأمانةَ، ولو رتعْتَ رتَعُوا(٨).

وما أُخِذَ نوَّابُهُ من مالِ المسلمينَ بغير حقٍّ كالهدايا والرِّشوةِ فعليهِ أخذُهُ منهم، ودفعُهُ لأربابهِ، فإنْ جُهِلوا وضعَهُ في بيتِ المالِ، ففي الحديثِ: «هدايا الأمراءِ غُلولٌ»(٩).

---

(١) رواه البخاري (٧١٥١)، ومسلم (١٤٢).

(٢) «إلا» من (ش).

(٣) «معهم» من (خ).

(٤) رواه مسلم (١٤٢/ ٢٢٩).

(٥) «وعلى السلطان أن يأخذ المال من حلِّه» سقط من (ش).

(٦) في (ش): «حمل مرة».

(٧) «له» من (ش).

(٨) رواه البيهقي في «سننه» (١٣٠٣٣).

(٩) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٦٠١)، والبزار في «مسنده» (٣٧٢٣) من حديث أبي حميد =

وفي حديثِ أحمدَ وأبي داودَ: «من شفَعَ لأخيهِ شفاعةً فأهدَى له عَلَيها هديةً فقبِلَها، فقد أتى بابًا عظِيمًا من أبوابِ[١] الرِّبا»[٢].

وعنِ ابن مسعودٍ قالَ: السُّحْتُ أنْ يطلُبَ الرَّجلُ للرَّجلِ، فيقضيَ لهُ فيها، فيهدِيَ إليهِ هديةً فيقبَلَها[٣].

ونُقِلَ عن عمرَ وعليٍّ وابنِ مسعودٍ وابنِ عبَّاسٍ ومسروقٍ في قولِهِ تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]: نزلَت في اليهودِ، كانوا يسمَعُونَ لمن يكذِبُ عندَهم، ويأخذُونَ الرِّشوةَ ممَّن يحكُمونَ لهُ، والهديةَ ممَّن يشفَعونَ لهُ[٤].

وكانَ ﷺ يقولُ: «أبلغُوني حاجةَ من لا يستطيعُ إبلاغَها، فإنَّهُ مَنْ أبلَغَ ذا سلطانٍ حاجةَ مَنْ لا يستطيعُ إبلاغَها ثبَّتَ اللهُ قدميهِ على الصِّراطِ يومَ تزِلُّ الأقدامُ»[٥].

= الساعدي رضي الله عنه. وروي من حديث أبي هريرة وجابر وابن عباس رضي الله عنهم. وفيها كلها ضعف. انظر: «مجمع الزوائد» للهيثمي (٤/ ١٥١)، و«التلخيص الحبير» لابن حجر (٤/ ٣٤٨).

(١) «أبواب» من (خ).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٢٥١)، وأبو داود (٣٥٤١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) عزاه ابن تيمية في «السياسة الشراعية» (ص٤١)، والموصلي في «حسن السلوك» (ص١٣٩) لإبراهيم الحربي.

(٤) من قوله: «ونقل عن عمر» إلى هنا ليس في (ش). وانظر الآثار عنهم بمعناه في «تفسير الطبري» (٨/ ٤٢٨)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٨٠).

(٥) رواه البزار في «مسنده» (٤١٢١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢١٠): رواه البزار في حديث طويل، وفيه سعيد البراد، وبقية رجاله ثقات.

ورواه الآجري في «الشريعة» (١٠٢٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ١٥٥) من حديث هند بن أبي هالة رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٧٥): فيه من لم يسمَّ.

[إقامة الحدود من واجبات الإمام]

ويجبُ على السُّلطانِ إقامةُ الحدودِ على المشروفِ والشَّريفِ، والقويِّ والضَّعيفِ، ويكونُ السُّلطانُ شديدًا في إقامةِ الحدِّ، لا تأخذُهُ رأفةٌ في دينِ اللهِ فيعطِّلهُ، ويكونُ قصدُهُ رحمةَ الخلقِ بكفِّ النَّاسِ عن المنكراتِ، لا شفاءَ غيظِهِ، وإرادةَ العلوِّ؛ فإنَّ إقامةَ الحدِّ رحمةٌ مِنَ اللهِ لعبادِه، ولا يحلُّ تعطيلُه بعدَ بلوغِهِ إليه لا بشفاعةٍ ولا هديةٍ ولا غيرِهما، ولا تحلُّ الشَّفاعةُ فيهِ، ومن عطَّلهُ لذلكَ فعلَيه لعنةُ اللهِ.

وفي حديثِ أبي داودَ: «مَنْ حالَتْ شفاعتُهُ دونَ حدٍّ مِنْ حدودِ اللهِ فقد ضادَّ اللهَ في أمرِهِ، ومَنْ خاصَمَ في باطلٍ وهو يعلَمُ لم يزَل في غضَبِ[1] اللهِ حتَّى ينزِعَ»[2].

ولَمَّا شفعُوا عندَ النَّبيِّ ﷺ في المخزوميَّةِ الَّتي أرادَ قَطْعَ يدِها، غضِبَ وقالَ لأسامةَ: «أتشفَعُ في حدٍّ مِنْ حُدودِ اللهِ؟ إنَّما هلَكَ بنو إسرائيلَ أنَّهم كانُوا إذا سرَقَ فيهم الشَّريفُ تركُوهُ، وإذا سرَقَ فيهم الضَّعيفُ أقاموا عليهِ الحدَّ، والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ، لو أن فاطمةَ بنتَ محمَّدٍ سرقَتْ لقطعْتُ يدَها»[3].

وروى الإمامُ مالكٌ في «الموطَّأ»: أنَّ جماعةً أمسَكُوا لصًّا ليرفعُوهُ إلى عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ، فتلقَّاهمُ الزُّبيرُ، فكلَّمَهُم الزُّبيرُ فيهِ، فقالوا: إذا رُفِعَ إلى عثمانَ فاشفَع فيه عندَهُ، فارتفَعُوا إلى عثمانَ فقالَ: إذا بلغَتِ الحدودُ السُّلطانَ، فلعنَ اللهُ الشَّافِعَ والمشفَّعَ[4]. يعني: الَّذي يقبَلُ الشَّفاعةَ.

---

(١) في (ش): «سخط».

(٢) رواه أبو داود (٣٥٩٧) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٣٥).

وسرقَ لصٌّ[١] رداءَ صفوانَ بنَ أميَّةَ، فأمسَكَهُ، وأتى بهِ للنَّبيِّ ﷺ، فأمرَ بقطعِ يده، فقالَ: يا رسولَ اللهِ! على ردائي تقطَعُ يداهُ؟ أنا أهبُه لهُ، فقالَ: «فهلَّا قبلَ أن تأتِيَني به[٢] غفرْتَ»، ثم قُطِعَتْ يدُه. رواهُ أهلُ السُّننِ[٣].

وليسَ في حسنِ السِّياسةِ والإحسانِ للرَّعيةِ أن يفعَلَ ما يَهْوُونَه، ويترُكَ ما يكرَهُونَهُ، فقد قالَ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وفي سننِ النَّسَائيِّ وابنِ ماجه عن أبي هُرَيرةَ مرفوعًا: «حدٌّ يُعمَلُ بهِ في الأرضِ خيرٌ لأهلِ الأرضِ مِنْ أنْ تُمطِرَ أربعينَ صَباحًا»[٤].

وهذا لأنَّ المعاصي سببٌ لنقصِ الرِّزقِ والخوفِ، فإذا أقيمَتِ الحدودُ نقصَتِ المعاصي، فيحصُلُ الرِّزقُ والنَّصرُ، فلا يجوزُ أن يُؤخَذَ من الزَّاني أو السَّارقِ أو الشَّاربِ أو قاطعِ الطَّريقِ ونحوِه مالٌ يعطِّلُ به الحدَّ، لا لبيتِ المالِ، ولا لغيرِه، فإنْ فعلَ السُّلطانُ ذلكَ عطَّلَ الحدَّ وأكلَ السُّحْتَ، وأشبهَ اليهودَ الذينَ قالَ اللهُ تعالى فيهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي: الرِّشوةِ التي تسمَّى البِرطيلَ.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: قد أجمَعَ المسلمونَ على أن تعطيلَ الحدِّ بمالٍ يؤخَذُ منهُ أو غيرُه لا يجوزُ، وأجمعُوا على أنَّه مالُ سحتٍ خبيثٌ، وأنَّ ذلكَ سببُ سقوطِ حُرمةِ السُّلطانِ وسقوطِ قَدرِهِ منَ القلوبِ وانحلالِ أمرِهِ.

---

(١) «لص» من (ش).

(٢) «به» من (ش).

(٣) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٣٤)، وأبو داود (٤٣٩٤)، والنسائي (٤٨٨٤)، وابن ماجه (٢٥٩٥).

(٤) رواه النسائي (٤٩٠٤)، وابن ماجه (٢٥٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قالَ: وأصلُ البرطيلِ هوَ الحجرُ المستطيلُ، سمِّيتْ بِهِ الرِّشوةُ لأنها تلقِمُ المرتَشِي عن التَّكلُّمِ بالحقِّ كما يلقِمُهُ الحجرُ الطَّويلُ(١).

وفي الأثرِ: إذا دخلَتِ الرِّشوةُ من البابِ خرجَتِ الأمانةُ من الكُوَّةِ(٢).

وأنشَدُوا في ذلكَ(٣):

إذا أَتَتِ الهَدِيَّةُ دارَ قَومٍ ... تطَايرَتِ الأمَانةُ مِن كُواهَا(٤)

فإذا تركَ السُّلطانُ إنكارَ المنكَراتِ وإقامةَ الحدودِ لمالٍ يأخذُهُ، قالَ ابنُ تيميةَ: كانَ بمنزلةِ مقدَّمِ الحراميَّةِ الَّذي يقاسِمُ المحارِبينَ على النَّهبِ، وبمنزلَةِ القوَّادِ الذي يأخذُ ما يأخذُهُ ليجمَعَ بين اثنينِ على فاحشةٍ، وكانَتْ حالتُهُ شبيهًا بحالةِ عجوزِ السُّوءِ(٥).

وأيضًا فغايةُ مريدِ الرِّئاسةِ أنْ يكونَ كفرعونَ، وجامعِ المالِ أن يكونَ(٦) كقارونَ، وقد بيَّنَ اللهُ في كتابهِ حالَهُما.

وقد زعمَ ذو الجهالةِ أنَّ السُّلطانَ لا يقومُ إلَّا بعطاءٍ، والعطاءُ لا يكونُ إلَّا بالمالِ، والمالُ لا يحصُلُ إلَّا باستخراجِهِ من حلِّهِ وغيرِ حلِّهِ، فصارُوا نهَّابين وهَّابينَ(٧).

---

(١) انظر: «السياسة الشرعية» لابن تيمية (ص٦١).

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (١٦٧٠) من قول الحسن.

(٣) البيت لمحمد بن عبد الله بن عيشون. انظر: «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٢/ ١٢٠).

(٤) من قوله: «وأنشدوا في ذلك» إلى هنا من (خ).

(٥) انظر: «السياسة الشرعية» لابن تيمية (ص٦٣)، وعجوز السوء هي امرأة لوط عليه السلام.

(٦) «أن يكون» من (خ).

(٧) انظر: «السياسة الشرعية» لابن تيمية (ص٥١).

ويقولـونَ: لا يمكِـنُ أنْ يتولَّى على النَّـاسِ إلَّا مَنْ يأكُلُ ويُطعِـمُ، أولئكَ هم[١] الكاذبونَ.

والعلماءُ الَّذينَ يقرِّونهم على ذلكَ كاليهودِ الَّذينَ قالَ اللهُ تعالى فيهم: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

وقالَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ: إني سمعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ النَّاسَ إذا رأَوا المنكرَ فلم يغيِّروه أوشكَ أنَّ يعمَّهم الله بعذابٍ منهُ»[٢].

وفي حديثٍ آخر: «إنَّ المعصيةَ إذا أُخفيَتْ لم تضرَّ إلَّا صاحِبَها، ولكنْ إذا ظهرَتْ فلم تُنكَرْ ضرَّتِ العامَّةَ»[٣].

وإذا طلَبَ السُّلطانُ أحدًا لإقامةِ الحدِّ عليهِ فاحتمَى بأحدٍ فمَن حماهُ فهو ممَّنْ لعنَهُ اللهُ ورسولُهُ؛ ففي «مسلمٍ»: «لعنَ اللهُ من أحدَثَ حدَثًا، أو آوَى محدِثًا»[٤]، فكلُّ من آوَى محدِثًا من هؤلاءِ المحدِثينَ فقد لعنَهُ اللهُ ورسولُهُ.

قالَ ابنُ تيميةَ: وإذا طلبَهم السُّلطانُ أو نوَّابهُ لإقامةِ الحدِّ فامتنَعوا وجبَ على المسلمينَ قتالُهم باتِّفاقِ العلماءِ، وقتالُ مَنْ يحميهم ويعينُهم[٥].

---

(١) «هم» من (ش).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٤٠٠٥). وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٧٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٦٨): فيه مروان بن سالم الغفاري وهو متروك.

ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٥٠)، وابن وضاح في «البدع» (٢٨٨) موقوفًا من قول بلال بن سعد.

(٤) رواه مسلم (١٩٧٨) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٥) انظر: «السياسة الشرعية» لابن تيمية (ص٧٢).

قَالَ: وعلى السُّلطانِ قتالُ كلِّ طائفةٍ ممتنعةٍ من التزامِ شريعةٍ من شرائعِ الإسلامِ الظَّاهرةِ المتواترةِ كالصَّلاةِ أو الزَّكاةِ أو الصِّيامِ، أو كانت مستحلَّةً ما كان من المحرَّماتِ الظَّاهرةِ المجمَعِ عليها كنكاحِ ذواتِ[١] المحارمِ والفسادِ في الأرضِ، فيجِبُ جهادُها حتى يكونَ الدِّينُ كلُّهُ للهِ باتِّفاقِ العلماءِ، كما قاتَلَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ وسائرُ الصَّحابَةِ مانعِي الزَّكاةِ، وكان قد توقَّفَ في قتالِهم بعضُ الصَّحابةِ ثم اتَّفقُوا على قتالِهم[٢].

[ولاية أمور النَّاس من واجبات الدِّين]

ثم ليعلَمِ السُّلطانُ أن ولايةَ أمورِ النَّاسِ من أعظمِ واجباتِ الدِّينِ، بل لا قيامَ للدِّينِ والدُّنيا إلَّا بها، فإنَّ بني آدمَ لا تتمُّ مصلحَتُهم إلَّا بالاجتماعِ لحاجةِ بعضِهم إلى بعضٍ، ولا بدَّ لهم عند الاجتماعِ من رأسٍ؛ قالَ النَّبيُّ ﷺ: «إذا خرجَ ثلاثةٌ في سفرٍ فليؤمِّروا أحدَهم». رواه أبو داودَ[٣].

وروى أحمدُ في «مسنَدِه» عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا يحلُّ لثلاثةٍ يكونونَ بفلاةٍ من الأرضِ إلَّا أمَّرُوا عليهم أحدَهم»[٤].

ولهذا رويَ أنَّ «السُّلطانَ ظلُّ اللهِ في الأرضِ»[٥].

---

(١) «المحرَّمات الظاهرة المجمع عليها لنكاح ذوات» ليس في (ش).

(٢) «بعض الصَّحابة ثم اتَّفقوا على قتالهم» من (ش). انظر: «السياسة الشرعية» لابن تيمية (ص١٠٦).

(٣) رواه أبو داود (٢٦٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦٦٤٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٤٧٢٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٨١): رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٥) رواه البزار في «مسنده» (٥٣٨٣)، وتمام في «فوائده» (٥٠٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» =

ويقالُ: ستُّونَ سنةً من إمامٍ جائرٍ أصلَحُ من ليلةٍ واحدةٍ بلا سلطانٍ[1].

ولهـذا كان السَّـلفُ الصَّالـحُ كالفُضيلِ بن عيـاضٍ وأحمدَ بنِ حنبـلٍ وغيرِهما يقولـونَ: لـو كان لنا دعوةٌ مُسـتجابةٌ لدعَونا بها للسُّـلطانِ؛ لأنَّ فـي صلاحِهِ صلاحَ المسلمينَ[2].

[لا يقصِدُ السُّلطانُ بسلطتَتِهِ العلوَّ والفسادَ]

ولا يقصِدُ السُّلطانُ بسلطتَتِهِ العلوَّ والفسادَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: النَّاسُ في ذلكَ أربعةُ أقسامٍ:

قسمٌ يريدونَ العلوَّ على النَّاسِ، والفسادَ في الأرضِ، وهوَ معصيةُ اللهِ، وهؤلاءِ الملوكُ ورؤساءُ المفسِدينَ كفرعونَ وحِزبِهِ، وهؤلاءِ شرُّ الخلقِ.

= (٣٠٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ورواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٠١٣) من حديث أبي عبيدة رضي الله عنه.

ورواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٢٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٨٨) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

ورواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٦٦٥٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ورواه قوام السنة الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (٢٠٨٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وله طرق أخرى، وقد جمعها السخاوي في جزء وسماه: «رفع الشكوك في مفاخرة الملوك»، وللسيوطي أيضًا جزء فيه.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/ ٣٩١).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٩١) عن الفضيل بن عياض. وانظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/ ٣٩١).

وقسمٌ يريدونَ الفسادَ بلا علوٍّ، كالسرَّاقِ والمجرمِينَ من سَفِلَةِ النَّاسِ ونحوِهم.

وقسمٌ يريدُونَ[1] العلوَّ بلا فسادٍ، كالَّذينَ عندَهم دينٌ[2] يريدونَ أن يعلوا بهِ على غيرِهم مِن النَّاسِ.

وقسمٌ هم أهلُ الجنَّةِ الَّذين لا يريدُونَ علوًّا في الأرضِ ولا فسادًا[3].

وفي «مسلمٍ» قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يدخُلُ الجنَّةَ مَنْ في قَلبِهِ مِثْقالُ ذرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، ولا يدخُلُ النَّارَ مَنْ في قلبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ إيمانٍ» فقالَ رجلٌ: يا رسولَ اللهِ! إنِّي أحبُّ أنْ يكونَ ثَوْبي حَسَنًا، أفمِنَ الكِبْرِ ذاكَ؟ قالَ: «لا؛ إنَّ اللهَ جَميلٌ يحبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ النَّاسِ»[4].

فبطَرُ الحقِّ: جَحْدُهُ، وغَمْطُ النَّاسِ: احتقارُهم وازدِراؤهم، وهذهِ حالُ مَن يريدُ العلوَّ والفسادَ.

[تحريم السجود للسلطان وتقبيل الأرض بين يديه]

ومِن أقبَحِ البدعِ المحرَّمةِ تقبيلُ الأرضِ بين يدَي الملوكِ، وحبُّهم لذلكَ، ورِضاهم بهِ، فإن كانَ سجودًا بأن يلاقي بجبهَتهِ الأرضَ؛ قالَ الإمامُ النَّوويُّ رحمَهُ اللهُ: فسواءٌ كانَ إلى القبلَةِ أو غيرِها، وسواءٌ قصدَ السُّجودَ للهِ أو غفَلَ، هو حرامٌ، وفي بعضِ صوَرِه ما يقتَضِي الكفرَ أو يُقاوِمُهُ[5].

---

(١) «الفساد بلا علو كالسراق والمجرمين من سفلة الناس ونحوهم وقسم يريدون» سقط من (ش).

(٢) «دين» من (ش).

(٣) انظر: «السياسة الشرعية» لابن تيمية (ص١٣٨).

(٤) رواه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٥) انظر: «روضة الطالبين» للإمام النووي (١/ ٣٢٦)، وكلامه هذا لمن يسجد بين يدي المشايخ من الجهلة.

وسُئلَ ابنُ الصَّلاحِ عن هذا السُّجودِ فقالَ: هو من عظائمِ الذُّنوبِ، ويُخشَى أن يكونَ كُفرًا(١).

وفي بعضِ كتبِ السَّادةِ الحنفيَّةِ: أنَّهُ(٢) يكفُرُ مُطلَقًا. وبعضُهم قالَ: إنْ أرادَ التَّحيةَ فهوَ حرامٌ، وإن لم تكُن له نيَّةٌ كفرَ عند أكثرِهم(٣).

[العدل أساس الملك]

فشأنُكَ أيُّها الملكُ من هذه(٤) الأمورِ إنَّما هو العدلُ، الَّذي تُوازَنُ الأشياءُ بميزانِهِ، وهوَ الغرضُ الَّذي الرِّفقُ من شروطِهِ، والإنابةُ من أركانِهِ، وجُعِلَ يومهُ كعبادةِ سبعينَ عامًا في فضلِهِ وإحسانِهِ(٥).

---

(١) انظر: «فتاوى ابن الصلاح» (ص٢٥٦). وجوابه جاء لسؤال نصه: مسألة: طائفة من الفقراء يسجدون بعضهم لبعض ويزعمون أن ذلك تواضع لله وتذلل للنفس ويستشهدون بقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فهل يجوز أو يحرم؟ وهل يختلف بما إذا كان يسجد مستقبل القبلة أم لا؟ وهل الآية في ذلك منسوخة في مثل ذلك أم لا؟ وتتمة جوابه: والسجود في الآية منسوخ أو يُتأوَّل.

(٢) «أنه» من (خ).

(٣) تكرر هذا في أكثر من كتاب من كتبهم، وفي المسألة تفصيل عندهم؛ إن أراد التحية لا يكفر، وإن أراد التعظيم يكفر. وقال العيني: في هذا الزمان لا يسجدون لسلطان إلا تعظيمًا وإجلالًا فلا يشك في كفرهم. انظر: «البناية» (١٢/ ١٩٩). وانظر: «المبسوط» للسرخسي (٢٤/ ١٣٠)، و«تبيين الحقائق» للزيلعي (٦/ ٢٥)، و«مجمع الأنهر» لداما أفندي (٢/ ٥٤٢).

(٤) «هذه» من (ش).

(٥) يشير إلى حديث ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة»، رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٩٣٢)، و«المعجم الأوسط» (٤٧٦٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٣٧٩). وقال المنذري: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناد الكبير حسن.

ومِن العدلِ إقامةُ حدودِ اللهِ الَّذي أقامَ بها وجهَ[١] الرَّبيعِ حنيفًا[٢]، وحدٌّ منها يُقامُ في الأرضِ خيرٌ لها مِن أنْ تُمطِرَ أربعينَ خرِيفًا[٣].

وممَّا يُؤكِّدُ عليكَ الوصيَّةُ أنْ تُنزِلَ النَّاسَ مَنازِلَهم، فتُقيلَ ذوي الهيئاتِ[٤] عثراتِهم[٥] إذا خطَروا في مذهبِ ريبةٍ، فاسحَبْ ذيلَ التَّجاوُزِ على خطواتهم إلَّا ما كانَ من حدودِ اللهِ، فإنَّه يُقامُ على الشَّريفِ كما يُقامُ على المشروفِ، فلا معروفَ إلَّا في التَّسويةِ بين أوامرِ المعروفِ.

[على السلطان مشاورةُ العلماء]

وعليكَ أيها السُّلطانُ بمشورةِ العلماءِ غيرِ المداهِنِينَ، وكن معهم حيثُ حلُّوا، وإلَّا اتَّخذَ النَّاسُ رؤساءَ جهالًا فضلُّوا وأضلُّوا[٦]، فاتخِذهم لمجلسِكَ جَمالًا، ولحِملكَ مقالًا، ولسِهامكَ نِصالًا، وما استعجَمَ عليكَ من حكمٍ فاكشِف منهم خبرَهُ، واعمَل فيهِ بأمرِ الشَّرعِ، فإن المعروفَ ما عرَّفَهُ والمنكرَ ما أنكرَهُ، فامشِ أيُّها الملكُ على إثرِ أقوالِهم، وإذا سُئِلْتَ غدًا فاجعَلِ الحوالةَ على سؤالِهِمْ.

---

(١) «وجه» من (خ).

(٢) في (خ): «خريفًا».

(٣) يشير إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتقدم: «حدٌّ يُعمَلُ بِهِ في الأرضِ خيرٌ لأهلِ الأرضِ مِنْ أنْ تُمطِرَ أربعينَ صَباحًا». رواه النسائي (٤٩٠٤)، وابن ماجه (٢٥٣٨).

(٤) **هنا تنتهي النسخة الخطية المرموز لها بـ(ش).**

(٥) يشير إلى حديث رواه أبو داود (٤٣٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود».

(٦) مقتبس من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يرفعه: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جهَّالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»، رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

وقد قيلَ: ينبَغِي للملكِ أن يتَّخذَ العلماءَ شعارًا، والصُّلحاءَ دثارًا، حتَّى تدُورَ مملكَتهُ بينَ نصائحِ العلماءِ ودعواتِ الصُّلَحاءِ(١).

ولا يتَّبعْ ما أحدثهُ من القوانينِ ملوكُ هذه الأيَّامِ، ورأَوا أنَّها أنفعُ ولو أضرَّتْ بالأنامِ، فإنَّ إثمَها أكبرُ من نفعِها، كيفَ لا وقد قدَّمُوها على ما جاءَ بِهِ بينَهم، فأماتوا بذلكَ سُننًا وأحيَوا بِدَعًا، وتفرَّقوا فيما أحدثوهُ من الأحداثِ شِيَعًا، وهوَ رأيُ مَنِ اتَّبعَ النَّظرَ، وتركَ الآيةَ والخبرَ، فحِكمةُ اللهِ مطويَّةٌ فيما يأمرُ بهِ على ألسنةِ رسُلِهِ، وليسَتْ ممَّا يَستَنبِطُه ذو العلمِ بعلمِهِ، أو يَستدِلُّ عليهِ ذو العقلِ بعَقلِهِ، إلَّا وأنَّها ممَّا تخفِّفُ موازينَ الأعمالِ، وأنَّها لا تربُو عندَ اللهِ وإنْ ربَتْ عندَ النَّاسِ، وصاحِبُها وإنْ أثرَتْ يدهُ فهو في غدٍ من ذوِي الإفلاسِ، فهذه كلُّها خبيثاتُ المطاعمِ، وبيلاتُ المظالمِ، ثقيلاتُ المغارمِ.

ألَا وإنَّ الزَّادَ من الحلالِ ممَّا يزيدُ القلوبَ تنويرًا، ومِن سُنَّةِ اللهِ أن يُبارَكَ في القليلِ حتى يصيرَ كثيرًا.

وقد قيلَ: إذا ظفرَتِ البطونُ بطيبِ اللُّقمةِ تفجَّرتْ على الألسنةِ ينابيعُ الحكمةِ(٢).

فينبَغِي للسُّلطانِ الحازمِ أن يضرِبَ أعناقَ هذه الحوادثِ بسيوفِ الأبطالِ، ويقبلَ الحوالةَ فيها على خزائنِ رحمةِ اللهِ التي لا يُنقِصُها كثرةُ الإفضالِ، فإنَّه يجزي الحسنةَ بعشرِ أمثالِها، ويُعرِضَ عن قليلِ حرامِ الدُّنيا بكثيرِ حلالِها.

وليُفضِ العدلَ على الرَّعيَّةِ إفاضةَ اللِّباسِ، ويطهِّر أرجاءَهم مِن الظُّلمِ تطهيرَ

---

(١) انظر: «سراج الملوك» للطرطوشي (ص٥٢).

(٢) نحوه في «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (٢/ ٣٢١).

الأرجاسِ، فخيرُ سننِ الخيرِ ما بقِيَ عمرَهُ مخلَّدًا، وعملَ بهِ حتَّى يكونَ أجرُهُ على تردُّدِ الأيَّامِ مُردَّدًا، أو لِيندبْ جهدَ سيرَتِهِ الحسنةِ، ليكُونَ ممَّن سَنَّ سُنَّةً حسنةً.

فإنْ قالَ قائلٌ: إنَّ مَنْ تقدَّمَكَ عجَزَ عن هذهِ الحسنَةِ، فقلْ: كلُّ شاةٍ برجلِها ستُناطُ(١)، وكلُّ حسنةٍ وسيئةٍ بصاحِبها ستُحاطُ، فنقُولُ بعدَها: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ [فصلت: ٢٩].

وحكَى ابنُ السُّبْكيِّ وغيرُه: أنَّ الشَّيخَ عزَّ الدِّينِ بنَ عبدِ السَّلامِ حضرَ عندَ السُّلطانِ الملكِ الصَّالحِ أيوبَ، وكانَ قد اطَّلعَ على حانةٍ يُباعُ فيها الخمرُ، ويُفعَلُ فيها المنكرَاتُ، فقالَ: يا أيُّوبُ! كيفَ يسعُكَ في دينِكَ أن تكونَ الحانةُ الفلانيَّةُ في سلطانِكَ؟ فقالَ: يا مولانا، أنا ما علِمْتُ هذا، هل هو من زماني؟ قالَ: أفترْضى أن تكونَ ممَّنْ تقولُ يومَ القيامةِ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فما وسِعَهُ إلَّا أن أمرَ بإبطالِ ذلكَ.

وسُئِلَ الشَّيخُ بعدَ أنْ انفصَلَ المجلِسُ: كيفَ تجاسرْتَ على هذا السُّلطانُ معَ شدَّةِ سطوَتهِ؟ فقالَ: رأيتُهُ قد تعاظَمَ في موكبِهِ، فأردْتُ أن أُهِينَهُ.

فقيلَ له: فما خِفتَهُ؟ فقالَ: استحضَرْتُ هيبةَ اللهِ في قلبي، فصرتُ أراهُ كالقطِّ(٢).

هكذا يكونُ العلماءُ العاملُونَ، جعلَنا اللهُ منهم آمينَ.

* * *

(١) كل شاة برجلها ستناط: النَّوْطُ: التَّعليق، أي: كلُّ جانٍ يؤخذ بجنايته، قال الأصمعي: أي لا ينبغي لأحد أن يأخذ بالذنب غير المذنب. انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ١٣٣).

(٢) انظر: «طبقات الشافعية» للسبكي (٨/ ٢٠٩).

وكانَ الفـراغُ مِـنْ تعليـقِ هـذا التَّاريـخِ العظيـمِ بمصـرَ، يـومَ التَّاسـعِ مِـن ذي الحجَّـةِ الحـرامِ، مِـنْ شـهورِ سـنةِ تسـعٍ وعشـرينَ وألـفٍ، وكُتِـبَ برسـمِ حدقـةِ الوجـودِ، وحديقـةِ الجـودِ، الرَّافـلِ فـي أبـوابِ السَّـعادةِ، والمترسِّـلِ بُـردَا الفخـرِ والسِّـيادةِ، مَـنْ هـوَ درَّةٌ فـي يتيمةِ الدَّهرِ، والواسـطةُ في قـلادةِ النَّحرِ، مَـنْ أطلَعَ اللهُ شـموسَ سـعادَتهِ مشـرقَ الأنوارِ، وألبسَ الدُّنيا من حُللِ سـعادَتهِ ملابسَ الافتخارِ، مولانـا وأولانـا رئيـسِ الدِّيـارِ الشَّـاميَّةِ ومزيِّنِ الدِّيـارِ المصريَّـةِ، المحـروسِ بخيرِ البريَّـةِ، ومـن تسـمَّى بأفضلِ البرايـا بعدَ الرَّسـولِ، واللهُ وكيـلٌ على ما أقـولُ، أعني بذلـكَ سـيِّدَنا ومولانـا الحجكِـيَّ الخدومـيَّ، سـيِّدي أبـو بكـرِ الشَّـابيُّ الحنبلـيُّ، الموفَّـقُ بفضـلِ اللهِ، والمحبـوبُ لوجـهِ اللهِ، خلَّـدَ اللهُ عليـهِ سـوابغَ نعَمهِ، وأسـكَنَهُ فسـيحَ جنتـهِ بمحمَّـدٍ وصحابتِـهِ، آمينَ[1].

* * *

(١) وجـاء فـي خاتمة النسـخة (خ): «وكانَ الفراغُ مِـنْ رَقمِهِ: يومَ الأربعاءِ المباركِ، ثامنَ عشـر شـوَّالٍ، مـن شـهور سـنة (١١٦٥) ألـفٍ ومئـةٍ وخمسٍ وسـتِّينَ مـن الهجـرةِ النَّبويَّةِ، علـى صاحبِهـا أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّـلامِ».